

بَابَرُ

في السادس عشر من شهر المحرم عام ٨٨٨ هـ / ١٤ فبراير ١٤٨٣ م بعث عمر شيخ ميرزا صاحب فرغانة برسله إلى مغولستان لتزف إلى صهره يونس ، خان المغول ، بشرى مولد حميد له من ابنته قتلق نكار خانيم ^(١) .

وأطلق الزاهد الولي ، مولانا منير مرغيناني ، على الوليد اسم ظهير الدين محمد ، حتى إذا ما صعب التلفظ بهذا الاسم على عشيرته من الأتراك والمغول الجغتائين ، وكانت عامتهم ما تزال على عجمتها ، أطلقوا عليه من عندهم لقب بابر ، وهو الذي اشتهر به في التاريخ وعرفه الناس به .

وفي عروق بابر امتزجت دماء الأتراك بدماء المغول ، فأبوه عمر شيخ ميرزا ، حميد تيمورلنك التركي ، وأمه هي ابنة يونس

١ - بابر نامه ورقة ١ . هذا ولقب خانيم معناه ابنة الخان أو زوجته . وقد عرف هذا اللفظ إلى كلمة « حاتم » الشائعة في الشرق . وتظيره لقب بيكيم أي - أمير الأمير (الملك) أو ابنته ، ولفظ ييجوم الشائع بالهند هو تحريف له .

خان مغولستان وحفيد چغتای ثانی أبناء چنگیز خان (١) .
ولقد أدت بصاحب فرغانة أطباءه إلى قضاء أغلب عمره في
محاربة جيرانه، حتى انتهى الأمر إلى تحالف أخيه أحمد میرزا صاحب
سمرقند، مع صهره محمود، خان طشقند، على غزوه في فرغانة نفسها .
وحدث أن هوى عمر شيخ میرزا إلى الأرض من أعلى
حصن له بأخشي حيث كان يتفقد حمام له هناك، فلم يصرف
موته للمعاجي، هذا خصومه عن فرغانة حيث خلفه بها ابنه الصبي
بابر الذي لم يكن يتجاوز الثانية عشرة من عمره، فاستيقنوها
فرصة موأية لانتهاج الميراث كله .

ولم ينفع الفتى الصغير ما بذل رجاله من جهود لحمل خصوم
أبيه . من ذوى قرباه، على الرجوع عن بلاده، لكن الأقدار
اسعفته من بعد ذلك إذ غرق كثير من دواب صاحب سمرقند

١ — ينفر بابر من ذكر المغول نفوراً شديداً أبنته بأكثر من موضع بويرته
التي كتبها بنفسه (بإرنامه ورقمة ٩٠) ، ويعتز بتريته اعترازاً شديداً ، ومع
هذا فقد نسبت دولته الهندية إلى المغول ، إذ كان الهنود قد درجوا منذ قدوم
چنگيزخان إليهم على إطلاق اسم المغول على كل الفزاة الذين وفدوا إليهم من بلاد ماوراء
النهر من بعد ، كما صار هذا اللفظ بناته مدلولاً على الأبهة وضخامة الأجسام بصرف
النظر عن الجنس . هذا وقد ألفتنا بأنسكتاب فصلا عن الترك والمغول يجمل تاريخهم
ودورهم في العالم الإسلامي .

انتهاز أحد جسور نهر قبا وتفشى الوباء في خيوله ففزع بالهدنة مع ابن أخيه وآب إلى دياره . وكذلك فعل خاله صاحب طشقند حين حاصر مدينة أخشي فاستعصت عليه ، واعتلت صحته فقرر بدوره الرحيل إلى بلاده .

ودفع جند فرغانة عن أراضيهم كذلك الأمير أبا بكر ، صاحب فُشغر وخُستَن ، وكان قد قدم بدوره ينشد غنما .

ومات السلطان أحمد ميرزا بعد قليل خلفه على عرش سمرقند أخوه محمود ميرزا الذي كان قد وسَّع من رقعة أراضيه بإقليم حصار حتى بلغت حدوده الهندكوش وضمّت الصاغانيان وبلاد الخُستَل وبدخشان .

وبرغم أن الحياة لم تطل بسلطان سمرقند الجديد ، فإن الأهلين عانوا كثيرا في حكمه لما اتسم به من الظلم وما ذهب إليه جُنده من انتهاب الدور وسلب الأموال وانتهاك الحرمات .

انقشع عن السلطان الفتى بابر أكبر خطر كان يتهدده بموت عمه أحمد ميرزا ومحمود ميرزا ، فلم يكد يسترد جانبا كبيرا من أملاك أبيه الضائعة حول فرغانة ، حتى ضم إليه كذلك سمرقند ، حاضرة جده تيمورلنك القديمة ، بعد أن انتزعها من أيدي بايسنغر ميرزا ابن عمه محمود في مستهل عام ٩٠٣ هـ .

وبقى بابر مائة يوم بسمرقند أعظم مدن بلاد ما وراء النهر
التي تزخر بآثار التيموريين الفخمة ، ومنها مسجد مزار شاه الذي
أقيم حول مقام الصحابي قثم بن عباس ، فاتح المدينة في خلافة عثمان
ابن عفان ، والذي جلب له خيرة الصناع ومواد البناء من فارس
والهند ، والقلعة التي تزدان بتصاوير حروب تيمور في الهند ، ثم
مدرسة الخبغ بك ومرصده اللذان ذاع صيتهما في العالم الإسلامي ^(١) .
ثم خرج بابر من سمرقند ليقضى على ما أثاره أخوه جهبا نكير
ورجائه من الفتن بفرغانة ، فانتز على ميرزا صاحب بخارى هذه
الفرصة وزحف إلى سمرقند فهزم حاميتها واستولى عليها .
وإذ أتيح لبابر أن يستولى على سمرقند من جديد ، وكانت
وقتذاك في حوزة الأوزبكي الذين كانوا قد دخلوها بعد أن
غزروا بسلطانها وأمه ، فإن شيباني خان الأوزبكي لم يسكت
عنه حتى أخرجه منها بعد شهر قليلة .
وتمكن من بابر اليأس حين رأى أغاب جنده ينقض عنه

١ — يصف بابر في سيرته إنليل سمرقند وصفا دقيقا مفصلا . فيتحدث عن
موقعه الجغرافي وما يتعلق من حاصلات وما به من صناعات ، ويشير إلى تأريخه وأول دخول
الإسلام فيه ، ومن ظهر به من العلماء ومشاهير الرجال ، ومن حكمه من آباء تيمور .
بابر نامه ورقة ٤٤ ب وما بعدها .

ذوى قريابه يعرضون عنه حين استنجد بهم . فعقد العزم على
هجرة إلى إقليم خيطان عند الصين الشمالية ، مبتعدا عن بلاد
، راء النهر كلها وما أصابه بها من أهوال ومتاعب .
ولم يُغن بابر فتيلًا ما أمده به خاله المغوليان : أحمد ، خان
بغوستان . ومحمود ، خان طشقند ، من جند ، حتى قدم إليه كل منهما
نعمته . ذلك أن خان الأوزبگك لم يكتف بما أنزله من هزيمة بهذا
الجند عند الجنوب من طشقند ، حتى أوقع الخائنين المغوليين ^(١)
في أسره ثم انتقل من بعد ذلك يطار د بابر في عنف متواصل حتى
جمعه على النزوح من بلاد ما وراء النهر كلها آخر الأمر .

في أرض كابل وغزنة : ظل بابر بعد أن أفلت من أيدي
شيباني خان الأوزبگك ، يضرب مدة على غير هدى في منطقة
تلال أسفرا ، التي تفصل فرغانة عن إقليم حصار ، حتى تغلب
طموحه على نوازع اليأس في نفسه فحزم أمره على المسير إلى
خراسان لعله يصيب حظا طيبا عند ابن عمه السلطان حسين
بيقرا . لذا فادر فرغانة في المحرم من عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م وهو
في مستهل العام الثالث والعشرين من عمره ، ورجاله دون الثلاثمائة ،

فما إن بلغ إقليم حصار وتخطاه صوب الجنوب حتى أقبل عليه خسرو شاه صاحب حصار بقواته وجموع من عشائر الأبل والأولوس الهاربين من وجه الأوزبك فانضموا جميعا إليه .

ورأى بابر القوم من حوله في رعب وهلع خوف الأوزبك ، وتردد شديد في المسير إليهم ، فأثر أن لا يغامر بما اجتمع له من الجند والمال بالاشتباك مع عدوه من جديد .

ولئن غدت بلاد ما وراء النهر كلها بأيدي الأوزبك ، وهذى خراسان يحكمها سلطان قوى هو حسين بيقرا ، وهو محط أنظار شيباني خان ، الأوزبك ، وهدفه التالي في الغالب ، فإن أرض كابل وغزنة — فضلا عن بعدها عن مواطن العراك وقتذاك — قد أخذت الفوضى تعمها حين توفي سلطانها الخبغ بك بن السلطان أبي سعيد ميرزا . ويسر اضطراب الأحوال في هذه البلاد لباير امتلاكها عام ٩١٠ هـ ، دون إراقة دماء ، بعد أن ضمن لال أرغون ، أولى الأمر فيها إذ ذاك ، الأمان في قندهار (١) .

وهذان الإقليمان ، أى كابل وغزنه ، كانا يشغلان مساحة كبيرة من بلاد الأفغان الحالية (٢) . وتقوم مدينة كابل به وسط

١ — حبيب السير رابع ٣٠٨

٢ — هذه التسمية من مصطلحات العصور الحديثة فكان هذه البلاد =

حدائق ومروج خضراء ، وإقليمها صعب المسالك والدروب ،
إلا أن توسطه بين الهند وخراسان قد ساعد على رواج
مركزه التجاري .

ويشتهر الإقليم بوفرة الفواكه والحاصلات ، وطيب المناخ
في المنخفضات في الوقت الذي يكسو الثلج فيه مرتفعاتها شتاء
وفيها قامت دول إسلامية قوية مهمة مثل الغزنويين والغوريين .
وأدت ضآلة رقعته بالنسبة لأراضي جيرانه الفسيحة إلى طمع
أصحابه في الغالب فيما يجاورهم من أراضين ، فاندسروا إلى سهول
الهندستان ومراعي خراسان وفارس مرات متكررة في التاريخ .
خيّل لباهر أن الأمر قد استقر له في مقامه الجديد حتى
انطلق ، بعد أن فرغ من تنظيم شؤون دولته الجديدة ، في غزوات
خفيفة لمشارف الهندستان ومنازل الخليجيين لينتهي من بعد ذلك

== كانوا ينتمون في الواقع إلى قبائل وأجناس مختلفة من فرس ومغول وترك وعرب، ومن
هذا القبائل المزيرو والكودري ، ثم الأفغان ، ومنهم يوسف زى والأفريدي والبطهان
الذين كانت مواطنهم بمنطقة التلال فيما بين كابل وبشاور . والمعروف من تاريخ هذه
البلاد ، على غموض ماضيها ، أن السلوقيين الأغريق والمغول والهنود والفرس ثم العرب
والصفاريين والسامانيين والغزنويين والغوريين تداولوا الحكم فيها ، كما استولى عليهم
تيمور لنگ فلبت في حوزة أبنائه عدة قرون .

إلى الإستيلاء على قندهار .

على أن الأخبار وافته بخروج شيبانى خان من سمرقند فى
خمسين ألفا من الجند أو آخر عام ٩١٢هـ / ١٥٠٧ م ، اقتحم بهم
خراسان على أبناء السلطان حسين بيقرا فأعمل السيف فى نفر
منهم وسبى نساءهم . وأطلق لجنده بلادهم كلها فانتهبوها وقتلوا
كثيرا من أهلها وفيهم صفوة من العلماء والوجوه^(١) ، ثم استدار
بهم من بعد ذلك فطاردهم من مرو حتى بلغ قندهار وأخذ يترق
على بابر أبواب ملجئة بأرض كابل طرقا عنيفا حتى ظن أن
لإعاصم له منه إلا أن يلوذ بالهند ، فأجمع ورجاله أمرهم بينهم على
الالتجاء إليها .

فهاهم الأمراء التيموريون قد أخرجوا جميعا من بلاد ما وراء
النهر ، وهاهم الأتراك الچغتائيون قد صاروا جميعا فى نطاق
دولة الأوزبگك خوفا أو طمعا . ولئن كان بابر قد قُدّر له أن
يُفعلت من برائن الخان الأوزبگى ، فإنه وهو فى عزلته بكابل
أضعف شأنه وأقلّ جنده من أن يواجه هذا العدو القوى الذى
لا يرتضى مهادنة أو يقبل مسالمة .

وشاءت الأقدار أن تهديء من روع بابر، إذ اضطُر الأمير الأوزبكي شيباني إلى الارتداد عن قندهار سريعا. على أثر ما بلغه من مباغته بعض الثوار في خراسان لحسن نيره تو عند هرات وكان فيه نساؤه وأمواله^(١). ليشتبك من بعد ذلك في صراع عنيف مع شاه الفرس.

ذلك أن شيباني خان كان قد بعث في عام ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م إلى الشاه إسماعيل الصفوي يهدده باجتياح بلاده إن لم يعدل عن مذهب التشيع ويمسك عن حمل الناس عليه قهرا. حتى إذا ما بعث إسماعيل صاحب فارس إلى خان الأوزبكي يسأله في لطف أن يمنع جنده من التسرب إلى أراضيه عند الجنوب من خراسان وكرمان ويوقف اعتداءاتهم وما يمارسونه من أعمال السلب والنهب، فردّ عليه الأخير برسالة ملأها بالتعريض به حتى يخز منه في ادعائه ملكا لم يرثه، وطواها على عكازة وطبق كبير من البوص هما عُدّة الدراويش^(٢)، فكانت الحرب.

١ — لم يمض بابر إلا القليل بكابل بعد عودته إليها حتى رزق بابنه هايون في أواخر عام ٩١٣ هـ - ٥٠٨ م. وفي هذه الأثناء اتخذ لنفسه لقب البادشاه الذي لم يحمله أحد من الأمراء التيموريين من قبله إذ كانوا لا يعرفون إلا لقب ميرزا. بابر نامه ورقه ٢١، ٢ — أراد بذلك أن يعرض بابي إسماعيل إذ كان درویشا، وقد رد عليه الشاه =

وتوغل الشاه الصفوى فى خراسان ودخل مشهد واقتحم هرات ،
حتى إذا بلغ مرو فامتنع بها شيبانى خان عليه ، عمدا إلى خدعة كان
فيها هلاك الخان الاوزبگى وقواته . فقد استدار بجيشه فى اتجاه
العراق حتى ظنّ أنه الرحيل والجلء ، فكن على مسيرة عشرة
أميال من المدينة ، وحين خرج فى أثره شيبانى خان فى عشرين ألفا
من الجند ، مطاردا ، وقع فى الكمين الفارسى ولاقى وقواده حتفهم فيه .
ولم يرجع إسماعيل الصفوى عن قتال أعدائه حتى خضعت له
جميع خراسان وصار نهر جيحون هو الحد الفاصل بينه وبينهم .

عود إلى سمرقند : بعثت هزيمة الاوزبگى واندحارهم على أيدي
الفرس الآمال العريضة فى نفس بابر ، وبات يبنى النفس
باسترداد بلاد آبائه والعودة إليها . وقوى من عزيمته دعوة البدخشانيين
له بالسير إليهم ، وقدوم سفراء الشاه الصفوى إليه ومعهم رسالة
ودّ من سيدهم وفى صحبتهم خانزاده بيگيم أخت بابر ، وكانت قد
وقعت . يدى شيبانى خان بسمرقند . وأمدّ شاه فارس نفسه من
بعد ذلك بابر بجيش قوى فتوغل به فى بلاد ما وراء النهر حتى

== الصفوى ، الذى كان يتر بانسابه إلى أبناء فاطمة البتول ، بأن الرفعة لا تورث وأن
الملك لا ينتقل كذلك بالوراثة فى اطراد ، وإلا صار من البيهداديين إلى الكيانيين
ولما أوتيه جنكيزخان . . . تاريخ فرشته أول ص ٢٠٠ .

سقطت بأيديه بخارى ودخل سمرقند فـخـطـب له من منابرها
منتصف رجب من عام ۹۱۷ هـ / ۱۵۱۱ م .
على أن بابر لم يكذب يمضى أشهر قلائل بسمرقند ، بعد أ
صرف عنه جند الفرس ، حتى تمكن محمود تيمور بن شيبانى خ
من استرداد بخارى وإنزال هزيمة قاصمة بجنده بظاهر سمرقند
فاستصرخ من بعد ذلك الشاه اسماعيل الصفوى من جديد ، فبع
إليه بقائده أمير يار أحمد اصفهانى الذى باغ من عنفه أن أ
بإنزال مذبحة مروثة بسكان مدينة قرشئى ، حين وقعت
بأيديه ، فقتل منهم خمسة عشر الفا فيهم نخبة من علماء السُّ
والأعيان. (۱)

هنالك تراهى للأوزبكك ومعهم الأهلون مدى ما يتهددهم
الخطر فى توغل جند القزلباش (أصحاب القلانيس الحمراء
الفرس ، فجمعوا جمعهم عند غجديوان واشتبكوا مع أعدائهم
قتال مرير انتهى فى رمضان من عام ۹۲۰ هـ / ۱۵۱۴ م بهزيمة الفر
ومقتل قائدهم أحمد اصفهانى المعروف بنجم ثانى (۲) .
وبرغم ارتداد بابر إلى إقليم حصار من بعد ذلك دون خسار

۱ — تاريخ فرشته أول من ۲۵۱ .

۲ — مآثر الأمراء أول ۴۰۹ .

تذكر ، إذ كانت الصدمة كلها من نصيب الفرس ، فقد رأى أن سكان هذه البلاد الذين رحبوا به بالأمس ، حتى أمكن له استرداد أكثر أراضيه السابقة ، وفيها بخارى وسمرقند ، قد انقلبوا اليوم فأصبحوا له جسد كارهون لارتدائه في أحضان الفرس الذين لم يتورعوا في سبيل نشر مذهبهم وحمل الناس عليه قسرا ، عن إنزال المذابح بالسكان والقضاء على فريق كبير من الفقهاء والعلماء السُنيين في قرشي على الخصوص ، " فانهارت آماله ببلاد ماوراء النهر كلها ، وقفل راجعا إلى كابل ، ليولى وجهه بعد قليل صوب البنجاب والهند ستان التي سار إليها أجداده من قبل ، والتي غدت مسرحا للاضطرابات والفوضى في ظل

١ - يشيد مؤرخو القيس عموما بالشاء الصفوى ولكنهم ينكرون عليه عغه في سبيل نشر مذهب التشيع . (تاريخ عمومي إيران ص ٢٥٨) . والمعروف أن بابر حاول جهده أن يجعل القائد الفارسي على العدول عن هذه المذابح ولكنه لم يوفق . وكان مما أخذه الناس على بابر ارتدائه لزي القيس العسكري . هذا وقد بلغ الأوزبك من النفوذ وسعة الرقعة أن صاددوق موسكو لا يعين إلا برأيهم ويلزم بدفع الجزية لهم ، فلولاً تتان امراء المسلمين فيما بينهم إذ ذلك - من الفرس والعثمانيين الأوزبك والمصريين - لتأخر قيام روسيا التي أدى ظهورها إلى إضعاف قوة المسلمين في الدولة العثمانية وفرنس ، وانتهي بضياع بلاد الأوزبك كلها وفيها بخارى وسمرقند والتركتات . وخضوع أربعين مليوناً من المسلمين لجسوت قياصرة الروس واستبدادهم .

حكومة ضعيفة مقطعة الأوصال ، وهى بثرواتها واتساع رق
أصلح مكان لتحقيق حلمه الكبير في إقامة دولة كبيرة له على كل حا

فتح الهندستان : لم يكن للهندستان حين أقبل عليها بابرغا
أوائل القرن العاشر الهجرى شىء من تلك الوحدة المتماسكة
شهدتها أيام كبار الغزنويين ومن خلفهم عليها من أمثال شه
الدين الغورى وقواده وعلاء الدين الخلاجى وغيث ال
تغلوق .

ولقد حاول السلاطين اللودهيون الأفغان ، فى أعقاب ال
التيهورى ، أن يستعيدوا لهذه البلاد سابق مجدها . فصادف
منهم التوفيق ، فأتيح ليهلول لودهى - مثلاً - أن يسترز حدود
دهلى القديمة ويبسط نفوذه على كافة الرقعة الممتدة بين إقليم
فى الشرق وأقصى البنجاب فى الغرب : ثم خلفه ابنه اسكند
بعده فأضاف إلى بلاده منطقة الدوآب وأخضع لسلطانه أ
الراجپوتانا ووثق من علاقائه بحكام البنغال .

وكان عمال دهلى على ولاياتها ، عند اللودهيين ، من الأ
الأفغان من قبائل لودهى وفردولى ولوحانى . وكانوا جميعا يند
أن الدولة إنما قامت بسيوفهم ورجالهم ، فمناصبهم ، والحالة

ليست بمنحة من سلطان دهلي أو هبة منه ، ففى حقهم الثابت الطبيعى معه بعد أن نصره وأقرو له بزعامته عليهم ، وفيما دون ذلك فهم أنداد يتساوون معه فى الحقوق والواجبات .

وحين خلف السلطان إبراهيم أباه سكندر قال إلى امتهان أمرائه والانتقاص من حقوقهم حتى ركب طريق العنف معهم ، فجمعوا أمرهم على التراجع عن بلاطه إلى ولاياتهم ليثيروا فتنة عارمة عليه بأوده وجونپور وبهار ويصرحوا بخروجهم على سلطانه .

وما غدت البنغال وما لوه والكجرات أن قطعت بدورها علاقاتها مع العاصمة ، وراح رانا سنگا ، صاحب اُدايبور ، وأقوى أمراء الهادكة فى زمنه ، ينزعم أمراء الراجپوتانا على حائف عقده فيما بينهم بغية القضاء على سلطان المسلمين فى الهند كلها واستعادة آجنادهم الغابرة (١) .

وانتهى استبداد إبراهيم اللودهى بأمرائه إلى أن انطلق فريق

١ — كات امارات الدكن الإسلامية بدورها مستقلة عن نفوذ دهلي ، فى حين استطاع آل أرغون ، بعد أن أخرجهم باير من قندهار ، أن يضعوا أيديهم على ولاية سند والمثلان ويتزعموها من أيدي أصحابها الخليجين . Prasad. Muslim Rule . pp 258-60

من كبارهم ، وفيهم دولتخان لودهي أمير البنجاب وعلاء الدين علم خان عم السلطان، يستنجدون ببابر في كابل ويحرضونه على دخول الهند ومعاونتهم في إنزال سلطان دهلي عن عرشه .

ما يفتأ ظهير الدين محمد بابر يردد القول، في سيرته أنه منذ أن استقر به للمقام في كابل كان يعتزم التوجه إلى الهندستان، وذلك قبل أن يشرع في فتحه الحقيقي لها، فتمضلا عما كان لجده السلطان أبي سعيد من أملاك عند أطراف البنجاب والسند، كان يرى في نفسه الوريث الشرعي لها حتى بعث إلى السلطان اللودهي إبراهيم صاحب دهلي يطالبه بها . فقد تحقق لديه استحالة استرداد بلاد ما وراء النهر عليه بعد أن ثبت الأوزبكيك أقداهم بها ، وبات الصفويوز أصدقاءه وحلفاؤه يسيطرون على خراسان وما حولها .

ولقد أتى بابر أن ينحدر من الهند كوش إلى مشارف البنجاب وسهولة القرية في غزوتين ناجحتين بلغ بها بهيرة وآب منها بكثير من الأسلاب والغنائم وبقدر طيب من المعلومات المفيد عن الهند وأهلها وخصارها ، وأحوال حكومتها قبل كل شيء . حتى إذا ما استمداه بعض أمراءها على سلطانهم خرج إليها في غزوتيه أخرتين بلغ في أولاهما لاهور قصبه البنجاب ودخل في الثانية

أگر اجلس على عرش الهند وأقام بها دولته. (١)
غزو بهرة : خرج بابر من حضرته كابل في الحرّم من
عام ٩٢٥ هـ / ١٥١٩ م فسلك طريق بشاور فاجتاح حصن بچور
على حمايته برغم استبسائها الذي كلفها ثلاثة آلاف من الأرواح (٢)
حتى إذا ما عبر نيلاب وجهم من روافد السند أقبل عليه زعماء
القبائل هناك يعلنون ولاءهم له ، فبسط بذلك نفوذه على مناطق
جيتاب وخوشاب جينوت ، وكانت جميعها من أملاك التيموريين
السابقة ، ثم عبر الحاجز الملحي إلى بيرة فاستسلم له أهلها على جزية
كبيرة دون قتال .

هنالك نصح له رجاله أن يصالح سلطان دهلي على ردّ جميع
أملاك التيموريين بالپنجاب إليه ويعود إلى بلاده .
وحمل بابر على قبول هذا الرأي ما لا حظّه من ضيق رجاله
بحرّ الهند اللافح ، وإن كان أمير الپنجاب قد حبس رسوله إلى دهلي

١ — يقدر بعض المؤرخين غزوات بابر الهندية بخمس ، فمنهم من يدخل في حسابها
مجوله عند مشارف الپنجاب الاستثنائي عام ٩١٠ هـ ، ومنهم من يضيف إليه خروجه
إلى بشاور لتأديب القبائل الخارجة عليه .

٢ — رأى رجاء هذا الحصن النشاق لأول مرة فراحوا يسخرون من أعدائهم
وهم يشعلونها . حتى إذا ما انطلقت الأصوات الكثرين منهم بلغ الخوف منهم مبادته .
بإرنامه ورقة ٧١٧ .

عنده فلا هو أطلقه إلى غايته ولا هو رده إلى بلاده .
على أن بابر لم يكذب يمضى بكابل شهرا واحدا، بعد أن عاد إليها،
حتى ارتد إليه نائبه على بهيرة، وما حولها لخروج الهنود^(١) والأفغان
عليه وعجزه في قواته القليلة عن القضاء على عصيانهم .
وأدى إلى تعويق خروج الپادشاه إلى البنجاب من جديد ما كان
من خروج بعض قبائل الأفغان عليه ببلاده حتى انتهى إلى تعزيز
حصون بشاور، بحاميات قوية تستطيع السيطرة على منازل الأفریدی
والوزيری^(٢) وخضرخيل فيما حولها . على أنه لم يكذب يباغ مشارف
بهيرة من جديد عام ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م حتى بلغه انقضاء شاه بيك
أرغون على قندهار وإعماله السلب والنهب فيما حولها من أرضين،
فارتد إليه من فوره فأخرجه منها ونصّب عليها ثاني أبنائه كامران،
كما تم له كذلك الاستيلاء على بدخشان فأقام عليها ابنه الأكبر همايون .
حتى إذا ما تم له ذلك كله وتوطد الأمن في ربوع بلاده . فوفد
إليه رسل بعض الأمراء الأفغان اللودهيين يستجدون به من طغيان

١ — نطلق لفظ الهنود في هذا الكتاب على المسلمين من أهل البلاد، غير الهنادكا
الذين بقوا على ملة آبائهم .

٢ — لهذه القبائل صفحات بطولة مشهودة. حين ردت البريطانيين عن دخول بلادهم
بطريق الهند . حاضر العالم الإسلامي ثان من ١٩٨ — ٢١٤ .

سلطانهم صاحب دهلي (١) طفق بعد العُدَّة لغزوة هندية كبرى انتهت باقتياله على أجزاء كبيرة من البنجاب ودخول عاصمته لاهور. الپادشاه في لاهور : لم يكن بابر ليتردد عن المسير إلى أرض الهند من جديد وقد تكشف له في غزواته السابقة مدى ما عليه هذه البلاد من الثراء الكثير وما يتيح له ترامي رقعتها وضعف حكومتها من فرصة موافية لإقامة دولة كبيرة له ، وها هم بعض أهلها يدعونهم إليهم ويخالفونه على سلطانهم .

هكذا خرج بابر من كابل في مستهل عام ١٥٢٠م / ١٥٢٤م . فما إن أشرف على لاهور حتى التقى بجيش قوى لدهلي فهزمه ودخل المدينة الكبيرة من بعد ذلك فأباحها لجنده أربعة أيام وأشعل النيران في أبنيتها وأسواقها (٢) ، ثم اتجه من بعد ذلك إلى دپالپور فاستولى عليها بعد أن أنزل بحاميتها مذبحه بشعة .

ولحق بالپادشاه في دپالپور دولتخان أمير البنجاب ، الذي كان استنصره على السلطان اللودهي من قبل ، فها له ما استبان له من سعيه لتثبيت أقدامه فيما استولى عليه من أرضين حتى أقام فريقا من رجاله على شئونهما ، وكان الظن أنه ما يلبث ، حين يتم له دحر

١ - منتخب التواريخ لبدائوني ص ٣٣ .

٢ - Lane - Pool . India p 209

عدوه ، أن يؤوب قريبا إلى بلاده ويترك الهند لحلفائه من أهلها ،
فما غدا حين لمس إهمال بابر له أن انطلق وأولاده يتآمرون
بصاحب كابل وقواته حتى كادوا يوقعون بهم . وقد انتهى أمر
المتآمرين جميعا إلى الحبس بعد أن انكشف أمرهم .

واتخذ بابر من بعد ذلك طريقه إلى دهلي . حتى إذا ما انتهى
إليه خبر فرار دولتخان وابنه غازي خان من محبسهما ، بادر
من فوره بالارتداد إلى لاهور خوفا من قطع خط الرجمة عليه وعلى
قواته . ليرغمه ظهور الأوزبكت عند بلخ من بعد ذلك على العودة
إلى كابل ، وإن ترك بالبنجاب حامية قوية من رجاله كملت له إقرار
الأمور هناك ودفعت عن عاصمة الإقليم قوات دولتخان
وأنزلت بها هزيمة شديدة .

وغازط دولتخان ما رآه من حفاوة بابر بعلاء الدين علم خان
عم سلطان لودهي حتى ولّاه دياپور ، ثم أمده بالجند الكثير حين
قصد إليه في مقامه بكابل وأمر قواده بلاهور أن يسيروا معه إلى
دهلي فإذا دخلوها أجلسوه على عرشها . فما زال يحتمل على الأمير
اللودهي حتى انقاد له وقبل صحبتته في زحفه إلى عاصمة الهند ضاربا
عرض الحائط بتحذير قادة الپادشاه في لاهور له منه . وقد تصدى
لهم السلطان اللودهي عند ظاهر دهلي وأنزل بهم في الليل هزيمة

حاصمة تشنت على أثرها شملهم حتى التمس فريق كبير من القادة مخابء لهم في الجبال في حين آثر فريق آخر المبادرة بالانضمام إلى قوات ددلى .

واقعة بانى پنت : لم يكذب أبى يؤمن مؤخرته عند بلخ من خطر الأوزبكيك ، حتى طفق بعد العدة ليتم ما بدأه من فتوحه الهندية معتمدا على قواته وحدها هذه المرة ليس غير .

نفرج من كابل في صفر من عام ١٥٢٥ / ٨٩٣٢ م في غزوة الفتح آخر غزاه الهندية وأعظمها ، فقد تم له في القضاء على ملك اللودهيين والجلوس على عرشهم في آگرا ليمسقط نفوذه من بعد ذلك على الشمال الهندى ويمارس حكمه حتى توافيه المنية به .

واجتمع لبادشاه كابل اثنا عشر ألفا من الجند عبر بهم السند ، حتى إذا بلغ شاطيء جهلم بعث إلى قواده بلاهور ليوافوه بمقامه ، بعد ما بلغه من أمر دولتخان مع الأمير اللودهى علاء الدين علم خان وزحمتها معا إلى دهلى وهزيمتهما من بعد ذلك . ولم يشأ أبى أن يواصل زحفه إلى غايته قبل أن يؤمن خطوطه من أى غدر قد تتعرض له ، فبعث بفريق من قواته ، فما زالت بدولتخان وأولاده حتى أوقعتهم فى الأسر ، ليدخل بابر من بعد ذلك معقل هدوة فى حصن « ملوت » ويستولى على ما له به من

أموال وذخائر^(١) .

وما غدا أمير البنجاب السابق أن قضى في محبسه بقلعة بهيرة
بعد قليل .

وحين اطمأن الجيش الفاتح إلى تأمين خطوطه في البنجاب
واصل به قائده السير حتى بلغوا نهر چمنه فنزلوا في مواجهة
بلدة «سرساوه» وبعثوا بكتائبهم ليستطلعوا لهم مواقع العدو
ويقتطعوا أخباره .

هنالك استقر الرأي بين القادة الباريين على دخول المعركة
الفاصلة مع عدوهم ، فعباوا قواتهم وفق تشكيلات العثمانيين^(٢) ،
فربطت عربات الحرب بالسلاسل وأربطة الجلد جنباً إلى جنب
تتخللها التورات^(٣) ، واصطف حملة البنادق من ورائها ، ثم
زحف الجمع إلى پانی پت حيث معسكر السلطان إبراهيم اللودهي
فنزلوا بظاهرها في آخر جمادى الثانية من عام ٩٣٢ هـ ، فجعلوا
المدينة إلى يمينهم وألقوا بعربات الحرب في الجبهة ومن ورائها

١ — استولى بابر في هذا الحصن على مجموعة كتب قيمة كبيرة ، فاحتفظ لنفسه
بشم منها وأهدى الباقي ابنه هايون . أكبر شاه ورقة ٣٩ ب

٢ — بابر ٢٦٤ (١) .

٣ — التورة هي جنة دروع تصنع على هيئة نسج السلال من الخسك والغصون لتقي
رجال البنادق من السهام .

المدفع وحلة البنادق والفرسان ، في حين حُفرت الخنادق وأقيمت المتاريس إلى مبصرة الجهة وقد تدرّكت بها ثغرات . تسمح لمائة من الجنود ، أو ما يزيد عليهم ، بالبروز للقتال منها . وهكذا كان على بابر وقواته ، التي لم تكن تعدوا اثني عشر ألفاً ، أن تنازل ، في هذا الميدان الذي طالما تقرر فيه مصير الهند من قبل ، جيش السلطان اللودهي الذي كان يصل إلى المائة ألف من الجنود وأمعها ألف من الأفيال .

ولم يمض على هذه القوات بهذا المكان أيام ثمانية حتى التحمت معا في قتال عنيف أفاحت فيه فرق المناوشة عند جناحي الجيش المهاجم . آخر الأمر ، في أن تفصل مؤخرة عدوها عن ساقته ، ثم ما زالت تقذفها بوابل من سهامها حتى أخرجتها من الميدان ، في حين أطبق رجال الجهة الوسطى ومعهم حملة البنادق وأصحاب المدافع^(١) على قلب جيش دهلي ، فلم ينته اليوم حتى قضى الپادشاه على قوات عدوه قضاء هبما ، وسقط في الميدان خمسون ألف قتيل توسطهم السلطان إبراهيم اللودهي

١ - لم يكن عند بابر أول أمره إلا مدفع واحد وكان لا يتفق إلا مرتين قديماً في اليوم الواحد ، ويستغرق اثبته مدة طويلة . بابر نامه ٣٣٧ .

صريعا (١) .

هنالك بادر الپادشاه المنتصر بتسيير فريق من رجاله إلى دهلي ومعهم قاضيه الشيخ زين الخرافي فدعوا له على منـابرها في منتصف رجب من عام ١٥٢٦/٩٢٢ م ، ووصلوا فقراءها بقدر من المال هبة منه إليهم ، في حين وجه ابنه همايون مع نفر آخرين من قادته إلى آگرا مقر اللودهيين ومثابة أموالهم وكنوزهم .

على عرش آگرا : دخل بابر قلعة آگرا وجلس على عرش اللودهيين بها في التاسع والعشرين من شهر رجب عام ٩٢٢ هـ ، فكان ثالث غاز مسلم يتوغل في أرض الهند ويعد من بين أعظم سلاطينها .

وأول هؤلاء السلاطين الغزاة هو «محمود الغزنوي» ، وثانيهم هو «شهاب الدين الغوري» . ولم يكن الحكام المسلمون الذين خلفوا هذين العاهلين في حكم هذه البلاد إلا من أبنائهم وقوادهم ومواليهم في الغالب .

ويتميز بابر عن سلفيه بفرط الجرأة والإقدام . ذلك أن

محمود الغزنوي ، حين أقبل على الهد غازيا ، كان له ملك سمرقند وبلاد ما وراء النهر كلها وخراسان وفارس ، كما كان له من الجند ما يتجاوز عددهم المائة ألف بكثير ، ومن الهبة ما ضمن له تأمين مؤخرته وحدوده وأوقع الرعب في قلوب أعدائه قبل لغائه . كذلك كان للسلطان الغوري في زحفه على الهند مائة وعشرون ألفا من الجند . كما كان حكم خراسان كذلك في أسرته .

في حين لم يتيسر لبابر في عزوة الفتح الهندية إلا أناس عشر ألفا من الجنود ، وموارده ضئيلة . وأرضه ضيقة الرقعة ، والأوزبك ما يزالون ببلاد ما وراء النهر عند مؤخرته يتربصون به . فواجه جموع الهند الكثيفة ذات الثراء العريض في طموح وإصرار وعزم ليستجلب بانتصاره عليها . من بعد ذلك . صفحة من أروع صفحات المغامرات في التاريخ .

وإلى جانب سلطنة دهلي التي تربع بابر على عرشها في آكرا ، والتي كانت تمتد من البنجاب إلى بهار وتضم معها إقليم جونغپور ، كان بالهند أربع إمارات كبرى إسلامية وأخرتان هندوكيتان ، عدا إمارات عدة أخرى صغيرة متناثرة هنا وهناك ، وأول هذه الإمارات هي الكنجرات باب التجارة الهندية الألبان ،

يُكَّانَ يَحْكُمُهَا بَيْتٌ مَظْفَرٌ شَاهٍ . وَبِلَيْهَا إِمَارَةٌ بِهَمْنِي الدِّكْنِيَّةِ وَهِيَ الَّتِي
نَسَّأَهَا الْأَمِيرُ حَسَنُ كَنْجَوِي بِهَمْنِ شَاهٍ ، ثُمَّ إِمَارَةٌ مَالُوهُ أَوْ مَانْدُو
يُكَّانَ عِنْدَهَا أَمْرَاءٌ مِنْ بَيْتِ الْخُلَافَةِ بَيْنَ . وَالسُّغُلُ وَقَدْ حَكَمَهَا نَصَرَتْ
شَاهٍ وَأَوْلَادَهُ (١)

أَسَا إِمَارَاتِ الْهِنْدُوكِيَّةِ نَبْكَانُ أَكْبَرُهُمَا اثْنَتَانِ هُمَا قِيَايَا نَنْكِرُ
وَمَسْوَارُ . وَكَانَ يَحْكُمُ الْأَوَّلِي رَاجَا كَرَشَنَسَانْدُوا . فِي حِينِ
كَانَ يَقُومُ عَلَى الثَّانِيَةِ رَانَا سَنَّاكَ أَعْظَمُ الْأَمْرَاءِ الرَّاجِهُوتِيْنَ بِالْهِنْدِ
فِي وَقْتِهِ وَأَعْلَاهُمْ قَدْرًا وَأَوْسَعُهُمْ نَفْوَذًا .

أَخَذَ الْبَادِشَاهُ فِي آكْرَا يَغْدِقُ عَلَى رَجَالِهِ مِمَّا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِ مِنْ
أَمْوَالِ الْوُدْهِيْنَ الطَّائِلَةِ وَكَتُوزِ الْهِنْدِ ، فَلَمْ يَكْتَفِ بِأَنْ جَعَلَ لِكُلِّ
جَدِي سَارِ مَعَهُ قَدْرًا وَأَفْرًا مِنْ الْعَطَاءِ حَتَّى بَعَثَ بِنِيَّاتٍ مَالِيَّةٍ وَفِيْرَةٍ
إِلَى عَمَالِهِ وَذَوِي قَرْبَادٍ فِيمَا وَرَاءَ حُدُودِ الْهِنْدِ ، وَوَصَلَ الْعُلَمَاءُ
وَالْفُقَرَاءُ فِي كَابَةِ الْمَزَارَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِخِرَاسَانَ وَبِلَادِ مَا وَرَاءَ
النَّهْرِ وَالْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ (٢) .

١ - فصلنا الكلام عن هذه الإمارات في الجزء الأول من هذا الكتاب من

٢٠٩ وما بعدها .

٢ - تاريخ فيشته أول - ص ٢٠٦ .

وأبى فاتح الهندستان الجديد إلا أن يكون المدينة التي يزغ فيها نجمه وعلاها طابع سعده من اللطاء نصيباً ، فأرسل بقطعة من العملة الفضية (شاهر خيصة) إلى كل قاطن بكابل ، رجلاً أو امرأة ، طفلاً أو حدثاً ، عبداً أو حُرّاً .

ولم ينس . وهو في غمرة توزيع هذه الكنوز الطائلة ، أن يلتفت إلى أسرة غريمه السابق السلطان إبراهيم ، فأجرى على أمه وزوجاته وأولاده رزقا حسنا ، وأوصى رجاله بالسهر على راحتهم (١) .

وكان مما عرض على بابر من جواهر الهند بآكراه ماسة كوهينور ، الشهيرة التي تزن ثمانية مثاقيل والتي قدر الپادشاه قيمتها في سيرته بما يوازي نصف ثقات الدنيا في عصره . وكان قد أهدى هذه الماسة لهمايون بن بابر أمرة بكر ما جيت راجا . كواليار لحسن رعايته لها بآكراه بعد أن هلك وإيها مع السلطان إبراهيم في حرب باني پست .

ورد بابر هذه الماسة على ابنه حين قدمها له فما زالت أيدي السلاطين المغول بالهند تتداولها حتى سقطت بأيدي البريطانيين

١ ... بريم ذلك فقد احتال أم السلطان اللودهي على دس لندس بابر في طعامه .

بابر نامه ورقه ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

دين دخلوا الهند فزينا بها تاج ماكتهم فكتوريا^(١) .
على أن استيلاء بابر على هذه الكونز الكثرية وجلوسه على
عرش آكرا لم يكن ايعنى خضوع سلطنة دهلي لحكمه برغم قضائه
على السلطان اللودهى وجيوشه . ذلك أن الأمراء الأفغان عن
حكام الولايات اللودهى أدركوا تماما أن البادشاه إنما قد قدم
إليهم ليغتصب بلادهم لنفسه . وأنه ان يسكت حتى يقضى على
جميع نفوذهم وسلطانهم . فإذا كانوا بالأمس قد دفعهم اعتدادهم
إلى الوقوف فى وجه السلطان اللودهى ، وهو كبيرهم وابن
جلدتهم على كل حال ، فكيف يرضون اليوم بالخضوع لقادم
غريب عليهم . فمنهم من شاع أهير بهار جلال الدين بن درياخان
فالتفوا حوله ونادوا به سلطانا عليهم . ومنهم من سار إلى
الراجپوتانا فانضم إلى جبهة الأمراء الهنداكة بها . وسهل لهؤلاء
الناترين تحصين مراكزهم ما تهيأ لهم من وقت كاف .
كان فاتح الهند مشتغلا فيه بتقسيم ما وقع بأيديه من الأموال
والأسلاب . حتى إذا ما فرغ من أمر غنائمه ، وجد ما حول
آكرا من دساكر وقرى قد هجرها أغلب أهلها وتركوها خرابا .

يباها حتى كاد لا يجد الطعام الكافي لجوده والملف لدواه .
وأشاعت قسوة الصيف الهندي روح القلق والتذمر بين
صفوف القوات الغازية فقد حسبوا . بعد أن أصابوا من
الغنائم والأموال فوق ما كانوا يأملون . أن أميرهم ما يلبث أن
يعود بهم إلى ديارهم بعد أن تم له هزيمة عدوه والاستيلاء على ما وجدته
عنده من أموال طائلة وكوز .

ولم يكن بابر ليخضع لرأى رجاله فيرتد عن أرض الهند ، كما
ارتد الإسكندر وحمود الغزنوي وتبمور عنها من قبل ، والفرصة
بواجبة له لإقامة دولة كبيرة قريبة له هناك . لما زال بقواده
وأمره جيشه يذكرهم بمبالغ ما صادفهم من متاعب وصعاب
تغلبوا عليها آخر الأمر فجنوا ثمار جهودهم بالفوز والغلبة . كما
بين لهم أن الدول لا تقوم إلا على ركوب الأخطار ومواجهتها ،
وأن الملك لا يكون إلا بالرعيّة المخلصة والأقطار المفتوحة ،
وهام قد تيسر لهم ، بعد كفاح طويل وجهاد شاق ، الاستحواذ
على بلاد عريضة ، فليس للمتاعب والصعاب مهما كان من شأنها
أن تغلبهم اليوم على أمرهم فينكسروا عن الهدف الذي غدوا على
تأب قوسين أو أدنى من تحقيقه وبلوغه ويرتدوا على أعقابهم

وكانهم جند منزه من طعنته المعركة وأذله الإنكسار^(١).

هكذا تم لبار بشجاعته وقوة عزمته وإصراره القضاء على روح التمرد والتذمر بين جنوده ليوجه فريقا كبيرا منهم، يأمره ابنه همايون، إلى الولايات الهندية الشرقية ويتجه هو بنفسه من بعد ذلك إلى بيانه وگواليار التي تجاور عاصمته فيضمها إلى ملكه.

ذلك أنه برغم قدوم كثير من شيوخ القبائل الأفغانية في الدواب إلى السلطان الجديد ومعهم قواتهم وانضمامهم إلى صفوفه، فقد ذهب أميران من كبار الأفغان، هما نصير لوحاني ومعروف فرمولى، يجمعان الجند حتى صار لهما أربعون ألفا منهم فاستولوا عليهم على قنوج ثم اتخذوا طريقهما إلى آگرا. وطلق همايون بطارد قوات الثوار فانتزع منهم جونپور وغازيپور وكالي وخير آباد. حتى إذا ما شرع يتعقبهم بإقليم خريد، عند حدود البنغال، بعث إليه أبوه يأمره بالعودة إليه على عجل ليعاونه بقواته على دفع خطر الراجپوتين الذي كان قد استشرى حتى امتد إلى كافة المناطق القريبة من دهلي.

معركة خانوه : انتهر الأمراء الراجپوتيون فرصة الضعف الذي أصاب الدولة أيام السلطان إبراهيم اللودهي فمقدوا بينهم حلفاء لمناهضة الحكم الإسلامي في الهند نزعه رانا سنگرام سنگت المعروف رانا سنگا صاحب موار وراجا أدايپور . وكان نجم هذا الأمير الهدوي قد بدأ يعلو أيام السلطان سكندر لودهي حين فر من أمامه صاحبا مالود والكججرات وبلغت قواته مشارف دهلي . وما يزال القصاص بالهند بروى عن طولته حتى اليوم .

وعظم شأن هذا الأمير أواخر أيام الدولة اللودهي حتى اتسعت روعة أراضيه ودخل في نطاقها بهيلمة وسرنكپور وچندري ورتنپور ، وحتى صار له من الجند مائة وعشرون ألفا ومعهم خمسمائة من الأفيال (١) .

وانتهز رانا سنگا فرصة اشتغال صاحب آگرا الجديد بالقضاء على الفتن في المناطق الشرقية وفيما حول عاصمته ، فاستولى على حصن گهندار وراح يهاجم بيانه وددهلشپور وكالبي من جديد ، ثم شرع يؤلب الأمراء الأفغان على فاتح الهندستان ويدعوهم للانضمام

١ — Prasad Muslimi Rule, pp 258, 71, 74 . هذا وقد سبق لهذا
الراجا الاتصال بإبر بدوره في كابل قبل زحفه على الهند وتعهد له بمسانته . p 272

لى جهته ، حتى استجاب له فريق منهم ، وفهم حسن خان صاحب
بريات ومحمد خان أخو إبراهيم اللودهي الذى نودى به سلطانا على
نومه . فأخذوا جميعاً يعدون العدة للزحف على آگر (١) .

ولم يكن باير ليدكت عن هذا الخطر الداهم الذى قد ينتهى
بانتضاء على كل ما جنى من فتوح ، فبرز من عاصمته فى جمادى
الأول من عام ١٢٣٣ هـ حتى بلغ سيكرى فأقام بها معسكره ،
وأخذ يحصن مواقفه . فمبست عربات الحرب والمدفعية وحفرت
الخنادق وأقيمت المتاريس .

وإن هذا المكان أذاع الپادشاه فى قومه وكأنه أنحاء بلاده
مشهوراً أعلن فيه عزمه على الجهاد فى سبيل الله بمحاربة الهنادكة ،
ورده ضريبة الخنعة عن كامل رعائياه ، وإفلاعه عن مقسارية
الشراب توبة إلى الله وتقرباً إليه منه ، فأعرق ما بالبدان من
النيذ على الأرض وحطمت أدوات الشراب من ذهب وفضة
إلى قطع صغيرة كانت من نصيب الفقراء والمساكين صدقه (٢):
« محمد توابا يح، التوابين والمتطهرين ونشكر ديتانا يهدى

١ — منتخب التواريخ أول ص ٣٣٨

٢ — باير نامه ٣١٢—٣١٤ وقد أذبح هذا المنشور فى سيرة باير الجنائيه
بإذنه النارية لأنها كانت الأمانة الغالبة فى هذه البلاد .

المذنبين والمستغفرين... وبعد فإن طبيعة الإنسان على مقتضى
القطرة تميل إلى لذات النفس البشرية، فهي ليست بحاجة عن
ارتكاب الآثام، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا
ما رحم ربِّي إن ربِّي غفور رحيم.

« وهذا هو التوبة عن الشراب قد آن أربابها في هذه الأوقات
المباركة التي أعيدت فيها للجهاد في سبيل الله، وقد اجتمع
عساكر الإسلام لحرب الكفار... أم يأن للذين آمنوا أن
تخضع قلوبهم لذكر الله، (٢) فاشتغلنا أسبب المعصية بقرع أبواب
الإثابة - زمن قرع بابا ولجَّ ولجَّ - وافتتحنا هذا الجاد بالجهاد
الأكبر وهو مجاهدة النفس، ربنا طلبنا أنفسنا، (٣) ، وإني
تبت إليك وإني من المسلمين، (٤) فأعلننا جميعاً توبتنا عن
الشراب وأمرنا بأدواته من كؤوس البضة والذهب... زينة
مجلس التخلية... وألقيت إلى الفقراء والمساكين والمعسرين
صدقة... »

١ - سورة - ٥٣/١٢

٢ - سورة - ١٦/٥٧

٣ - سورة ٢٣/٧

٤ - سورة ١٥/٤٦

، هذا ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد أقبل كثير من
تقربين لدينا فالوا في المجلس شرف الإنابة والتوبة عن تعاطى
الشراب مطيعين للأوامر معرضين عن النواهي . ولما كان الدال
على الخير كما عمله ، فترجو الله أن يكون لنا من ثواب هذه
الأعمال نصيب ، وأن تكون لنا ذللاً طيباً يتزايد بسعادة الفتح
والنصر يوماً فيوماً .

وغايتنا من هذا المرسوم أن يقابل بالطاعة والخضوع ،
فيئذ ما ينص عليه من تحريم تعاطى الشراب وصناعاته في كافة
أجزاء بلادنا المحروسة ، حرسها الله من الآفات والمخوفات
، فاجتنبوه لعامةكم تفضلحون ، (١) .

وشكراً لله على هذه الفتوح وتصديقاً بالقبول ، قد جاد الپادشاه،
من فيض كرمه ، برفع التذمة [الماكوس] عن كاهل المسلمين جريباً
على ضوابط شريعة سيد المرسلين . وصدرت الأوامر بمنع
جمعها أو تحصيلها في أى بلد أو ثغر أو طريق أو درب . فمن
بدله من بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يُسبدّ لونه ، (٢) .

١ --- سورة ٥ / ٩٠

٢ --- سورة ٢ / ١٨١ . هذا وتعد منشورات بابر عموماً من الشواهد القوية
على تمكنه وكثير من خاصته من الآداب العربية والفارسية والتركية .

وعلى الجند الذين يعيشون في ظل العطف الشاهاني : من ترك
وتاجيك. (١) وعرب وعجم وهنود : وعلى المدنيين والعسكريين
وأبناء كل ملة ودين، أن يقوموا جنداً لله الحى القيوم على تنفيذ
ما جاء بهذا المرسوم دون انحراف عن مقاصده ، مبادرين إلى
ذلك حال وصوله إليهم مهوراً بالخاتم الرفيع الأشرى الأعلى .
كُتِبَ بالأمر العالى... فى ٢٤ جمادى الأولى من عام ٨٩٣٣ هـ .

ورأى بابر الخوف يشيع فى رجاله من قتال الهنادكة ولم يكن
لهم بلقائهم عهد من قبل ، وقد تصدى لقيادتهم راناسنكا أعظم
أبطالهم ، وتشهد على جرأته وبطولته عين فقائها السهام وذراع
بترتها السيوف ومانون طعنة تناثرت آثارها فى جسده . وهاهو
فريق من أمراء الأفغان المسلمين أنفسهم يؤثر الإنضمام إليه على
جانب سلطانهم ، فى حين طفق فريق آخر منهم بالدواب ، وما حولها
يرتد إلى حصونه القديمة فينتزعها عنوة من أيدي حماة الجدد .
هنالك أخذ الپادشاه يستنهض همم رجاله ويقوى من روحهم
المعنوية ، فخطبهم قائلاً بأن المرء مهما طال به الأجل فصيره إلى
الفناء ، فما أشرف له أن يستشهد فى ميدان الجهاد فيخلد ذكره
عن أن يموت خاملاً حتف أنفه .

١ - وهم الأعاجم الذين يجرى فى عروقهم دماء عربية .

« ولقد أراد الله القدير أن يمتحننا بهذه المحنة ، فإن نسقط في ميدان الجهاد فقد كُتبت لنا الشهادة وإن نتصر فقد أعزنا بكلمته تعالى » .

وجيء بالكتاب فأقسم كل فرد منهم على ألا يلوى وجهه عن القتال أو يتخلى عن أصحابه طالما كان فيه نفس يتردد بين حنيفة (١).

لم يفت في تضد الجند البابري مارأوه من انسحاب كثير من أمراء البلاد من صفوفهم ، وما بلغهم من مهاجمة الهنادكة لگواليار ، ونشوب القتن في «الدوآب» ، فزحفوا إلى أرض خانوه عند مشارف الراجپوتانا يتقدمهم أصحاب آلاتهم الحربية من رجال المدفعية وحملة البنادق حتى يقيموا من نيرانهم ، إذ لزم الأمر ، ستاراً يهيء لهم الفرصة لتشكيل صفوفهم للقتال في اطمئنان .

والنقى الجمعان قبيل ضحى يوم السبت الموافق ١٣ جمادى الآخر ٩٣٣ هـ / ١٦ مارس ١٥٢٧ م ليخوضوا غمار حرب تعدت من أهم الوقائع الحاسمة في تاريخ الهند كلها .

وتحوى سيرة بابر وصفاً دقيقاً قيماً لهذا الواقعة ونقل عنه

ما يلي (١)

« الحمد لله الذى صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم
الأحزاب وحده... وصلى الله على خير خلقه محمد سيد الغزاة
والمجاهدين... وبعد؛ فما من نعمة تستوجب الشكر أعظم من
النصر على الكفار، ففى فى نظر أهل البصيرة أعلى درجات
السعادة . والمنة لله وحده الذى حقق لنا من مكنونات نعمه ،
النصر والغلبة ، فكتبنا عنده فى سجل المجاهدين لإعلاء كلمته ،...
« وتفصيل الأمر فى مصدر هذه السعادة وظهور هذه الدولة ،
أنه لما أضاءت ومضات سيوف فرسان الإسلام من جنودنا
بلهعات أنوار الفتح والظفر ، وأتت أيدى التوفيق الربانى على
رفع رايات النصر فى بمالك دهلى وآگرا . وجونپور وخرید وبهار
وغسیرها من البلدان بما سبق تفصيله ، سارع بالانضواء تحت
لوائنا والخضوع لسلطاننا كثير من طوائف القوم من أصحاب
الكفر وأرباب الإسلام على السواء .
أما رانا سنكا فقد تظاهر بظاعتنا بادیء الأمر ثم ما لبث أن

١ — باير نامه ٣١٧ ب — ٣٢٤ ب . وهو المنشور الذى عهد باير بصياغته إلى
فاضیه زين الدين خوافى ، غوى بالفارسية أدق تفاصيل الشمال وخططه وتأنيبه ،
ليذاع فى كافة أنحاء المملكة .

أظهر ما بطن : فأبى واستكبر ورفع رأس الفتنة وقاد جيوشها ، واجتمع حوله طوائف فيها من تمنطق بالزناز وفيها من ارتدى ثياب الكفر والافتداد (١)

« هذا وكان سلطان ذلك الكافر اللعين قد اتسع بالهند قبل أن أن تبزغ شمس دولة الپادشاه بها ، ولكن لم يحدث قبل هذه الحرب أن شاركة أحد من الراجاوات والحكام حروبه أو خرج معه فيها . أما السلاطين الأقوياء من أمثال أصحاب دهلي والگجرات ومالوه ومن إليهم ، ممن كانوا في حالة تسمح لهم بمعارضته والوقوف في وجهه ، فقد عجزوا عن أن يتكلموا ضده دون اتفاق الكفار وإياهم ، فغدوا لذلك يدهنونه بدورهم ويدارونه اتقاء لخطرة ودفعا لشره .

« وهكذا باتت بنود الكفر ترفرف على قرابة مائتي مدينة من مدن الإسلام التي خرب ما بها من مساجد وسبي ما بها من نساء المسلمين وقتل أطفالهم فيها .

« أما مدى قوته ومباغعدته ، فعلى حساب أهل الهند وجريا على قواعدهم ، فإن كل إقليم خراجه لكا (أى مائه الف) يستطيع

١ — أصحاب الزناز هم الهنادكة ، أما المرتدون فهم الأمراء المسلمون الذين ظهروا في صفوف الهنادكة .

أن يقدم مائة فارس ، وما يكون خراجه كروراً (عشرة ملايين)
يقدم عشرة آلاف فارس . ولما كان خراج ولاياته جميعا يصل
إلى عشر كرور فقد كان في وسعه أن يجتمع له مائة الف من الفرسان ،
هذا وقد أقبل عدد من أمراء الكفار يقدمون العون له
لأول مرة ، بدافع من عداوتهم للمسلمين . وكان هؤلاء إقطاعات
واسعة ؛ فهذا صلاح الدين أمير بهيلسه ورايزن وسارنكجور ، كان
له ثلاثون ألفا من الفرسان ، وهذا راول أودى سنك ، صاحب
دنگر پور ، كان له اثنا عشر ألفا ، ثم حسن خان ميواتى وكان له
اثنا عشر ألفا ، وبارمل عدزى وكان له أربعة آلاف ، ونزبت
هاره ، وكان له سبعة آلاف ، ومندنى راي ، وكان له اثنا عشر ألفا ،
وستروى كچى ، وله ستة آلاف ، وهرم دوى ، وله أربعة آلاف ،
وبرسنك دوى وله مثلهم ، وأخيرا محمود خان بن السلطان
سكندر خان ، فبرغم أنه لم يكن له من الملك نصيب فقد تم له
جمع عشرة آلاف فارس أمل أن يصل بهم إلى العرش (١) .

١ - لم تزد عدد قوات هؤلاء الحلفاء في هذه الوثيقة على مائة وعشرين ألف
فارس Prasad 274 في حين لم تكن قوات بابر تزيد على ما اشترك به في واقعة
باني بت . هذا وقد كشفنا في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١١٤ عن السر
الغالب في انهزام جموع الهنادكة على كثرتهم أمام الغزاة المسلمين على قتمم ، وإن زاد
على ذلك استخدام بابر المدفعية والبنادق التي لم تكن الهند تعرفها من قبل .

« هكذا اختلفت جموع أولئك الكفار معاً ، كظلمات بعضها فوق بعض ، في حرب أهل الإسلام والعمل على هدم شريعة سيد الأنام . لكن المجاهدين انتقضوا عليهم طلباً للشهادة في جهاد الكفار والمنافقين .

« وفي يوم السبت المبارك الثالث عشر من جمادى الثانية من عام ٩٣٣ هـ أقام جيش الإسلام المظفر مضارب خيامه على تل بجزار خانوه إحدى منساقق بيانه . حتى إذا ما قدم الكفار بأفيالهم - كأصحاب الفيصل - برز لهم عساكر المسلمين - رياحين الجنة - يقاتلون في سبيله صفا صفا كالبنيان المرصوص .

« وأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، (١)
« هنالك أجمع أهل الخبرة على تغطية ووضع حملة البنادق وستر مكانهم ، وكانوا في الجبهة ، فنهجوا في ذلك نهج مجاهدى الروم (٢) ، فضفت العربات أمامهم وقد شدت بعضها إلى البعض الآخر بالسلاسل . »

« وكانت جيوش الإسلام تنتظم في إحكام تام ، والحرس الشاهاني قد توسط الجناحين منها ، وقامت فرق المناوشة

١ - سورة ٥/٢

٢ - أى العثمانيون

بأقصى الجناحين . .

« وحين تقابل الجيشان، وكأنهما الليل والنهار، بدأ الاشتباك عند الجناحين، وامتد أوار الحرب حتى كأنما الأرض قد زلزلت زلزالها، وبلغ ضجيج قمعقة السلاح عنان السماء . حتى إذا ما اقتحم جناح الأشقياء الأيسر ميمنة المسلمين . سارعت نجاتنا إليهم، فلم تكف بردهم حتى ظلت تطاردهم إلى قلب جيشهم .
« وألهم بالتوفيق، نادرة عصره «مصطفى الرومي» وكان في القلب في إمرة ابننا محمد همايون، فتقدم، بمدفعه، وبنادقه وقذائفه، فخطم صفوف الكفار .

« حتى إذا ما زحفت أفواجهم من جديد تترى لنجدة رجالهم فكروا على جناح المسلمين الأيسر في عنف وشدّة . طفق الغزاة ذوا نجا . يستقبلونهم في كل مرة بالسهام فيبعثون بهم إلى دار البوار، أو يرغمونهم على الفرار، وهم يرددون قوله تعالى «قل هل ترّبصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين» (١)

« وحين حمى وطيس الحسرب صدرت الأوامر إلى رجال الحرس الشاهاني بالبروز للقتال، وكانوا في مواقعهم من وراء المدفعية كالأسود في أقفاصها، فاندفعوا من يمين القلب ويساره

بطالعة صبح صادق أطلّ من وراء الأفق ، فضرجوا الكفار في
ماء بلون الشفق وأطاحوا برءوس الكثيرين منهم .

« هذا كما طفق ، نادرة العصر ، الأستاذ عليقلى يقذفهم^(١)
وأتباعه من وسط الجهة . بقذائف تحمّل الجبال الراسيات
تألمهن المنفوش . ولو كوفىء الواحد منا بثقلها أعمالاً طيبة لثقلت
نوازينه ، فهو في عيشة راضية ، فخصدها الكثير من الكفار
حصداً ...

« كذلك سقى حملة البنادق - من وراء المدفعية - كثيراً
من الأعداء كأس الخمر في الميدان ، وظهر المشاة من
ضروب المخاطرة ما يتخذ أسماءهم مع أسد الغاب الصيد والأبطال
الصناديد .

« وفيما الحال يجرى على هذا المنوال ، صدرت الأوامر بتقدم
المدفعية من مواقعها إلى الأمام ، وبدأت الحضرة الخاقانية
بدورها في تقدّمها ، والفتح في ركبها والظفر واليمين ، فزحفت على
فرق الكفار .

« واختلط الضارب بالمضروب ، والغالب بالمغلوب ، وانعدت

١ - - كان البابر إلى جانب مدفعه قضع صغيرة أخرى يسميها فرنكية عدا بنادة
لتي تعرف باسمها التركي « تنك » . هذا وكانت عرباته الخريية تصل إلى ثمانمائة .

تحب الغبار فوق الرؤوس وقد حُجبت الشمس عنهم حتى توارت
المرئيات . فلم يكن يضيء هذا الليل الآلمعات السيوف وومضاتها،
وما ينبعث من الشرر حين تضرب الخيل الأرض بجوافرها في
الكركر والقر .

« وهتف الهاتف بالغزاة المجاهدين أن ، لا تنهوا ولا تحزبوا
وأنتم الأعلون، (١) وأنه « نصر من الله وفتح قريب » (٢).
فأقبلوا فرحين مستبشرين يقاتلون في طلب الشهادة . وبلغت
المعركة أوجها بين الصلاة الأولى والثانية . ليفلح المسلمون
من بعد ذلك في تطويق جيوش الكفار وحصرهم بمكان
واحد . »

« حتى إذا ما رأى هؤلاء الأشرار الملحدون أنه قد
أحيط بهم ، انطلقوا مستبشرين يهاجمون من جديد على طول
الجهة حتى كاد النصر يواتيهم عند الخناج الأيسر ، لولا أن
أطبق المجاهدون عليهم فاقبلوهم من أمالكهم وألزمهم طريق
الفرار قسرا . »

« هنالك أقبلت نسائم النصر على بستان حظنا ومعها مدد من

١ — سورة ٣ / ١٣٩

٢ — سورة ٦١ / ١٣

قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » (١). وتجلى لأعيننا الإقبال والسعادة في كلامه عز وجل « وينصرك الله نصراً عزيزاً » (٢)

« وهكذا انفرط عقد الهنادكة فتناثروا كالعين المنفوش ، فمنهم من سقط في حومة الوغى ، ومنهم من هلك في تيهه الخراب فصار طعاماً لجوارح الطير ، حتى تكدست أجسادهم بعضها فوق بعض كالهضبة الرابية وتكوّمت رؤوسهم كالمناثر العالية . (٣) »

« وكان من بين القتلى حسن خان ميواتي وكثيرون من أمراء الكفار وأصحاب الشوكة والأعيان الذين بعث بهم السهام ونيران البنادق إلى سقر .

« أما دار الحرب فقد غصت بالجرحى منهم ، فكانت كجهم حين يتلقى خزنتها المنافقين فتهتلئ بهم ، كما لم يكن هناك موطىء تقدم إلا وفيه صرعى من عليائهم . « وما النصر إلا من عند الله

١ — سورة ٤٨ / ١

٢ — سورة ٤٨ / ٣

٣ — من تقاليد التيموريين أنهم كانوا ، على أثر كل نصر ، يقيمون من رؤوس القتلى من أعدائهم على هيئة أهرامات ومناثر .

العزیز الحکیم ، (١)

هكذا استمرت معركة خانوه من الضحى حتى الغروب لتنتهى
بهزيمة عصابة الراجپوتيين هزيمة حاسمة ، وهروب رانا سنگاز عيهم
إلى أحد حصونه بالجبال منقلا بجراحه ، فلم يمتد به الأجل
إلا عاما وبعض عام (٢) .

وبهذا أتيج للغازی (٣) التيمورى أن ينزل بأعدائه بالهند ضربتين
حاسمتين : فى مدى عام واحد ، ضعفتا من كيانهن وقضتا على قواتهن .
واثن مكن للبادشاه انتصاره عند پانى پت من الجلوس على عرش
آگرا ، فقد تم له فى وقعة خانوه القضاء التام على الخطر الراجپوتى
الذى ظل يهدد سلاطان المسلمين بالهند قرونا كثيرة فلم تقم لهم
قائمة من بعد ذلك أبدا (٤)

وبهذا النصر ، الذى لم يؤته أحد من سلاطين الهند المسلمين منذ أيام

١ - - سورة ١٢٦/٣ . حافظنا فى نقل هذا الوصف إلى العربية على أسلوب
الأصل وصورته الأدبية ما سمعنا ذلك ، ولم نرفع منه إلا أسماء القوادى الكثيرة .

٢ - - Havell, p 425

٣ - - آخذ بإبر نفسه هذا القاب على أثر انتصاره فى هذه الوقعة . تاريخ

رشيدى ٤٠٩

٤ - - Lane - Poole 210

محمود الغزنوى ومحمد الغورى ، طارصيت بابر ، وازدادت هيئته ببر المسلمين فى الهند ، وتوطد مركزه على عرش آگرا ، وأرسى الأساس الذى قامت عليه الدولة المغولية ، فلم يعد يحارب دفاعاً عن عرشه وثبته له ، فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه وبسط نفوذ وسلطانه فى الغالب .

الغلاقل الشرقية :

كان على بابر لى يغدو سيد الهندستان كله ، بعد أن تم له القضاء على عصبة الراجپوتيين وأمنت أراضيه حول دهم وآگرا ، أن يستولى على بعض الحصون الكبرى التى مايزا يعتصم بها أمراء من الهنادكة . ويقضى على نفوذ الأمراء الأفغان فى المناطق الشرقية ، ويخمد ما يثيرونه من فتن هناك فقد كما يعلم أنه لا سبيل إلى مهادتهم فى الغالب ، وهم الذين أدى كبارياتهم إلى تقويض عرش السلطان اللودهى ، زعيمهم وإجلدتهم ، من قبل .

وسارت جنده آگرا صوب الشرق بطريق تنوح ، فى حين قام الپادشاه ، على رأس فريق آخر من قواته ، حصن چندرى أقصى الجنوب من گواليار ، وكان عليه أمير هندوكى قوى ، ميمدنى راو .

وبرغم امتناع أسوار الحصن على مدفعية المسلمين ، إذ كانت من الحجر الصلب ، فضلا عن موقعها بأعلى التلال ، فإن الجنود استطاعوا تسلق هذه الأسوار والتسرب إلى داخلها ليشتركوا مع الحامية في قتال وحشى عنيف رُد فيه فريق منهم عن أماكنه .

ذلك أن رجال الحصن حين أيقنوا بضياح قلعهم من أيديهم ، قتلوا نساءهم بأيديهم ، ثم انطلقوا يعرضون أنفسهم تلى سيوف الغزاة مقاتلين فى ضراوة وشدة بأس ؛ فى حين كان أميرهم ونفر من خلصائه يتبادلون فيما بينهم الطعنات حتى قُتلى أولئك وهؤلاء جميعا عن آخرهم (١) .

وكان فى خطة بابر ، بعد الفراغ من الاستيلاء على هذا الحصن ؛ أن يَخضع بعض حصون أخرى بالمهزوم ثم يسير إلى الراجپوتانا من جديد ليقتمم بتور عاصمة مواري ومقر خصمه المهزوم رانا سنگا ، لولا ما بلغه من ارتداد قواته فى الشرق إلى قنوج بعد أن أرغمت على إخلاء لكناو ، فسارع إليها بنفسه .

وبلغ بابر قنوج ليدبر رحاله چمنه تحت ستار من نيران

التي فعية والبنادق فيلتمحوها في قتال عنيف مع ثوار بهار الذين قد عاد
بني تزعمهم السلطان محمود بن سكندر لودهي بعد هزيمة في خانوه .
وتولا تريت الپادشاه في مطاردتهم لآمكن له من فوره القضاء
بنيهم قضاء تاما .

وعوق حلول فصل الأمطار القوات الغازية من الاستيلاء
على إقليم بهار كله بعد ما بلغت أوده ، مما أناح الفرصة للثوار
ليعودوا إلى إشعال نيران فتنة عارمة في العام التالي استنفد
القضاء عليها كثيرا من جهود بابر وكادت تقضى إلى اشتباكه في
الحرب مع البنغال .

ذلك أن محمود لودهي كان قد اجتمع له مائة ألف من الجند
استخلص بهم إقليم بهار كله وبعض الأراضى المحيطة به : حتى
إذا ما سير إليه الپادشاه ابنه وعسكري ، أول الأمر ثم لحق به من
بعد ذلك بنفسه فدخل د الله آباد ، وچنار وبنارس فأقبل عليه
الأمراء الأفغان مستسلمين بعد أن انفضوا من حول الثائر
اللودهي ، رابه التجاء بقية الثوار إلى إقليم خريد برغم تأكيد
نصرت خان ، صاحب البنغال ، له بنزوعه إلى المسالمة وحرصه
على اليرلاء (١) .

هنالك رأى بابر أن يحزم أمره مع قوات البنغال التي تشد من أزر الثوار ، إذ كانت في مواععها ، عند التقاء الكنجج برافده كـكـكـر ، تعوق من تحركات جند آكرا في مطارقتها للثوار .

وتيسر ولعسكريه أن يعبر ببعض قواته الملتقى الأعلى لكـكـر والكنجج ، فطفق يناوش البنغاليين ويشاغلمهم ، حتى تم عبور المدفعية ورجال البنادق مع بقية الجيش عند الملتقى الأدنى للنهرين ، فوق الأعداء بذلك بين فسكى الكماشة ، فلم يغنهم فنيلا تفوقهم العددي وإحكامهم في التصويب ومهارتهم في استخدام الأسلحة النارية إذ دارت الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار . وهكذا انتهت معركة كـكـر إلى القضاء التام على الثوار الأفغان وإعلان صاحب البنغال ولائه للإدشاه .

وبهذه الواقعة التي تعد ثالث معركة حاسمة خاضها بابر في الهند ، بعد معركة باني پت وخناره ، غدا ذلك الأمير التيمورى صاحب السلطان المطاق فى الهندستان ، وغدت دولته تمتد فى رقعتها المترامية الأطراف من جيحون إلى البنغال ومن الهملايا إلى چندرى وگواليار (١) .

وآب بابر إلى عاصمته في شوال من عام ٩٣٥ هـ فلبث بها
قده ، ليخرج منها من بعد ذلك إلى البنجاب وفي نيته أن يواصل
سجده إلى بدخشان ، فيدفع عنها الأوزبكيك الذين استفحل
خطرتهم من جديد برغم ما انزله بهم طهما سب ، شاه الفرس ،
من ضربات قاصمة .

ولعل خوفه من قيام القلاقل بالهند في غيبته ، وبداية
انهيار صحته نتيجة للجهود المضنية المتواصلة التي بذلها في
حروبه ، قد منعه حتى من الشخوص إلى كابل ، وكان غير بعيد
منها ، وهى التي طالما ردد اعتزازه بها وشوقه إليها .

وقدم على بابر ، بلاهور ، ولده الأكبر همايون فصحبه إلى
آگرا ، وكان القدر قد استجاب للباد شاه حين اشتد الداء بابنه
هذا ، فتمنى على الله أن يجمعه فداءه ، فلم يبرأ همايون من
علته حتى رقد بابر مكانه فلم يغادر فراشه من بعد ذلك إلا
إلى لحدته (١) .

١ — كان مما عجل في نهايته في الغالب إيمانه كذلك على تعاطي المجون
(الأفيون) وإن أقلع عن تناول الشراب تماما عند حربه مع راناسنكا في معركة
سنوم . تاريخ رشيدى ٤٦٩

حين شعر بابر بدنو أجله دعا إليه رجال دولته ، فأخذ منهم البيعة لولده همايون بعد أن أوصاه بهم وبأهل بيته وإخوته ونصحه باصطناع الحلم والتذرع بالحزم في حكمه .

وحاول بعض رجال الدولة ، والبادشاه يعاني سكرات الموت ، أن يعدلوا عن وصية أميرهم فيعهدوا بالملك إلى أحد أنسباء بابر ، وكان يدعى سيد مهدي خواجه ، لتكشف لهم المصادفات عندئذ عما كان ينتويه لهم مرشحهم هذا من أذى وشرّ فيعودوا إلى سيرتهم الأولى .

ومضى بابر في السادس من جمادى الأولى من عام ٩٣٧ هـ ١٥٣٠ م وهو في الخمسين من عمره والعام الثامن والثلاثين من حكمه ، فنوى في بستان نور أفشان على چمنه ثم نقل جثمانه من بعد ذلك إلى كابل فدفن بربوة تطل على هذه المدينة التي كانت أحب بقاع الدنيا إلى قلبه ، والتي خرج منها فتم له إقامة ملك عريض شمل الشمال الهندي ، وماغدا أولاده يُزيدون فيه حتى خضعت لهم شبه القارة الهندية كلها .

شخصية بابر : لا يعدّ ظهير الدين محمد بابر أعظم حكام المسلمين في عصره فحسب وفيهم اسماعيل الصفوي شاه العرس وسليم الأول

سلطان العثمانيين ، بل هو كذلك من أقدر الرجال الذين عرقهم العروش في مختلف الصور ، وأحد أعاجيب الزمان همة وطموحا وصبرا على المكاره .

وَلِيَّ عرش فرغانة ، تلك الأرض الصغيرة عند سيحون ، وهو في الثانية عشرة من عمره . وليس له من بين جيرانه أو ذوى قرباه ناصح أو صديق ، إذ كانوا جميعا بين طامع في ما يملكه أو على عداه سابق مع أبيه ، فلولا بقية نفر من خلصاء أبيه القدماء لَقُضِيَ عليه من بادىء الأمر وضاع ما ورثه من الملك .

تعرض بابر منذ شبابه لحن ومتاعب جارفة عنيفة ، فلم يعرف اليأس إلى قلبه سيلا أبدا ، فكم من مرّة انفض عنه أنصاره وأغلب رجاله حتى وقف وحيدا شريدا لا أرض له ولا مال ولا رجال ، فعاود جهاده من جديد ومضى في مغامراته ، حتى رأيناه يذكر في سيرته أنه منذ ولي العرش عام ٨٩٩ هـ حتى عام ٩٢٣ هـ ، أى في مدى خمسة وثلاثين عاما ، لم يقض شهر رمضان عامين متتاليين بمكان واحد . (١)

ولى بابر عرش فرغانة ، كما جلس على عرش جده الأكبر تيمور لنگك في سمرقند ، فإذا الدوائر تدور عليه فيفقد جميع

أملاكه ببلاد ما وراء النهر ويغدو شريداً طريداً يسير أغلب ليله ويختفي معظم نهاره ، ولا يأمن أن يبيت بمكان واحد ليلتين متعاقبتين حذر الوقوع في يد غريمة شيباني خان الأوزبكي الذي أخذ على نفسه القضاء على البيت التيمورى الذى آواد وآباهه من قبل (١) .

ويظل بابر يضرب فى الصحراوات والجبال عاماً وبعض عام حتى يلتقى ، وهو فى طريقه إلى الخروج من بلاده ، بمجموع من عشائر المغول والأتراك ببديخشان فتسير فى ركابه هرباً من وجه الأوزبكي ومعها الكثير من أموال حصار وبديخشان فيدخل بها أرض كابل وغزنة ويجلس على عرشها وكان فى حوزة التيمورين لسنين طويلة خلت .

ويكسر اسماعيل الصفوى ، شاه الفرس ، شوكة الأوزبكي ويقضى على زعيمهم شيباني خان . فتتجدد الآمال عند بابر لاسترداد بلاده ولاد آباه بما وراء النهر بمعونة الشاه الفارسى ؛ حتى إذا مارّ عنها بعد توغله فيها حين نقض السكان عهدهم معه ، لما أذاقهم حلفاؤه من ويلات لإرغامهم على اعتناق المذهب الشيعى ، ولج وجهه قبل الهندستان التى سبقه إليها آباؤه من قبل ، فى عزم وقوة أتبع له فيها أن يقيمها دولته التى خلدت ذكره فى التاريخ .

وكان لضآلة قواته فى بدء حياهه ، ثم تدرجها فى الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فىما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها بى اندجمة فى حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكينة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويبد كل تذر أو قن تشيع بينهم فى مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بجرّ الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح فى آكرا عقب دخولهم فيها ، وأستهض همهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فىهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتيين فى معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجنديّة ، ميلهم إلى الأمعان فى تقميل أعدائهم وتفآخرهم بعظم الأكداس التى كانوا يقيمونها من رءوس القتلى على هيئة المنائر والاهرامات ، وانتهابهم لديار أعدائهم وإشعال النار فىها مالم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسلاطنتهم .

وئمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آباهه وورثها

وكان لصالّة قواته في بدء حياته ، ثم تدرجها في الزيادة ، بعد ذلك ، أثر كبير فيما تمرس به من خبرة عسكرية واسعة أفاد منها فوائد جمة في حروبه الكبرى بالهندستان .

هذا كما مكنته خبرته الطويلة المكتبة بنفسية جنده ، على اختلاف أجناسهم ، من مغول وترك وأفغان وغور ، من أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ويبد كل تدمر أو قتل تشيع بينهم في مهدها ، حتى قضى بقوة شخصيته على تمردهم حين ضاقوا بجزء الهند وفاض بهم الحنين إلى ديارهم بعد ما أصابوا الكثير من غنائم الفتح في آكرا عقب دخولهم فيها ، وأستهزئ بهم فأعاد الثقة إلى نفوسهم حين شاع فيهم الخوف قبيل لقاء الراجپوتيين في معركة خانوه .

على أن بابر ورث عن أجداده ، من المغول والأتراك على السواء ، إلى جانب صفات الجنديّة ، ميلهم إلى الأمان في تقتيل أعدائهم وتفادحهم بعظم الأكداس التي كانوا يقيمونها من رهوس القتلى على هيئة المنائر والاهرامات ، وانتهاجهم لديار أعدائهم وإشعال النار فيها ما لم يبادروا إلى الاستسلام لهم والاعتراف بسطانهم .

وثمة خصال غير حميدة ورثها بابر عن آباءه وورثها

أبناءه من بعده ، كالإدمان على تناول الشراب الذى لم يقلع عنه عند
حربه مع راناسنگا إلاّ ليدمن تعاطى المعجون ذلك المخدر القوى
الذى عجل فى الغالب فى نهايته ولمّا يبلغ الخمسين من عمره ، برغم
ما اشتهر عنه فى شبابه من قوة جسدية خارقة حتى كان يطوى
ذراعيه على الرجلين ويتخطى بها الخنادق قفزاً فى تتابع سريع ،
ورغم ممارسته كافة ضروب الرياضة المعروفة فى عصره ، حتى
ليذكر فى سيرته أنه سبح فى كل نهر صادفه فى حياته ، وقطع نهر
الكنج فى معرض مواضعه فى ثلاثة وثلاثين ضربة ، وهو ما لم
يتيسر لغيره من رجاله .^(١)

وعرّفَ هذا السلطان التيمورى ببغضه للتعصب الدينى
وبعده عنه ، ونهج أبناؤه فى الهند نهجه ، فمارس الهنادكة طقوسهم
الدينية فى حرية تامة إبان حكم الدولة المغولية فى الغالب .^(٢)
وبلغ من تسامح هذا الجندى الموهوب أنه تغاضى عما أنزله به
بعض رجاله وأقاربه من أضرار سالفه ؛ بل لقد عفى عن هؤلاء ،
حين وفدوا عليه بالهند ، برغم أن منهم من أبى أن يضيفه وأمه
حين ضاق به الحال ببلاد ما وراء النهر ، فقد كان يهدف أبداً إلى

١ — بإبرنامه ٣٦٣ ب

٢ — Havell p 426-Prasad pp 286 . 87 . —

وإثن أبقي الپادشاه على هيكل الإدارة الهندية فقد أدخل عليه ، على كل حال ، بعض النظم التيمورية ، فجعل على كل إقليم نائبين له ، يقود أحدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان ، ويتولى الآخر الإشراف على الإيرادات والمصروفات ويوازن بينهما ، ويدفع للجند والعمال أجورهم (١) . كذلك كان من مبادئ التيموريين التي ساروا عليها بالهند ألا يتراخى العمال في جمع الخراج والمكوس ، دون إلحاق الأذى بالناس ، وحض نوابهم على إجراء العدل بين السكان جميعا لا يفرقون في ذلك بين مسلم وهندوكي (٢) .

على أن بعثرة بابر لما وقع بأيديه من أموال طائلة وكنوز بآگرا ، وما ذهب إليه من بذخ في العطاء والبذل حتى أطاق عليه أصحابه لفظ « قلندري » (٣) ، ثم رفعه التمغه عن رعاياه قبيل

١ --- يقدر بابر في سيرته دخل الهندسات بما يوازي المليونين ونصف المليون من الجنيهات بايرنامه ٢٩٢ — ٢٩٣

٢ — The Indian Moslems pp 23 . 24

٣ --- تاريخ فرشته أول ٢٠٦ . وقيل إن « قلندر » كان صاحب طريقه تدعو إلى الزهد في المال والنساء ، والقلندري هو الزاهد في حطام الدنيا حتى ليجود بكل ما متصل إليه يده

حرب رانا سنكا ، أدى ذلك كله إلى اضطراب ماليته فذهب يفرض على الناس الضرائب من جديد .

هذا ، كما أمر بمسح كثير من الأراضى وشق كثير من الطرق ليربطها بين مختلف أجزاء بلاده ، وكان أعظمها تعبيد الطريق الطويل فيما بين كابل وآگرا ، وإقامة منائر به ليتهدى بها السابلة ، ومنازل للمسافرين والدواب^(١) .

ولقد زار بابر بگواليار أنقزم دور الهند في عصره وهي قصر بكرماجيت وابنه ما نسنك . وبرغم ما ذكره عن التأتق في بنائهما ونقوشهما ، فقد ضاق ببعدهما عن التناسق مع سوء التهوية و توزيع الضوء بهما

ونسى بابر ، وهو يظهر امتعاضه من هيئة مساكن الهند ، ما نزله على الأخص جدّه تيمور من تخريب ودمار بهذه البلاد أدى إلى انهيار كثير من منشآت الغزنويين والغوريين وآثار خلفائهم الفخمة ، وما ساقه كذلك معه من صفوة رجال المعمار الهندود ليقيموا له منشآته الفخمة ببلاده ، تلك المشآت التي طالما أشاد بذكرها في سيرته وعظائم من شأنها .

وبلغ من ولع بابر بالعمارة أنه كان يستخدم بضع ألوف (١) من مهرة النحاتين والبنائين ليقيموا له منشآت من قصور ومساجد وحمامات ونافورات وخزانات للمياه، في آگرا وسيكري وبيانه ودهولپور وگواليار وكول .

ومنشآت بابر الباقية حتى اليوم بالهندستان هي مساجده الثلاثة في پانی پت و سنبل و حصن اللودھین بآگرا .
ويقال أن شغفه بالعمارة ، مع ضيقه بمعماري الهند ، قد دفعه إلى أن يسأل سنان ، معمار العثمانيين الشهير ، أن يمدّه ببعض تلاميذه . والغالب أنه لم يجبه إلى طلبه ، وآية ذلك عدم ظهور أى أثر لطابع المدرسة السنانية هناك .

وأدى كلف بابر بالطبيعة وما تبذعه إلى إقامة طائفة من البساتين والحدائق حاكي ببعضها ما غانى كابل التي طالما ترنم بذكرها ، ومنها بستان چار باغ بظاهر آگرا الذي جعله نظير سميّه الكابلي ، وقد جلب إلى رياضه هذه كثيرا من النباتات وأشجار الفاكهة التي لم تكن تعرفها الهند من قبل (٢)

ونهج أبنائه من بعده نهجه الفنى هذا وزادوا عليه ، حتى

١ — بابرنامه ٢٩١ ب

٢ — المصدر السابق

لترى اليوم نط الحدائق المغولية الهندية تقوم بطائفة من مدن
إيطاليا وبريطانيا على الأخص (١) ، كما تزخر متاحف العالم
الكبرى بروائع نقوش الهند وتراثها الفنى لعهدهم .

وصف بابر للهندستان : وصف بابر هذه البلاد فى سيرته
التي كتبها بنفسه وصفا دقيقا مفصلا استوعب كل ما وقع عليه
نظره فيها . فقال عنها إنها عالم قائم بذاته يختلف اختلافا تاما عن
كل الأقاليم التي عرفها ، سواء فى طبيعة أرضه أو مناخه وزرعه
وأنواع الحيوان فيه وعروق السكان وطباعهم وعاداتهم وأسنهم
وعقائدهم (٢) :

« إن الإنسان ما يكاد يعبر حدود الهندستان فى ناحية الغرب
حتى يرى معالم هذه البلاد واضحة قوية توحى من فورها بعظم
تباينها عما عند جيرانها . »

« وتعتمد أراضيها وزراعاتها فى السقى على الأنهار وروافدها ،
فلا قنوات عندهم أو ترعا أو مصارف . وقد صدمهم عن إنشاءها طول
الأمطار التي تأتي بها الرياح الموسمية ، فهى عماد سقيهم فى أماكن
شتى ، وهم يختزنون من مائها الكثير . »

Garratt. Legacy of India pp 299-302 — ١

٢ — بابرنامه ٢٧٢ — ٢٩٣

ولم يرق بار هيئة مدن الهند ومظهر ريفها ، ولا حدائقها ، التي لا تنسيق فيها ولا أسوار لها ، فلا وجه لقياسها ببساتين كابل ورياض فرغانة والماء ينساب بين خمائليها ،

ولاحظ بابر كذلك وجـود آثار كثيرة لقرى ومدائن مهجورة ، ذلك أنه كان من عادة أهل الهند ، حين يفسد الغزاة على أرضهم : أن يفرّوا من وجههم ويهجروا بلدانهم .

كذلك وصف بابر صنوف الحيوان والطيور وأنواع الثمار والفواكهة بالهند في دقة وتفصيل ، ليتحدث من بعد ذلك عن التقويم الشائع بها وأسماء الشهور وأيام الأسبوع وأقسام الليل والنهار هناك :

« إن حساب الليل والنهار عند الهنود يختلف عن نظيره عند غيرهم من بقية الأمم ، فالشعوب ، فيما عداهم ، يقسمون الليل والنهار إلى أربع وعشرين قسما ، أما هم فيقسمونها إلى ستين قسما ، يُدعى كل واحد منها « غرى » ، وتنتزعه أربعة وعشرون دقيقة . كذلك يقسمون اليوم إلى أقسام أربعة يُعرف كل قسم منها باسم « پهر » وهو الساعة الزمنية الهندوستانية . »

« وفي كل مدينة من مدن الهند الكبرى طائفة تدعى

« غريالى ، وهم الميقاتيون ، وعدّتهم صفحة من النحاس ومطرقة من الخشب . وهم يلازمون ساعة مائة بمكان عال مخصوص ، فيقرعون غريالهم ، كلما امتلأ كأس الساعة أو فرغ قرعا سريعا متتابعاً تنبئها للناس ، ثم يردفون ذلك بدقات بطيئة تبين الوقت لهم . »

« ووحدة الوزن فى الهندستان هى « الماشة » ، وكل خمس منها تعادل مثقالاً واحداً . أما معيار الجواهر والأحجار الكريمة فهو « نانگك » ، ويعادل أربع ماشات . »

« وملكة الحساب عند أهل الهندستان قوية واضحة . فكل مائة ألف عندهم هى « لك » ، وكل مائة « لك » هى « كرور » ، وكل مائة « كرور » هى « أرب » ، وكل مائة « أرب » هى « كرب » ، وكل مائة « كرب » هى « نيل » ، وكل مائة « نيل » هى « پدم » ، وكل مائة « پدم » هى سنكك . وضخامة هذه الأرقام تقوم فى الغالب دليلاً على ضخامة ثرواتهم ،

« وأهل الهندستان تنفر النفس منهم ولا تطيب إلى معاشرتهم ، ولا تقوم فيما بينهم صداقة أو يضمهم مجتمع . وهم ليسوا على شيء من صفاء العقل أو حميد العادات والخصال ، فلا إنسانية عندهم ولا أثاره من عبقرية أو ميل للاختراع

أو مهارة في المهن والحرف أو خبرة بالمعمار والنقش
والزخرفة .

« كذلك تراهم لا يعرفون الخيل المطهمة ، والطعام الطيب
والفواكه الجيدة والماء المثلج ، وليس لديهم حمامات أو مغاسل
أو مدارس . ولا يعرفون الشموع ، فيستضيئون بمسارج
الزيت القذرة فتعج بيوت كبرائهم وسرراتهم بمئات منها »

« أما أبنيتهم ، ففضلا عن رداءة تصميمها وتجردها من الجمال ،
فهي لا تتواءم مع بيتها أبداً . وهم لا يمدون الماء إلى دورهم في
القنوات ولا يجرونه كذلك إلى الحدائق ، نخلت قصورهم
وبساتينهم من ذلك كله »

« ويسير عامة الفلاحين ورجال الطبقة العاملة شبه عراة ،
إلا مما يستر عوراتهم ، وهو « لنگوتى » يشدونه حول
وسطهم . ويعلمو عند النساء حتى يستر الصدر فيُدعى
« لنگى » . »

« وفيما عدا ذلك فيزة الهندستان الكبرى أنها بلاد مترامية
الأطراف ، يتوفر الذهب والفضة فيها بكثرة »
« ومناخ الهندستان في فصل الأمطار لطيف . وأما أمطارها
فغزيرة جدا ، حتى لتفيض سيولها كالأنهار وتجري في الأراضي

التي ليس بها للماء عيون أو مجار . وتتكثف الرطوبة في هذا الفصل فتصيب كلَّ ما تصادفه بالتلف ، سواء في ذلك الأبنية أو الأثاث والملابس والأوراق .

« ويتخلل فصل الأمطار هبوبٌ شديدٌ محمل بالأتربة يسمونه « آندهي » ، وتؤدي شدته في بعض الأحيان إلى تعذر الرؤيا . »

« ولا يخلو الشتاء والصيف من أوقات لطيفة . إلا أن حر الصيف الهندي ، حين يشتد ، لا يطاق ، ولا يقارن بغيره في البلاد المجاورة »

« والأيدى العاملة العادية متوافرة في كل مهنة وحرقة إلى درجة بعيدة ، وهم يتوارثون الحِرْفَ والمِهِنَ عن آبائهم ويورثونها أبناءهم بدورهم .

وقد استخدم تيمور لنگك فئة كبيرة من النحاتين الهنود في بناء مسجده الكبير بمدينة سمرقند .

كذلك تحدث بابر عن حدود الهندستان وموقعها الجغرافي ، وما بها من ولايات ، فذكر ما هو منها بأيدي المسلمين وما هو بأيدي الهنادكة ، كما فصلَّ خراج كل ولاية ونصيب صاحب دهلي منه .

والغالب أن الأجل لو كان قد امتدّ به فطالت حياته
بالهندستان ، لعدّل كثيرا فيما كتب عنها ، ولم يقصر ميزاتها على
أنها إقليم كبير فيه فضة وذهب كثير (١) .

بابرنامه : خلف بابر وراءه ثروة أدبية في الشعر والنثر
ضمنت له شهرة الأديب المطبوع ، إلى جانب صيت الجندي
الموهوب (٢) .

وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركي كثير، كان
ينشده في مناسباته ، فقد ترك ديوانا له بالتركية (٣)
وأشعارا أخرى كثيرة فارسية وأصواتا في الغناء والموسيقى (٤)
وتعدّ سيرته المعروفة باسم « بابرنامه » أعظم آثاره
الأدبية على الإطلاق ، وهي كتاب النثر التركي التقليدي بحق
حتى اليوم . وقد كتبها بنفسه في لغة تركية (چغتائية) سهلة وأسلوب
يدل على ذوق أدبي رفيع ، ويتم عن تمسك صاحبه من أصول

١ — ذكر بابر نفسه في ختام حديثه عن الهندستان أنه لا يبخل أن يثبت من
جديد ما قد يسمعه أو يلاحظه من أمور هذه البلاد .

٢ — تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٢ ، ١١٣ .

٣ — نشر ما عثر عليه منه دنيون روس J. R. A. S. B. 1910

٤ — أكبر شاه ٥٢

ثقافة الإسلامية وآداب العربية والفارسية تمكنا تماما .
لم يذكر لنا بابر في سيرته التاريخ الذي بدأ عنده كتابته لها .
تلى أن إشاراته في أوراقها الأولى . إلى رجاله ، من كانوا معه
بهندستان ، وإلى زيج كان يستخـدم بالهند ، يقطع بمراجعته لها
هناك ، حتى ذكر في أوراقها الأخيرة أنه أمر بنسخ أجزاء منها
وإعادتها إلى بعض الأمراء الذين طلبوها منه .

وأغلب الظن أن الأجل لو كان قد امتد به لنقح فيها كثيرا
وإصاغ أجزاءها الأخيرة على الخصوص في أسلوب يتمشى مع
رصانة الأسلوب في أقسامها الأولى ، فلا تبقى أشبه بيوميات
تبعث الملل عند قارئها .

ومن أسف أن الأصل الأول لهذه السيرة قد فُتد . وأكمل
مخطوطاتها التي بين أيدينا والتي يرجع تاريخها إلى عام ١١١٢هـ ،
١٧٠٠م (١) به ثغرات خمس تتضمن حوادث تسع عشرة عاما
بها كالاتي :-

١ - من أواخر عام ٩٠٨ هـ إلى نهاية عام ٩٠٩ هـ .

٢ - من أوائل عام ٩١٤ هـ إلى نهاية عام ٩٢٤ هـ .

١ وهو المعروف بمخطوط حيدرآباد ، وقد نشرته السيدة أيتنا بفريدج في
مجموعة كتب التذكارية عام ١٩٠٥ .

- ٣ -- من أوائل عام ٩٢٦ هـ إلى أوائل عام ٩٣٢ هـ .
٤ -- من رجب عام ٩٣٤ هـ إلى آخر هذه السنة .
٥ -- من المحرم عام ٩٣٦ هـ حتى وفاة الپادشاه في جمادى الأولى
من عام ٩٣٧ هـ .

وقد نقلت هذه السيرة إلى الفارسية في عهد أكبر ، حفيد بابر ،
في نهاية القرن العاشر الهجرى ، كما نقلت إلى بعض اللغات
الأوربية في العصر الحديث . ونرجو أن يتبها لهذه السيرة القيمة
المتعة من ينقلها بدوره إلى العربية .

إن التقارب الكبير عند الذين أرخوا لباير وعصره وما
وصل إلى أيدينا من سيرته ليجعلنا نميل إلى تصديق حديثه
حين يقول بأنه لا يهدف في كتابته إلا إلى الصدق ولا يجرى
قلبه بغير الحق ، فهو حين يذكر بالخير أو السوء عدواً أو
صديقاً ، أو يشيد بفضائل واحد منهم أو يعيب عليه رذائله ،
إنما يبغى إقرار الواقع فحسب دون ميل أو هوى ^(١) .

والحق أنه في حديثه عن نفسه أو غيره لم يحاول أن يخفي
رذيلة أو ينكر فضيلة ، فصور النفس الإنسانية على طبيعتها
بما فيها من خير وشر .

فهو لا يتردد مثلاً عن أن يذكر كلفه ذات مرة بغلام حسن الصورة صادقه بمسكروه ، وقد بلغ به الوجد يوماً أنه كاد يسقط عن دابته حين طلع عليه في طريقه فجأة . ولكنه يقف عند هذا الحد فلا ينغمس في هذه الرذيلة التي شاعت عند عمه السلطان محمود ميرزا صاحب سمرقند ورجاله حتى كثرت اعتداءاتهم على الأهلين بسببها (١) .

وهو حين يحمل على عمه هذا ، لفرط عنفه مع رعاياه ، لا ينكر حسن إدارته لشئون بلاده وحرصه على أموالها .

كذلك نراه لا يخفي ولعه بالشراب ، حتى كان نبيند كابل يحمل إليه بالهندستان ، ويفصّل لنا ما كان يجري في مجالس شرابه من عبث ووهو وتطارح بالأشعار . ولم يترك هذا كله ، وهو مقدم على حربه مع الراجپوتين ، إلاّ ليقبل على تعاطي المعجون في إدمان شديد ، حتى لا تكاد الصفحات الأخيرة من سيرته تخلو من ذكر تناوله له كل يوم .

وهو إلى ذلك يتفاخر في سيرته بأكداس القتلى في معاركه الكثيرة التي خاضها ، فوصفها وصفاً دقيقاً حتى فصّل من ضروب

الشجاعة التي كان يظهرها كل فرد من أبطاله. ولا يكتفى بذلك حتى يقارن بين فتحه لسمرقند وفتح السلطان حسين بيقر المدينة هرات ، كما يقارن كذلك بين فتحه للهندستان وفتوحات من سبقوه إليها من الغزنويين والغوريين وغيرهم ، مع ضآله قواته بالنسبة لعظم جيوشهم فضلا عن كثافة جند الهند نفسها .

وهو إلى جانب تفصيله لانتصاراته يذكر هزأته في صراحة تامة، ويبين ما صادفه من محن ومتاعب شردته في الأرض وقد انصرف رجاله عنه وتنكر أفاربه له . حتى إذا ما أقبلت الدنيا عليه لم ين عن وصل هؤلاء جميعا ، وفيهم من ركن إلى التآمر عليه من جديد برغم إحسانه إليه ، وفيهم من قتل ذوى قرباه وسمل عيونهم بل وتعرض لآله وآله بالمهانة والسوء . وهو حين يذكر ذلك كله تفيض عليه مسحة من التواضع فيقول بأنه إنما يثبته تقريراً للحقيقة والواقع فحسب (١) .

ويذكر بابر في سيرته جدّه الأكبر تيمور شرفاً بأعماله ومنتشاته وآثاره ، كما يفصّل من سيرة أغلب أبنائه وأحفاده ورجالهم . حتى إذا ما بلغ بحديثه السلطان التيمورى حسين بيقرا

أفاض إفاضة عليم متمكن في العلوم والفنون والآداب ، فذكر
من كان يزدهمهم بلاط هذا الأمير ، بهرات ، من الفقهاء والمحدثين
والدوراء والموسيقين ، حتى البهلوانيين . عرف بكل واحد منهم
في إلهاب . فصور للناس بصنيعه هذا صورة شاملة لما كان
لغروب المعرفة من ازدهار كبير يا حدى مراكز الثقافة الإسلامية
الكبرى في عصره . (١)

وأدّى ببابر سعة اطلاعه ، التي تشيع في سيرته ، إلى اقتناء
مكتبة قيمة خاصة به ، كان عليها قيم له يدعى عبد الله كتابدار .
وقد ضم إليها كذلك قسما من مكتبة غازى خان لودهى حين
استولى على حصنه بابلنجاب ، وبعث بالقسم الآخر إلى ابنه
سايون الذى كان يحرص على تنشئته تنشئة طيبة . (٢)

هذا كما كان يرسل أساطين العلماء في عصره ويستقبل الكثير
منهم ببلاطه ، وكان من بينهم الشاعر المشهور على شير نوائى
والقرخان خواند أهير ، صاحب حبيب السير ، وميرزا محمد حيدر
دوغلات صاحب تاريخ رشيدى .

أما وصف بابر لبلاده والبلاد التي دخلها ، فحسبه أن يذكر

فريق^٢ من المؤرخين ، الذين زاروا هذه الأماكن ، أن أغلب ما أورده عن بلاد ما وراء النهر وكابل على الخصوص يصدق عموماً على حالها اليوم . (١)

وهو في وصفه للبلدان لا يدع شيئاً عرفه أو وصل إلى عنده إلا وذكره ، ففي حين يعدّد لنا أسماء الرياح التي تهب على كابل ، ويقرر أنه هو أول من أدخل زراعة قصب السكر بها ، إذا هو يذكر لنا أن أهل الهند يطلقون على كل أرض خارج بلادهم اسم خراسان ، مثلما يعرف العرب غيرهم من الأمم باسم العجم . (٢) وعلى هذا جرى وصفه لسمرقند . فتحدث عن أصل تسميتها وتاريخها ، ووصف وادبها وأسواقها وتجاريتها وصناعاتها وما بها من منشآت ومدارس ومساجد ، كما تحدث عن حكامها وسكانها وما ظهر بها من العلماء والفقهاء ومذاهبهم وفرقهم . وكذلك ساق الحديث عن خراسان وحاضرتها هرات مقر آل بيقرا ، وفرغانة مسقط رأسه ، ثم الهند التي ذكرنا له قدراً من وصفها تفصيلاً فيما سبق .

ولم يكن ظهير الدين بابر في تدوينه لسيرته بدعاً بين أفراد

Elliot and Dowson, India. V.Iv p 220 — ١

٢ — بابرنامه ١٢٩١

أسرته على كل حال، فقد سبقه إلى ذلك جدُّه الأكبر تيمور، كما
نهج أبناؤه نهجه من بعده .

على أنه يتميز عنهم جميعا بتدوينه لسيرته بنفسه . فلم يكن
ليتأني لكُتّاب البلاط بداهة ، وهم يدونون سير سلاطينهم ،
أن يذهبوا مذهبه في صراحته التي جرى عليها وصدقته الذي
التزمه في الغالب .

إن بابرنامه قد خلّدت ذكر صاحبها في عالم الأدب والتاريخ،
كما خلّدت حروبه وفتوحاته في عالم الغزاة والمحاربين . وما من
شك في أن هذه السيرة لتعد من المثل الصالحة التي يستلهمها
أصحاب الطموح على الدوام .

همايون

لم يكن عرش آگرا حين اعتلاه نصير الدين محمد همايون ابن بابر في التاسع من جمادى الأول من عام ٩٢٧ هـ / ١٥٣٠ م ، تحوطة الأزهار والرياحين ، ولم تكن سماء الهند التي تظله تنبئ عن صفو وصفاء .

فقد ترك له أبوه خزائنه خاوية استنفدت هباته وعطاياه من أموالها أكثر مما استنفدته حروبه وغزواته . كما ترك له جيشا من أجناس مختلفة ، من الجفتائين والأوزبگك والفرس والمغول ؛ أثارت كثرة الغنائم التي أنجمتهم ، مع اختلاف العرق ؛ شغناء الحسد والخصومات فيما بينهم . أما الأمراء ، أصحاب النفوذ بالبلاط ، وكانوا ما بين خوانين من المغول وهيرزاوات من الترك ، فقد ذهبوا بدورهم يؤثرون منافعهم الخاصة على صالح الدولة العام ؛ في حين لم يقنع أبناء بابر الآخرون وأقرباؤه بما أصابوا من ملك حتى ثاروا على أميرهم الجديد فجبرّوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كثيرا من المتاعب والمحن .

ولم يكن ذلك هو كل ما تعرض له سلطان الهندستان الجديد

من مشكلات : فقد كان الهنادكة بدورهم ، وهم غالبية السكان .
يرتد في الحكام المسلمين عموما معتصين بلادهم وغزاة دخلاء
عليهم . كما كان هناك بقية من الأمراء الأفغان مازالوا بأطراف
البلاد يتربصون بغزاة الهنادك في انتظار الفرص المرآنية ليثبوا
عليهم ويخرجوهم من أرضهم .

وأقوى مراکز هؤلاء الأمراء الأفغان كانت بالأقاليم الشرقية ؛
وأبرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهى الذى انطلق يجمع شتات
بنى جلدته من جديد بهار ، وكان بابر قد هزمه من قبل فيمن
هزم من عصابة رانا سنگا بالراجپوتانا ، ثم شير خان سورى
ذلك الداھية المجرب الذى سنراه فيما بعد ينزل بالدولة ضربات
فأصمته .

وكانت البنغال ما تزال بعيدة عن متناول أيدي سلاطين دهلى ؛
وكان يلوذها أعداؤهم بالمناطق الشرقية فى الغالب . وكذلك كان
نأن الكيجرات التى طفق أصحابها ، وهم سدنة باب التجارة
الهندية الأكبر ، يبدلون من فيض بلادهم الغنية لتقوية جيشهم
يستمدون الأسلحة الحديثة من البرتغاليين الذين كان لهم
تتدأطهم منازل أشرنا إليها من قبل ، حتى باتوا يتطلعون إلى
تربش الهند ، ولم يدخلوا عن مد يد العون لأولئك الذين

بناهضون الدولة المغولية الجديدة .

وإن كانت المدة القصيرة التي استقر فيها بابربا آگرا لم تسر له القضاء التام على الخسارجين على سلطانه وتدعيم أسس دولته الهندية الجديدة : فإن همايون ، وهو الذي تمرّس بأعباء الحكم حين أتى إليه بمقاليد بدخشان وشارك في بعض وقائع أبيه الهندية فأظهر من ضروب البسالة والفروسية التي اشتهر بها الأمرء التيموريون " . كان كفيلا بترسم خطا أبيه وإتمام ما بدأه من عمل ، لولا تراخيه في كسب ودّ رجال بابربا وخلصائه ، ثم فتور همته وخور عزيمته ، فتراه لا يكاد يمضى في الإجهاز على أحد خصومه والقضاء عليه حتى ينصرف عنه فجأه إلى عدو آخر غيره . وهو حتى حين يباغ غايته في القضاء على واحد من أعدائه ، كان يستخفه الطرب فينصرف إلى متعة عابرة غير منتبه إلى وجوب تدعيم ما أحرزه من توفيق أو مستمع إلى نصح القادة المجربين الذين قادوا جيوش أبيه من نصر إلى نصر .

بهذا أتاحت لأعدائه فُرَص متكررة لجمع صفوفهم وضمهم

لهم من جديد حتى بلغوا إلى إخراجهم من الهند كلها والتضاء على
ما بذله أبوه من جهود .

عمل همايون بوصية أبيه ، فولى أخاه كامران إقليمى كابل
وقندهار ، كما أقطع أخاه عسكرى ولاية سنهـل ، فى حين أعطى
أخاه هندال أوار وموات^(١) . أما إقليم بدخشان فقد جعل
عليه ابن عمه سليمان ميرزا .

على أن كامران لم يقنع بأرضه ، فاستخلف أخاه عسكرى
عليها ثم اقتحم مشارف البنجاب بدعوى سيره لتهنئة همايون . ولم
يشته عن غايته ماعرضه عليه أخوه السلطان من ضم لمغان وبشاور
إلى حوزته ، حتى انقض على لاهور واعترف له همايون
بسيادته على البنجاب كله .

وأدت سيادة كامران على البنجاب إلى قطع كل صلة بين دهلي
وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهندكوش ، وهى التى كانت
تسد حكام الهند المسلمين دواما بإمدادات لاتنفد من أشداء
المقاتلين .

وتدبر همايون موقفه بين أعدائه من بعد ذلك ، فرأى أن
يبدأ بثوار الأفغان الذين عادوا إلى عصيانهم السابق بإقليم

بهار . حتى إذا بلغ لسكرهناوتى اكتفى بضرب قواتهم عندها دون أن يكلف نفسه عناء مطاردتها ، وقد كان ذلك فى متناول يده . وسلك شبه هذا المسلك مع شيرخان سورى صاحب حصن چنار إذ قنع منه بالولاء الإسمى ، مؤثرا أن ينصرف عنه إلى حرب السكجرات ، دون أن يُلَاقى بالآ إلى خطورة هذا الثائر .

غزو السكجرات : وكان بهادر خان ، أحد سلاطين السكجرات الكبار ، قد أخضع لسلطانه أصحاب أحمد نگر وبار وگواليار ، ووثق علاقاته بالبرتغاليين الذين كانت لهم مستعمرات بشواطئ بلادها ذات المركز التجارى الممتاز ، هذا كما اقتحم إقليم مالوه مع رانا موار بدعوى استضافة صاحبه محمود الخلجى لأخيه جندخان وكان ينافسه العرش ، فصار بذلك يتآخم سلطنة دهلى فى مواضع كثيرة ، وغدت آگرا نفسها غير بعيدة .

وأدى ازدياد نفوذ هذا السلطان إلى أن لجأ إلى بلاده فريق من الخارجين على صاحب آگرا الجديد ، وفيهم علم خان عم إبراهيم آخر سلاطين اللودهيين ، وزمرة من رجال بابر السابقيين الذين زينوا له التطلع إلى عرش الهند والسعى

استخـ لاصه لنفسه^(١)

وحين كتب همايون إليه يسأله إخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده فرفض الاستجابة إلى طلبه، لم يكن من الحرب بينهما عند ذلك مناص .

هنالك بادر صاحب آگرا بالارتداد سريعا من المناطق الشرقية، ولما يجن بعد ثمار انتصاراته هناك، حتى إذا ما بلغ مالوه فوجد بهادر خان منهمكا في حربه مع صاحب چتور، أبت عليه شهامته إلا أن يمهل خصمه فلا يهاجمه حتى يفرغ من اشتبا كاته مع الأمير الراجپوتى^(٢) .

وبرغم ما كان عند بهادر خان صاحب الكجرات بدوره من مدافع أمده بها أصحابه البرتغاليون، فقد أرغته قوات همايون على الامتناع في حصونه ليتسلل من بعد ذلك منها في نفر قليل من رجائه حين أيقن بانهايار مقاومة قواته لطول الحصار وعنق المجاعة التي بدأ شبحها يخيم عليهم .

وظفق البادشاه يطارد خصمه بنفسه فتبعه إلى ماندو، ثم چمپنير فأحمد آباد حتى بلغ كباى فوجده قد لاذ بجزيرة ديو

١ - منتخب التواريخ أول ٣٤٦

٢ - طبقات أكبرى ١٩١

يُحْدِي حصون البرتغاليين حتى اليوم .
وما غدا بهادر خان أن تم له ، بعون من البرتغاليين ، جمع
قوات جديدة استطاع بها أن يسترد أغلب أراضيه . ويسرّ
له بلوغ هدفه ما كان من فشل ميرزا عسكري نائب همايون
هناك في تصريف شئون حكومته وانغماسه في الدس والتآمر ،
وانصراف أغلب رجاله إلى حياة الترف التي كفلها لهم ما وقع
بأيديهم من غنائم هذا الإقليم ذى الثراء العنائل .
على أن سلطان الكجرات لم يكتب له الاستمتاع بثمار
انتصاراته هذه ؛ إذ سقط في البحر غدراً بتدبير من البرتغاليين ،
وهو في طريقه للتفاوض معهم ، برغم شدة حذره وفرط
نحوّطه .

وما غدا أصحاب الكجرات أن أعادوا مالوه بدورها إلى
حظيرتهم ، وذلك حين خرج همايون من جـديد للقضاء على
لقلقل الشرقية التي طفقت تهدد ملكه تهديداً خطيراً .
البنغال وبهار : كان شيرخان سوري ، وهو من أقدر الزعماء
الأفغان وأوفرهم شجاعة وعلما ، قد استخلص لنفسه إقاييم بهار .
نوغل بقواته في البنغال من بعد ذلك فلم تصادفه بها مقاومة تذكر (١)

وما إن توجه همايون إلى البنغال فاسترد إقليم غور حتى
أُرتد هذا الشائر الأفغانى إلى إقليم بهار فطفق ورجاله
ينتهبون كافة الأراضى التى تمتد بين بهار وقنوج وجو بنور .
وقضى السلطان شهوراً ستة بالبنغال وقد ظن أن الأمر قد دان
له فى الغالب بالأقاليم الشرقية ، ولم يكن يدرك ، وهو
يطيل فترة استجهامه هناك ، أن عدوّه إنما تركه يوغل فيها
ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملكه قضاء تاماً بالتالى . حتى
إذا ما تنبه إلى هذا التدبير ، بعد فوات الوقت ، فاستدار إلى
حصمه والأمطار الموسمية على أشدها ، استطاع شيرخان
بدهائه ومناوراته المدحكمة أن ينزل بقوات دهلى ضربة حاسمة
أنت عليها جميعاً .

فقد جاءت الأنباء إلى همايون ، وهو بالبنغال ، بخروج أخيه
هندال عليه بتحريض من بعض أعيان الأفغان حتى دُعى له
بمساجد العاصمة ، فبادر فزعا بالارتداد إلى آگرا فى طريق
طويل تعرض فيه جنده لعنف الأمطار الموسمية وأوبئتها حتى
هلك منهم خلق كثير .

هنالك عمد شيرخان إلى خداع السلطان ، وقد علم بتمرد
إخوته عليه ، فأوفد إليه من يؤكد له طاعته وولائه له حتى

إذا ما اطمئن همايون إلى تلك العمود فعرض على عدوه إمارتي
البنغال وبهارثما لخضوعه له ، إذا بذلك القائد الأفغانى يهبط
في الفجر على معسكره بأرض چوسا ويحيط برجاله . فمنهم من
لفظ أنفاسه وهو يغط في نومه ، ومنهم من لقي حتفه في اليم
غرقا . ومنهم من وقع في الأثر . وبرغم ما بذله الساطان
همايون نفسه من جهد وما أظهر من جلد في القتال شديد فقد
كاد هو نفسه يبتلعه الماء لولا سقّاء يدعى نظام أبصر به فحملة
على زقّته . (١) »

واتخذ هذا الثائر الأفغانى لنفسه ، على أثر انتصاره في معركة
چوسا هذه ، لقب شاه وأمر أن تضرب السكة باسمه وتجرى الخطبة
بالدعاء له . (٢) وأردف ما أحرزه من فوز بتحالفه مع أصحاب
الگجرات ومالوه على محاربة همايون .

تدبر همايون موقفه فاستبان له أنه لن يكون له قبل بالقضاء
على خصمه حتى يمد له أخوته يد العون ويلتف رجاله حوله
مخلصين . وعمّا أمر ان لم تحالفه الظروف على تحقيقها .

١ - تذكرة الواقات أو همايوننامه جواهر ص ١٤٣ - وقد وقعت زوجة
همايون أسيرة بأيدي شيرشاه في هذه الحرب .

٢ - رياض السلاطين ١٥٧ وما بعدها

من ذلك أن أخاه كامران حين انتوى العودة من آگرا إلى لاهور ، فعزم على ترك أغلب قواته لتشد من عضد أخيه ، أصابه مرض مفاجئ ، ليُسَلِّقَى أحدُ رجاله ، عند ذلك ، في روعه باحتمال دس أخيه السم له ، فيعدل عن وعده ، فلا يسير بأغلب جنده خشب ، حتى طفق يحرّض فريقا من جند دهلي نفسها بالذهاب معه . ولم يكن شيرشاه ليعلم ذلك كله ، من أحوال غريمه ، فلا يفيد من هذه الفرصة التي سنحت له ليقضى عليه . فعبر السكجج في خمسين ألف من الجند لاقي بهم مائة ألف من جند همايون عند قنوج . وادى تراخي جند السلطان في القتال ، حين رأوا كثيرا من الأمراء الكبار ينسحبون بقواتهم من الميدان مع بدء الأمطار ، إلى انتصار جموع الأفعان انتصارا ساحقا كان من أثره أن أُخرج همايون من الهندستان كلها ، وبهذا ذهب كل الجهود التي بندها أبوه بابر في فتوحاته أدراج الرياح .

وكاد همايون أن يلقي حتفه في هذه الوقعة غرقا كذلك ، لولا أن بصر به قائده شمس الدين محمد غزنوى الذى وزر لابنه أكبر من بعد ، فأنقذه (١) ليعود إلى الهند من جديد بعد خمسة عشر عاما

قضاها في المنفى .

شير شاه

هذا الزعيم الأفغاني، الذي استطاع بشدة مراسه
وقوة عزيمته أن يخرج الأمراء التيموريين من الهند، والذي
ينتسب إلى بيت سور الغوري، كان جده إبراهيم قد قدم
الهندستان في عهد السلطان بهلول اللودهي فنال الحظوة عنده حتى
ولى ابنه حسن إقليم سهرام .

وكان أن أهمل حسن هذا شأن ابنه الأكبر فريد بتحريض
من صغرى زوجاته، لينفر الولد من بعد ذلك إلى جونپور، منتدي
الصفوة من رجال المعرفة بالهندستان إذ ذاك، ثم يتركها إلى
آگراف فصادف قبولا وترحيبا بيلاط السلطان إبراهيم اللودهي
الذي وهبه إقطاع أبيه عقب وفاته .

ولجأ فريد عقب دخول بابر الهندستان إلى بهار فالتحق
بخدمة صاحبه محمد بن درياخان لوحاني . وفيما كان الأمير في
المصطاد إذ وثب عليه نمر فاتك كاد يقضى عليه لولا شجاعة فريد
الذي بادر بالقضاء عليه بسيفه ليشتهر من بعد ذلك باسم شيرشاه^(١)

وما غدا طموحه أن دفعه إلى الالتحاق بخدمة جنيد برلاس نائب بار علي جونپور ، ثم أتيح له من بعد ذلك أن يظهر بيلاط بابر فاتح الهندستان الجديد وينال الحظوة عنده .

وحين عهد بابر إلى جلال خان لودهي بأقليم بهار ، سار معه شير شاه ، ولكنه ما لبث أن انضم إلى عصبة الثائرين التي كان يتزعمها السلطان محمود لودهي . حتى إذا ما هُزم هذا الأخير بأقليم خريد ، على ما ذكرنا من قبل ، أقبل ذلك القائد السوري يستتيب بابر من جديد فعفا عنه ، ليسقط على بهار من جديد عقب وفاته ويستخلصها لنفسه ، ثم ما يزال بهمايون حتى يخرجها من الهند كلها .

ورأى شير شاه ، بعد أن جلس على عرش آكرا ، أنه لا سبيل إلى تأمين حدوده إلا بالقضاء على الأمراء البابر بين الذين ما برحوا يحكمون بأرض كابل وكشمير . فلم يبلغ البنجاب حتى اضطرت ثوره حاكم البنغال إلى الارتداد مسرعا إلى دهلي بعد أن عهد إلى خمسين الف من جنده بإقرار الأمن عند حدوده الشمالية الغربية منفذ الغزاة إلى سهول الهند منذ القدم .

وأتيح لسلطان الهندستان الجديد هذا أن يثبت نفوذه في البنغال ويخضع السند والملتان وما لوه له ، كما أنزل ضربات

شديدة كذلك بالأمراء الهنادكة وبالراجپوتانا برغم استيانتهم في القتال ورغم الخسائر التي لحقت بالجند الأفغان . وتم له كذلك انتزاع حصن كلنجر من أصحابه الراجپوتيين ، لكنه أصيب في معرعة المعركة بشظية من قذيفة ، لم يكتب له النجاة من أثرها ، فقضى بعد قليل في عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة ^(١) . ولبثت أسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشر سنوات استطاع همايون من بعدها أن ينتزع الملك منهم مرة ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذي آواه في محنته .

هكذا وبعد شير شاه من بين أمراء المسلمين العظام الذين عرقتهم الهند . فقد التفت بهمة عالية إلى تنظيم أداة الحكم ، ونهض باقتصاديات البلاد وتعمير الأرض ، وأصلح نظام الضرائب بعد أن أمر بمسح الأرض الزراعية وحصر زراعاتها على اختلاف أنواعها . وقسم أراضي الدولة إلى سبع وأربعين ولاية تضم كل واحدة مراكز عدة جعل عليها عمالاً له الزمهم بالسهر على مصالح السكان وجمع الخراج دون تعسف أو حيف .

كما اهتم بأمر الجيش اهتماماً بالغاً مسترشداً بما سبقه إليه

علاء الدين الخالجي من نُظْم في ذلك. فجعل تحت إمرته المباشرة جيشاً قويا قوامه مائتي الف من الجند النزم بدفع نفقاتهم من بيت الإيالة، وكان العرف يجري من قبل على أن يمد الأمراء وزعماء القبائل السلطان برجالهم في الحروب على إقطاعات واسعة تقطع لهم وأنصبة من الغنائم والمتاع. وبهذا أراح الناس في الغالب من تسف أصحاب الإقطاعات وابتزازهم المتواصل لأموالهم وما يملكون.

ونشر شير شاه جنده في كافة أنحاء البلاد، وعهد إليهم بحراسة الحقول والمحافظه على أرواح الناس ومتاعهم من اعتداءات اللصوص وقطاع الطرق الذين كان لهم في بعض العصور نشاط ملحوظ وخطر شديد.

وامتدت يده كذلك إلى النهوض بالبريد وتنظيمه، وتحسين الطرق حتى أنشأ منها ما يزيد طوله على الألفين من الأميال المعبدة، وأنشأ على جانبيها الأشجار ذات الظلال، وأنشأها الكثير من محطات المسافرين ومنازل الدواب، وأباحها للمسلمين والهنادكة على السواء.

وأدى قيام محطات المسافرين هذه إلى تجمع ما يشبه الأسواق الصغيرة من حولها، مما ساعد على رواج أحوال أواسط

التجار وعامتهم^(١).

ولم تكن عناية هذا الأمير السورى (٢) بالعلم والعلماء بأقل من عنايته بتعمير بلاده والنهوض بحكومتها. فقد أنشأ كثيرا من المدارس والمساجد، ورتب الأجور للطلبة والمعلمين على السواء، وحرصهم تحريضا شديدا على طلب العلم والاستزادة منه. كما فتح كثيرا من المطاعم فى أنحاء متفرقة بالهند وأباحها بالجان للفقراء والمعدمين من أهل البلاد جميعا، مسلمين وهنادكة، فساهم بذلك، فى الغالب، فى تخفيف وطأة المجاعات المعروفة التى كانت تحتاج بعض مناطق الهند من حين إلى حين.

ويبلغ من برّه برعاياه والتزامه إقامة العدل فى ربوع دولته، أنه كان لا يتردد فى إنزال أشد العقاب بمن تحدّثه نفسه من رجاله وجنده بالاعتداء على الأهلين أو السطو على حاصلاتهم وأملاكهم، فلا تشفع له عنده مكانة المعتدى أو حسبه ونسبه (٣).

همايون فى منفاه: طفق همايون، بعد أن دحره شيرشاه، يُطوف بالسند فى حالة شديدة من البؤس والشقاء، وإخوته

١ — Prasad Muslim. Rule pp 301,2

٢ — نسبة إلى آل سور

٣ — Lane-Poole 233-36.

ما زالون يكدون له ، وأغلب رجاله تد تخلوا عنه . بل إن صديقه القديم مل ديو ، صاحب جُهد هپور ، حاول وفريقه من أمراء الهنادكة أن يوقعوه في أسرهم ، حين دعوه للنزول عندهم ، على اتفاق سابق فيما بينهم وبين شيرشاه .

وبنى همايون في تجواله هذا بجميدة بانو ابنة الشيخ علي أكبر جامي فرُزق منها بابنه أكبر (١) .

وانتهى المطاف به إلى قندهار فترك بها ابنه الذي لم يكن يعدو العام الأول من عمره إذ ذاك ، وقد عقد العزم على السير إلى العراق ومعه قائده بيرم خان الذي وفد إليه من الكججرات فلازمه مخلصا طول محنته .

وبنح همايون سيستان فاستقبله نائب طهماسب ، شاه الفرس ، بها في ترحيب وتوقير . وكذلك فعل محمود ميرزا أكبر أولاد العاهل الفارسي حين بلغ العاهل النيمورى مقر حكمه بهرات . وظل نواب طهماسب يبالتون في الخفاوة بسلاطان الهند الشديد على طول الطريق حتى بلغ مقام سيدهم وراحي قزوین .

وكان أن أفاض همايون في بيان ما لقيه من محن ألمت

به بسبب تنكر إخوته له ، حتى خشي بهرام أخو طهماسب أن
أن تذهب الظنون بالشاه بديره إلى القضاء على إخوته .
هنالك حاول بهرام هذا أن يزين لأخيه العاهل الفارسي قتل صفيه
التيمورى ، بحجة الانتقام منه لتقاعس أبيه بابر عن نصرة
جند فارس فى قتالهم الأوزبكيك عند نخشب أيام إسماعيل
الصفوى ، لولا أخت لطماسب ، تدعى سلطانة خانيم ،
استطاعت بحكمتها ونفاذ كلمتها أن تحبط هذا التدبير كله (١) .
واكره همايون على التظاهر بالتشيع جلبا لمعونة الشاه
الفارسي الذى أمده بأربعة عشر ألفا من الجند ليغزو بهم
بخارى وكابل وقندهار ، على أن يصبح إقليم قندهار بعد فتحه
من أملاك الدولة الفارسية .

واقترح همايون بجنده القزلباش أراضى أخيه كامران ،
فبعد فتحه لقندهار كثيرا فى عزمته ، وبُعثت بذلك الآمال
العزيزة فى نفسه من جديد .

وصدق همايون ما عاهد عليه الشاه طهماسب فسلم المدينة
إلى ابنه مراد خان . على أنه حين طلب أن يأويه وجنده
القبائل إبان الشتاء فرفض ، دفعته قسوة البرد ورجاله إلى

اقتحام المدينة على صاحبها عنوة على أن يردّها له ثانية إذا ما تمّ لهم دخول بدخشان وكابل . وما غدا الأمير الفارسي أن يوافته منيته بعد قليل ، فبقيت المدينة بيد همايون .

وظفق جندهم كثير من قوات كامران تفد إلى همايون في مقامه هذا بعد أن هجروا مضارب أميرهم ، فدخل بهم كابل حبت التقي بابنه أكبر ، وقد بلغ الخامسة من عمره ، وكان قد تركه دون الفطام بقفدهار كما ذكرنا من قبل .

وتبادل الأخوان المدينة مرات عدة حتى انتهى الأمر بكامران إلى الفرار منها ليلتجأ من بعد ذلك عند السلطان سليم شاه سور خليفة شيرشاه . حتى إذا ما اضطره ما قوبل به من جنابه عنده للنزوح إلى السند فاستقر بمنازل البهكر ، بادر في تسليمهم بتسليمه إلى أخيه . ومنع همايون من التنكيل بكامران ما يرضاه به أبوه بابر ، من قبل ، من الرقيق بإخوته ، فسمح له تنسیر إلى مكة المكرمة والاعتكاف بها ، بعد أن سمعت عيناه .

وما لبث عسكري أن سار في أثر كامران إلى الحجاز كذلك ، أن وقع بدوره في الأسر ، لكن الأجل وافاه ، في طريقه ، من الشام . أما هندال ، فكان قد لقي حتفه بأرض كابل حين

كانت قوات همايون تطارده وأخاه كامران (١) .
وهكذا نفّض همايون يده من إخوته جميعا الذين أدوا ،
بتخليهم عن نصرته ومدادهم على الكيد له ، إلى أخرجه
من الهند وضياع كافة الجهود المضنية التي بذلها أبوهم من
قبل في فتح هذه البلاد أدرج الرياح .
وحين أطل على سهول الهندستان من جديد ، آثر أن
يتريث قليلا فلا ينحدر إليها قبل أن يطلع اطلاعا صحيحا على
ما صارت إليه أحوالها .

خلفاء شيرشاه : غدت سلطنة دهلـى تضطرب أمورها
اضطرابا شديدا عقب وفاة شيرشاه . ذلك أن ابنه جلال الذي
خلفه باسم السلطان سليم (إسلام) شرع منذ مستهل حكمه
يسلك طريق العنف مع الأمراء الأفغان ، فقتل فريقا منهم
وألقي بفريق آخر في الحبس ، وبث عيون وجواسيسه في طول البلاد
وعرضها لينبئونه بكل ما يحدث فيها ، فيتخذ من إنبائهم : دون تحرّ
أو روية وتدقيق ، وسيلة للعسف بالقوم والتنكيل بهم .
وهكذا أعاد هذا السلطان سيرة إبراهيم اللودهي مع رجاله من

جذبته . حتى إذا ما ثار عليه عظيم همايون نائبه على البنغال ، لما بلغه من إيفائه بالقائد القدير شجاعت خان نائب أبيه على مالوه ، فغلب البنغالي على أمره ، خرج السلطان من نصره هذا ليعين في ارتكاب المظالم ، حتى صار يتصرف في أموال الدولة وفق هواه المطلق ويعطل أغلب السنن الحسنة التي جرى عليها أبوه من قبل .

وخلفه ابنه الصبي فيروز شاه فوثب عليه خاله مبارز خان ، ولما يعض إلاّ أياماً قليلة على العرش ، ليقته وبضطلع بشئون الحكم باسم السلطان محمد عادل شاه (عدلى) .

واستوزر هذا السلطان هندوكيا على الهمة يُدعى هيمو (هيمون) . لكن كفاءة هذا الوزير لم تستطع أن تُحدّ من ثورات الأمراء الأفغان التي أخذت تجتاح البلاد في عنف بالغ ، وكان من أخطر نتائجها استيلاء إبراهيم شاه سور على عدلى و آگرا ليطرده منها بعد قليل . سكندر شاه سور ويضع يده على الأقليم الواقع بين السند والگنچ كلّه .

وما غدا هيمو أن استرد آگرا لسيّده ، فصارت الهندستان ذلك نهبا لسلطين ثلاثة . فهذا عادل شاه بحكم آگرا ومالوه و جونپور ، وإلى جانبه سكندر شاه تخضع له دهلي والبنجاب ، في حين كان إبراهيم شاه يسيطر على رقعة من الأرض تمتد من

بيانه إلى حدود گواليار^(١).

عودة همايون : رأى همايون في هذه الاضطرابات الفرصة المواتية لاسترداد بلاده ، فانتحم لاهور في ربيع الأول من عام ٩٦٣هـ/١٥٥٥م دون مقاومة تذكر . ليهزم من بعد ذلك جيوش سكندر شاد سوري عند سرهندزيمة حاسمة^(٢) ويدخل دهلي بعد أن اتخذ أميرها سبيله إلى جبال البنجاب فرارا .

ويرد الفضل في انتصارات همايون هذه كلها إلى قائده بيرم خان التركماني الذي أبى دون أغلب رجاله أن يتخلى عنه في محنته ، وقد كافأه أميره علي وفائه هذا بأن ولاه البنجاب مع ابنة أكبر وعهد إليهما بمطاردة ذلك الأمير السورى .

ولم يطل الأجل بهمايون ليحظى ثمار جهاده الطويل الشاق ، فقد انزلت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدهى ، وكان من المرمر الخالص ، ففضى بعد قليل في ربيع الأول من عام ٩٦٣هـ ١٥٦٦م ، وهو في الحادية والخمسين من عمره ، ولما يمض بالهند ،

١ - تاريخ سلاطين أفغانى ٤٥

٢ - طبقات أكبرى ٢٣٨ - وفي هذه الواقعة ، التي بلغت فيها قوات اسكندر سوري أربعة أمثال قوات همايون . شارك أكبر أباه الحرب الأولى مرة .

وقد آب إليها بعد غياب طويل ، سوى شهر ستة .
لم يكن همايون دون أسلافه التيموريين في الشجاعة
والجرأة ، فقد شارك أباه أغلب حروبه وترسم خطاه في التجمل
بالصبر واحتمال الشدائد ، فلم يفارقه جـأـدُهُ وثباته طيلة محنة المنفى ،
إنتى بلغت خمسة عشر عاما ، لولا ما كان يداخله من الغرور
ويقتصه من مضاء العزم الذى قعد به فى الغالب عن الماضى فى
مطاردة أعدائه والإجهاز عليهم ، فكان يقنع بأول ضربة ينزلها
بهم ولا يزيد .

كذلك عُرِف عن همايون شغفه ، كأبيه وأجداده ، بالفنون
والعلوم والآداب . وقد ترك ، فيما ترك ، مكتبة عامرة بالمؤلفات
القيمة لا يزال بناؤها قائما بدهى حتى اليوم . ولولا المنية التى
عاجلته لأتمّ بناء المرصد الذى كان قد شرع فى إقامته هناك .
ومن أسف أنه ورث عن أبيه عادة تعاطى المعجون
(الأفيون) الذى بكسر بنهاية الأب وهدّ من كيان الإبن .

أكبر

وصلت أخبار وفاة همايون إلى ابنه أكبر وهو في كلاتور
بالپنجاب يطارد الثائر سكندر سورى ، فبادر مرافقه القائد الشيخ
بيرم خان إلى المناذاة به سلطانا على الهند، باسم جلال الدين محمد
أكبر (١) ، ولم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة من عمره .
ويُسَمَّى المؤرخون مدة حكم أكبر التى امتدت من
عام ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م حتى عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م إلى فترات
ثلاث : فالفترة الأولى هى التى كان زمام الحكم الفعلى فيها بأيدي
الوزير الشيعى المجرَّب بيرم خان الذى كان خير معين لهمايون
فى منفاه . وأما الفتره الثانية فهى التى حاول فيها بعض نساء القصر
إملاء رغباتهن على السلطان الشاب، وذلك بعد أن أفلحن ، بالدس
والوقيعه والخداع ، فى إبعاد بيرم خان من منصبه بسبب تشييعه
وتقويض ما كان له من نفوذ بالغ . وكانت الفترة الثالثة ، وهى
التى انفرد فيها أكبر بالأمر كئله ، أطول هذه الفترات

١ — كان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ /
مارس ١٥٥٦ م . منتخب التواريخ ثان ص ٨

جميعها إذ امتدت من عام ٩٦٩ هـ / ١٥٦٢ م حتى وفاته
عام ١٠١٣ هـ / ١٦٠٥ م .

وتتعد هذه الفترة الثالثة كذلك من أزهر عصور الهند
التاريخية . ومن أجلها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم ،
السلطان أكبر أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام آشوك (آزوكا)
حامى البوذية في القديم ، كما سلكه المحدثون من كتّاب التاريخ في
عصاف أعظم الملوك الذين عرفهم العالم في عصره طُورًا .^(١)
وكما يقسم المؤرخون مدة حكم هذا السلطان إلى فترات ثلاث
نذلك يسلكون غزواته وفتوحاته في أدوار ثلاثة :

الدور الأول ، ويبدأ من عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م حتى
عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٦ م .

وفيه بسط أكبر سلطانه على الهندستان كلها .

الدور الثاني ، ويبدأ من عام ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م حتى

عام ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م .

وفيه تم له تأمين حدوده الشمالية الغربية ومناطقها التي تعد

أخطر أبواب الهند ، فهي منفذ الغزاة الفاتحين إلى سهل السند

والسنج منذ القدم .

الدور الثالث ، ويبدأ من عام ١٠٠٦هـ / ١٥٥٨م حتى عام ١٠٠٩هـ / ١٦٠١م وهو الذي طفق أكبر يتوغل إبانته بالذكّن حتى تم له ضم أغلب مناطقه للملكة .

والواقع أن الهندستان ، حين جلس أكبر على عرشها ، كانت تفيض بالاضطرابات . فأمرأ أسرة سوري ، خلفاء سيرشاه ، كان منهم سكندر شاه بالپنجاب يتحفز للأنتقاض على دهلي وآگرا واسترداد الأراضى التى أخرجته همايون منها ، فى حين استقر محمد عادل شاه سوري فى چنار بعد أن أخرجته ابراهيم خان سوري من دهلي ، وبعث بقائده الهندوكى هيمون على رأس قوات كثيفة وقف بها غير بعيد من العاصمة فى ارتقاب الفرصة المواتية لاستردادها من جديد ، هذا كما كان هناك أمراء آخرون من آل سور يستأثرون كذلك بالأمر كله فى البنغال .

ولم تكن أسرة سور هذه هى وحدها التى تهدد سلطان أكبر بالهند ، فإن ميرزا حكيم ، أخا أكبر ، كان قد أعلن استقلاله بكابل ، أرض الرجعة لسلطين المسلمين بالهند وطريق الإمدادات إليهم التى كانت تمدّهم : جارى فى بلاد ماوراء النهر الأشداء ، ثم أخذ من بعد ذلك يرنو ببصره إلى أرض الهند نفسها

ويستأج إلى الجلوس على عرشها .

وتنانت ولايات السند والملتان وكشمير قد انفصلت عن
سندن دهلي بدورها لسنين خلت ، في حين راح الأمراء
الراجبوتيون ، في موار وحسالير وبوندي وجندهور ، يغتمون
ما اتاحه لهم اضطراب الأحوال من فرص لاستعادة الكثير
من سلطانهم القديم ونفوذهم ، واستردت مالوه والكجرات
استقلالها الضائع وثبتت أمراء الدكن المسلمون أقدامهم في
بلادهم من جديد ، في خاندش ، وبرار وييدر وأحمد نگر
وبيجابور وغولكونده .

ومن وراء أولئك وهؤلاء جميعاً كان الأمراء الهنادكة ،
أصحاب إمارة ثيايانگر في الجنوب ، يجهدون في المحافظة على
استقلالهم من إعتداءات جيرانهم أمراء الدكن المسلمين .

وكان البرتغاليون بدورهم يقيمون في حصونهم القوية في جوا
وتورا على شاطئ الهند الغربي بعد أن خاضوا غمار معارك
جارية عنيفة ضد سلاطين الكجرات المسلمين وأعوانهم من
سلاطين المهاليك المصريين والعثمانيين .

ونتيجة عن انتصار هؤلاء المستعمرين أن اشتد خطرهم وتفاقم
تأثيرهم في مناطق الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي

وعند منافذ البحر الأحمر حتى اقتربوا من شواطئ الحجاز
وراجوا يهدون طرق التجارة الهندية والحجّ الإسلامي إلى
البيت الحرام (١).

حرب آل سور : رسم أكبر ورجاله خطتهم على أن يعملوا
أولا على التخلص من آل سور ، خلفاء شير شاه ، الذين كانوا
يجهدون لاسترداد عرش الهند . وفيما كان جند الدولة يجهد في
في مطاردة سكندر شادسور بالپنجاب هاجم هيمون قائد محمد عادل
شاه سور مدينة آگرا في خمسين ألف من الخيل وخمسمائة من
الفيول .

وكان هذا القائد الهندوكي ، الذي يشتهر في كتب التاريخ باسم
البقال (٢) ، قد تم له من قبل دحر إبراهيم شاه سور ، بالقرب من
دهلي ، وكاد يقتحم عليه مقله في بيّسانه لولا ما كان من زحف
سكندر خان صاحب البنغال على أملاك عادل شاه في جونپور

١ — انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢١١ ، ٢١٢ .

٢ — كان هيمون في أول أمره بقلا بدينة روارى باقليم موات ثم عهد إليه
بمراقبة الأسواق حتى صار مديرا لإمدادات الجيش ، غير أن لقب بقال لحق به طول
حياته . ومازك يرتقى حتى بلغ مرتبة القيادة وصار وكيلا (وزيرا) للسلطان محمد
عادل شاه الذي كان يشتهر بين العامة باسم عدلى (طبقات أكبرى ص ٢٤١)

وكالبي . وما إن تم لهيمون دفعُ قوات البنغال عن أراضي أميره حتى افتحم حصن آگرا وأرغم سكندر أوزبگك قائد أكبر هناك على الارتداد إلى دهلي .

هنالك بادر أكبر من فوره بتسيير قائده عليقلي خان زمان إلى دهلي لمؤازرة تردى بيگخان ورجاله في الدفاع عن هذه المدينة وصد جحافل هيمون عنها ، فلم تبلغ الإمدادات مكان المعركة إلا بعد فوات الفرصة .

فلقد تمكن رجال الميمنة المغولية من دفع جناح العدو المقابل لهم أول الأمر ، إلا أن هيمون استطاع بقواته الرئيسية في القلب أن يدحر القائد المغولي تردى خان حتى بادر بالانسحاب من الميدان دون أن يفتن إلى عدول خصمه عن مطاردته ، فقد فتَّ في عضده تأخر وصول الإمدادات إليه من جهة ، وعظم قوة عدوه من جهة أخرى .

واتخذ هيمون لنفسه على أثر هذا النصر لقب بكرماديت (فكرماديت) (١) الهندوكي القديم ليعلن بذلك عزمه على

١ — وهو من الأبطال الذين يمجدهم تاريخ الهند القديمة وأساطيرها على السواء . وكان قد أخرج البيه والسكا من الهند ووحدها تحت حكمه (الجزء الأول ص ٣٢ ، ٣٣)

إحياء أجداد أمته القديمة ومناهضته للإسلام والمسلمين . فلم يكتبف بإهمال شأن سيده عادل شاه، حتى راح يضرب السكة باسمه ويولى خاصته ورجاله مناصب الدولة وشئون الولايات .

وبرغم عنف المجاعة التي كانت ما تزال تجثم على دهلي وآگرا وبيانه وماحولها حتى طعم الناس الجسيفَ وهلك خلق كثير ، فإن هيمون لم يتردد عن مطاردة قوات أكبر حتى ميدان پانی پت ، وهر الميدان الذي انتصر فيه ظهير الدين محمد بابر بقواته القليلة على حشود الهند الكشيفة لثلاثين عام خلت .

وهال رجال أكبر كثرة قوات هيمون، التي كانت تبلغ مائة ألف من الجند وخمسمائة من الفيول ، بالقياس إلى ضالة قواتهم التي لم تكن تعدو عشرين ألفا ما بين فرسان ومشاة ، حتى أشار أغلبهم بالارتداد إلى أرض كابل . لولا إصرار السلطان ووزيره بيرم خان على القتال .

هنالك عهد أكبر إلى صهره خضر خان بمواصلة قتال سكندر سور . ثم خرج هو على رأس قواته للقاء الأمير الهند وكى وعصبتة . استطاع هيمون أول الأمر أن يكتسح جنناحتي جيش أكبر، برغم سقوط مدفيعته بأيدي عدوه ، غير أن سهما أصابه فألقى به من فوق فيله الذي كان يُدعى «الخوا» ، تخنفة حركته البالغة .

وحين طلب إلى فيّاله أن يسير به وبدايته إلى خارج الميدان توهم
بخطه ووقوع الهزيمة بهم ، فانقرط عقدهم لساعتهم وتفرق شمامهم
بوقوع هيمون نفسه في الأسر . وفي هذه الوقعه لقي كثير من
الإمراء الأفغان حتوفهم .

وأبت على أكبر شهامته أن يستجيب لوزيره بيرم خان ، حين
أشار عليه بقتل أسيره ، محتجا بأنه ليس من المروءة التنكيل
بأعزل جريح " ، غير أن الوزير وثب على هيمون وقتله ، ثم بعث
برأسه إلى كابل وبجثته إلى دهلي ليرى العصاة في مصير صاحبها عبرة
لهم وعظة .

ودخل السلطان المنتصر دهلي من جديد ، فاستقبله الأهليون
على اختلاف طبقاتهم بحفاوة بالغة . وما غدا أن أقبل عليه
بير محمد شرواني ومعه أموال هيمون وما كان بخزائنه في موات
من نفائس ، وفي ركابه خاصة أتباعه وأهل بيته .

وفتت هزيمة ذلك القائد الهندو وكى الكبير ومقتله في عضد
أمرء أسرة سور ، ونال اليأس من نفوسهم منالا شديدا ، فما
إن خرج أكبر إلى لا هور فبلغ جالندهر حتى رجع سكندر سور
من تلال سيوالك إلى حصن ما نكيت فاعتصم فيه . حتى إذا

ما قدم أكبر ومدفعيته فشدّد الحصار عليه ، لم يجد بُدّاً من طلب الصلح ، مع التعهد بالولاء التام للسلطان ، على أن يُسمح له بالمسير إلى البنغال في أمان .

وحفظ أكبر على هذا الأمير كرامته فولّاه بهار وخرید في الشرق ؛ فلبث بها حتى وافته منيته بعد عامين .

أما عادل شاه سور فقد اقتحم عليه مقرّه في چنار ، خضرخان وإخوته فدحروا قواته وقتلوه انتقاماً منه لمقتل أبيهم محمد خان بنغالی بظاهر آگرا .

وحاول شیر شاه الثاني بن عادل شاه هذا أن يستحوز على جونپور بعد مقتل أبيه ، لكن خانزمان قائد أكبر تصدى له ودحره وضم كل أراضيه إلى أملاك الدولة .

أما إبراهيم شاه سور فقد زينت له بعض القبائل الأفغانية الإستيلاء على ولاية مالوه . حتى إذا أخفق في هذا الأمر انطلق إلى ولاية أوريسه في إقليم البنغال فبقي بها حتى عام ٩٧٥ هـ / ١٥٦٨ م حيث اتى مصرعه على أيدي القائد المغولی سليمان كیرانی . (١)

وعرف الپادشاه لوزيره بیرم خان همته وحزمه في القضاء على آل سور . خلفاء شیرشاه ، على الخصوص ، فأنعم عليه بلقب خان

حانان (أمير الأمراء) وجعله وكيلا للسلطنة وزوجه ابنة أخته .

والحق أن هذا الوزير المجرّب بذل جهدا صادقا في تصريف شؤون الدولة على أحسن وجه ، كما نظم الإدارة ، وبعث بالجند ففتحت كراچال و آچمير واقتحمت جونپور وأمنت الحدود الشمالية الغربية ، فأمكن بذلك لسلطنة دهلي أن تستعيد أغلب الأراضى التى كانت لها أيام بابر . وعمل كذلك ، وهو فى غمرة مشاغله الكثيرة ، على تنقيف السلطان الشاب ، وحصنه دواما على طلب العلم والتزود بالمعرفة .

غير أن هذا الوزير الشيعى طفق يحابى أبناء مذهبه ويخصهم بالمناصب الرفيعة فى الدولة ويمعن فى اضطهاد السننيين جملة ، أصحاب الغالبية بين مسلمى الهند ، مستغلا فى ذلك حادث اندحار القائد السننى تردى بكخان أمام القائد الهند وكى هيمون فى معركة دهلي ، حتى فاضت النفوس بالسخط الشديد عليه .^(١)

واستغلّ نساء القصر ، وعلى رأسهن حميدة بانوييگيم

١ — ايس هناك ما يؤيد ماذهب إليه بداونى « منتخب التواريخ حانان ص ١٤ »
حصول بيرم خات على أمر صريح بقتل تردى بك بسبب هزيمته . وقد أثار فتنة بيرم
خان هذه نفوس رجال البلاط Muslim Rule. 316

أمّ السلطان وما هم أنكه مرضعته ، ما كان من تضييق الوزير على السلطان في النفقات وما أشيع من ميله سرّاً إلى أبي القاسم ابن كامران ^(١) ، الذي كان يطمع في الجلوس على عرش الهند ، فَرُحِنَ يحرّضن أئبر على إبعاد مستشاره الداهية عن منصبه .

وأحسنّ بيرم خان بدوره بنفور أكبر منه فَعَقَدَ النيةَ على الابتعاد عن البلاط بالسير إلى البيت الحرام . حتى إذا ما بلغه تسيير السلطان الجند في أثره ، خفاقة أن يستحوذ على البنجاب ، على مادس الدساسون ، استبد به الغضب فأعان عزمه على مناهضة قوات الدولة ، غير أنه وقع في الأسر . وقد عني عنه أكبر على كل حال وذلك لسابق أياديه وعظيم خدماته ، وسمح له بالانطلاق إلى الحج .

وفيما كان بيرم خان يجتاز الكجرات عام ٩٦٨ هـ ، في طريقه إلى البيت الحرام ، اغتاله أفعانى ، يُدعى مبارك خان لوحانى ، كان أبوه قد لقي مصرعه على يديه . وعلى أثر مقتله

١ - هو ابن غولاً كبير

٢ - منتخب التواريخ ثان ص ٣٣

احتضن أكبر ابنه عبد الرحيم ببلاطه وكان إذ ذاك في الرابعة من عمره ، فإزال يرعاه حتى بلغ أكبر مناصب الدولة .

هكذا تخلص أكبر من نفوذ وزيره الشيخ ليقع تحت تأثير حاضنته الداهية ، على الأخص ، حتى كان لا يبرم في الغالب أمرا دون رأيها . وطفقت هذه السيدة تعهد بمناصب الدولة إلى أتباعها وفق هواها وترفع من مقام ابنها أدهم خان ، وإن لم تستطع أن تباع به الوزارة على كل حال .

على أن أكبر ما غدا أن تكشف له خطورتها بمد قليل عليه فأخذ يراقب ساوكها وعصبتها بعين اليقظة والحذر . فحين بعث بأدهم خان ومعه پير محمد شرواني لفتح مالوه فدخلها عام ٩٦٧ هـ / ١٥٦٠ م ، بعد أن هزما بازبهادر بن شيناعت خان خاصة خيل نائب شيرشاه السابق عليها ، فلم يصل إلى آگرا من غنائم الفتح إلا القليل ، دفعته الريبة في سلوك قائده هذا إلى أن يفاجئه بظهوره هناك ليطالع بنفسه على ما بحوزته من أسلاب ضخمة ، ولم يملك أدهم خان عند ذلك إلا أن يدعى بأنه كان بسبيل إرسالها إلى العاصمة .

وانفرد پير محمد شرواني بالحكم في مالوه على أثر استدعاء أدهم خان إلى آگرا لينطلق من بعد ذلك إلى أعمال السلب

والنهب والتخريب في كافة المناطق المجاورة لإمارته حتى شواطئ نهر زربدا الجنوبية ، فلم ينج من أذاه مسلم أو هندوكي أو مسجد أو معبد ، حتى اجتمع الأهلون عليه ليتاح لآهيريهم السابق وأصحابه استرداد بلادهم بمعوتهم من جديد ، وما زالوا يطاردون نائب أكبر هذا حتى لقي حتفه غرقا في نهر زربدا وهو في طريقه إلى ماندو فرارا (١) .

وما غدا الپادشاه أن بعث بقائده عبد الله خان أوزبگك بعد قليل فاسترد هذه الولاية من جديد . وقد لاذ بازبهار بيلاط اُدای سنغ ، أحد امراء مروار ، ثم ما لبث أن سعى إلى التماس الصفح من الپادشاه فأجيب إليه .

كذلك لم يمنع حرّ الهند أكبر من أن يسير إلى جونپور فيفاجىء عامله هناك عليقلی خان الأوزبگى بدوره ، كما فاجأ أدهم خان بمالوه من قبل ، ويردّه إلى طاعته .

ذلك أن هذا القائد ، بعد أن تم له رد جموع الأذغان التي التفتت حول شيره شاه الثانى بن عادل شاه سور بمحصن چنار نخرجت تبغى الاستيلاء على جونپور ، بدا من تصرفاته وعصبته من الأوزبگك ، الذين كانوا في رعاية بيرم خان من

عبل ، ما أثار الريب في نفس الپادشاه حتى خرج إليهم بنفسه .
ثما إن غادر كالبی فباع قره حتى جاء إليه عليقلی خان وأخود
هادر خان فجدد له الولاء وإن عاود العصیان بعد ذلك
يبضع سنين .

باغ أكبر في هذه الأثناء مبلغ الرجال ، وغدا يدرك مدى
خطورة المسئوليات التي يلقيها عليه منصبه ، فاتخذ له وزيراً من
رجال أبيه الأكفاء المخلصين ، هو شمس الدين محمد أتسکه . حتى
إذا ما ثارت عصبه ما هم أتسکه ، مرضعة الپادشاه ، لهذا الإجراء ،
ورأت فيه ما يحمد من نفوذها ، فبرز أدهم خان بن ما هم أتسکه
في زمرة من رجاله فوثب على الوزير وهو يؤدي فريضة الصلاة
بالبلاط فقتله ، باغت أكبر القاتل وقبض عليه بنفسه ثم أمر
فقذف به من حائق حتى هلك ، وماعدت أمه أن لحقت به كمدا
بعد قليل .^(١)

تقريب الهنادكة : هكذا قضى أكبر القضاء التام على
دسائس نساء القصر ومن سار سيرتهم إثر مقتل وزيره ليبدأ

بذلك عهداً جديداً في حكم الهند . ذلك أن بصيرته قد هدته إلى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعاً مسلمين وهنادكة تحت رايته ، ففطن في سبيل تحقيق هذا الأمر ، يقرب زعماء الهنادكة وأمرائهم منه ويفتح لهم أبواب بلاطه ويعهد إليهم بالمناصب الرفيعة مدنية وعسكرية على السواء . فكان من أصهر إليهم من كبارهم راجا بيهر مل أمير جاينپور الراجپوتى ، كما كان من قديم المناصب الهامة راجا تُدر مَلّ ، الذى خلف خواجه ملك اعتماد خان ، فسار في شئون الدولة المالية على الخطة الحسنة التى كان اختطها شيرشاه فى إصلاحاته . من قبل ، بعد أدخل عليها قدرا من التعديلات والتحسينات .

كذلك رفع أكبر الجزية ، التى كانت تُفرض على الهنادكة والرسوم التى كانوا يلزمون بها عند الحجيج إلى مقدساتهم ، فغدا رعاياه جميعاً على قدم المساواة فيما يلزمون به من واجبات وما يتمتعون به من حقوق . وكان صنيعه هذا كله هو البداية العملية لتحويل الهنادكة وأمرائهم من أعداء للدولة إلى خدام لها وحياة لأراضيها .

حروب الشمال والوسط : التفت أكبر إلى الفتوحات على نهج أجداده ، فاندفع فى حروب وغزوات تكاد حلقاتها

تتصل حتى عام ١٠٠٩ هـ / ١٦٠١ م لينتهي بذلك إلى تدعيم ملكة من جهة وتوسيع رقعة دولته من جهة أخرى :

غوندوانا : تبدأ هذه الفتوحات بغزو غوندوانا إحدى إمارات الوسط ، وكانت تحكمها ملكة هندوكيشة تدعى راني دركاوتي وصية على ابنها الصغير برزايان ، وقد اشتهر اسم هذه المملكة في التاريخ لاستماتتها في الدفاع عن بلادها حتى سقطت في ميدان الشرف .

و حين استبان لابنها الصغير بدوره استحالة الوقوف في وجه أصاف خان قائد القوات المغولية آثر تناول السم (الجوهر) على التسليم لأعدائه فلحق بأمه .

وعوق من خطة أكبر في الفتوح ، بعد ما أصابت قواته أسلابة كثيرة في غوندوانا ، ما كان من انتفاض الأوزبك ، رجال ييرم خان القدامى عليه . ولئن انتهى الأمر سريعاً بعبدالله خان الأوزبكي إلى طرده من مالوه بعد هزيمته حتى لجأ إلى الكجرات ، فإن عصيان أخيه عليقلي خان زمان في جونپور وما حولها ، حتى جهر بخلع طاعة أكبر والدعاء لأخيه حكيم مكانه ، قد اقتضى من السلطان الكثير من الوقت والجهد لئتم له القضاء عليه .

ذلك أن أكبر لم يكبد يمضى فى مطاردة قوات الشائر
الأوزبكي ، حتى بلغه مهاجمة أخيه للنجاب ، بتحريض من
الأوزبكيك بعد أن طرده سليمان شاه صاحب بدخشان من
كابل ، مستعينا فى ذلك بالقوات التى كان أخوه قد بعث
بها إليه لتجدته .

ولم يكن الپادشاه ليغفل عن أهمية المركز الاستراتيجي لمنطقة
الحدود الشمالية الغربية التى تعتبر باب الهند ، فبادر من فوره برد
أخيه وقواته عنها كلها بعد أن كانوا قد دخلوا لاهور .

وما غدا حكيم خان أن استرد حاضرتة كابل من أيدي
سليمان شاه واستقر بها ، ليعود أكبر من بعد ذلك مسرعا إلى
المناطق الشرقية ثانية ، فإيزال يطار دالشائر الأوزبكي وعصبتة حتى
التجم بهم عند ما نيسكپور حيث سقط خانزمان فى الميدان ، فى
حين استسلم أخوه بهادر خان وفريق كبير من بنى جلدتهم فأوردوا
جميعا مؤرد الردى ^(۱)

واستبان لأكبر أنه لن يصير له السيادة على الهندستان كله
إلا إذا تم له اخضاع حصونه الكبرى التى مايزال فريق من

الأمراء الراجپوتين يسيطرون عليها ويعتصمون بها .
چتور : يُعد حصن چتور أمنعَ هذه المعاقل جميعا ، إذ
كان يقوم على سلسلة من الاستحكامات القوية تمتد لمسافة أميال
ثمانية على نُتوء من الصخر يبرز على ارتفاع شاهق في السهل .
وكان صاحبه أوداى سنغ رانا قد غدا يأوى عنده فريقا
من الخارجين على سلطان أكبر من أمثال بهادرخان أمير مالوه
السابق ، فضلا عما كان يسديه من العون ويذله من التضديد
لأبناء عمومة الپادشاه من الطامعين في ملكه .^(١)

ولم تمتنع هذه المعاقل على جند الدولة برغم وعورة إمسالكها
واستماتة جاي مل وفتح (بتا) سنغ قائدى الأمير الراجپوتى
ورجالهما فى الدفاع عنها بعد أن لاذ سبيدهم وأسرتة بالجبال . فقد بلغ
من عزم المدافعين . حين رأوا زمام الأمر يقلت من أيديهم ، أن
عمد نساؤهم وشيوخهم إلى قتل أنفسهم بأيديهم ، فهمم من جرع السم ،
ومهم من عرض نفسه على نيران المواقد . ثم فُتحت أبواب
الحصن من بعد ذلك لتتطاق الحامية منه فتشتبك مع مهاجميها فى قتال
وحشى عنيف قى فيه أغلبها ^(٢) .

١ — تاريخ النى ١٧٠ — ١٧٤

٢ — منتخب التواريخ ثان ١٠٤

وأثار ما أظهره الراجبوتيون من ضروب البسالة إعجاب أكبر حتى احتفظ بتمثالين قيل إنهما للقائدين الهندوكيين (۱) . والحق أن هذا البادشاه المغولى كان ممن يقدرون شجاعة الشجعان حق قدرها حتى رأيناه فى مواقف كثيرة يحفظ على الأبطال من أعدائه ، حياتهم ويحيطهم بالرعاية والإكرام .

وكان من أثر حسن صنيع أكبر هذا ، لا سيما مع الأمراء الراجبوتيين ، أن طفق كثير منهم ينضم إلى صفوفه ويوثق من صلانه معه . وكان من بين هؤلاء راجا بيكانير وجيسلمير ثم بها رمل راجا أمبر وابنه بهگوان داس وحفيده من سنغ وقد صحبوه جميعا إلى آگرا وأصهر إليهم فيما بعد .

على أن راي براتاب ، حين خاف أباه أوداى سنغ فى إقاييم موار ، عاد يرى فى توثيق الصلات بين الأمراء الراجبوتيين وسلطان المغول خطرا شديدا قد يؤدى إلى القضاء التام على أمجاد بنى جنسهم وما بذله أسلافهم من أمثال جده رانا سنكا من تضحيات وما خلدوه من صفحات البطولة الرائعة دفاعا عن شرف عنصرهم . فنصّب نفسه للدفاع عن تراث الهنادكة وماضيهم التليد ، ومن ثم طفق يستنهض من همم أقرانه ويعمل على إثارتهم

وتحريرهم على مناهضة الدولة . وقد بنى خطته على تحصين حدوده و حدود حلفائه ثم إطلاق عصابتهم جميعا من بعد ذلك لتقض من مضاجع صاحب آگرا .

ولئن كان أكبر قد سير قوات كثيفة من جنده لتكتسح إقليم مواركله ، فإنه لم يتيسر له تحقيق غايته على التمام برغم ما أحرزه من انتصارات متكررة على رانا براتاب وابنه أمر سنغ .

رنتنهپور : لم يكد الپادشاه يفرغ من حرب چتور عام ۱۵۶۷/۵۹۷۵ م حتى أخذ يعد العدة لافتحام حصن رنتنهپور ثانی قلاع الهندستان الكبرى ، فسارت قواته إلى هناك في العام التالی ليلحق هو بها بنفسه في رمضان من نفس السنة .

وحین رأى رای سورجانا ، صاحب الحصن ، أعداءه يبلغون بمدافعهم أعلا تل يواجه معقله المنيع فتنهال قذائفهم عليه ، بادر ، بوساطة من بهگوان داس و من سنغ اللذين كانا في صحبة الپادشاه ، إلى إعلان خضوعه واستسلامه ، نفلع أكبر عليه وعلى ولديه ، وما غدا بعد قليل أن أقامه على إقليم بنارس ، كما عهد إليه بقلعه چتور .

وأدى سقوط حصنى چتور و رنتنهپور إلى تيسير مهمة الحملة التی كان السلطان قد بعث بها للاستيلاء على حصن كلنجر في

بند لخاند وهو في طريقه إلى ثانی القلعتین سالفی الذکر . وصار أمر راجا چندرا صاحب هذا الحصن إلى أن أقطع إقطاعا على مقربة من أحمدآباد .

وباستيلاء أكبر على هذه الحصون الثلاثة المنيعة رستت أقدامه وتعززت حدوده . وأدى ما سلكه مع أصحاب هذه الحصون، حين استسلموا إليه ، من طريق المودة والرفق، فصحبهم إلى بلاطه في الغالب وأجرى عليهم رزقا حسنا وعهد إليهم بقدر من مناصب الدولة ، إلى أن ركن أغلب الامراء الهنادكة إلى السلم وطفقوا يساهمون معه في بناء الدولة بهمة بالغة وإخلاص (۱).

وفي ذلك الوقت رُزق أكبر بابنه وولي عهده الامير سليم ، الذي يُعرف في التاريخ باسم جهانگیر ، من أم هندوكية هي ابنة بهار مل راجا جيبور وكان قد بنى بها عام ۱۵۶۲ / ۵۹۶۹ م .

وعلى أثر مولدهذا الأمير عام ۱۵۷۹ / ۶۹۷۷ م انتقل الپادشاه بحكومته إلى مدينة سِكرى ، عند حدود الراجپوتانا من ناحية آگرا ، فاتخذها حاضرة له وسماها فتحپور ، فلم يهجرها إلى آگرا

إلا حين انهيار خزان المياه بها عام ١٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م
تشمسها الماء .

وكان مما حجب إلى أكبر النزوح إلى هذا المكان ، قيام
ولي صالح به يدعى سليم چشتى كان قد بشره وتنبأ له بمولد ابنه
هذا بعد أن مات له الأطفال كثيرون من قبل . وبلغ من تعلّق
السلطان بهذا الشيخ أن بعث بزوجه هذه حين أظهرت عليها بوادر
الحمل فأقامت إلى جواره ، حتى إذا وضعت حملها أطلق على
المولود اسم الولي تبركا . وفي رحاب هذا الشيخ ولد أكثر
أولاد البادشاه .

وعنى أكبر بتعمير هذه المدينة عناية بالغة حتى لتعد
منشآته بها من أروع نماذج العمارة الهندية الإسلامية . وكان من
بين هذه المنشآت الفخمة المسجد الجامع ، الذى أقيم على طراز
أبيت الحرام ، ثم ضريح الولي سليم چشتى ، وجملة من القصور أجاد
المعماريون فى تصميمها كما أبدع النقاشون فى زخرفتها وترصيعها
بمختلف الزخارف والتصاوير (١) .

وأعظم آثار أكبر بهذه المدينة هى بُسْتَنَدُ رِوَاذِهِ (البوابة

الكبيرة) التي أقامها تذكارا لانتصاراته في الكجرات ، ذلك الإقليم الذي تم لأبيه همايون إخضاعه لسلطانه قبل إخراجهم من الهند ، والذي يعد ، إلى جانب خصب تربته ووفرة زراعته ، عظم مراكز التجارة الهندية . فمن موانيه ، بروج وسورات وكبای ، كانت السفن تبخر وعليها منتجات الهند التي كان يتهاوت عليها سكان العالم منذ القدم ، حتى لم يقتحم غاز من الغزاة أسوار الهند إلاّ وكان في حسابه دخول هذا الإقليم ، ومن بين هؤلاء كان محمود الغزنوي الذي أسراه موقعة وطيب هواته حتى جرى بخاطره أن يتخذها مقاما دائما له وقاعدة يدير منها دولته الهندية الجديدة .

فتح الكجرات : كان مظفر شاه الثاني آخر سلاطين الكجرات ، الذي خرج إليه أكبر في ربيع الثاني من عام ٩٨٠ هـ / ١٥٧٢ م ، ضعيفا خاملا ، اجتمع عليه نفر من رجاله فسلبوه كل نفوذ ، تم ما غدا نفر منهم أن انتهز فرصة الفوضى التي كانت تسود الدولة في عهد فراح يسعى إلى الاستقلال بما بأيديه من إقطاعات .

واستسلم سلطان الكجرات من فوره للبادشاه الذي أجرى عليه رزقا حسنا . وحذا حذوه كثير من رجال الكجرات ،

لينطلق أعظم عزيز كوكا قائد أكبر ، من بعد ذلك ، ومعه إمدادات من مالوه وچندري ، ويطارد إبراهيم حسين ميرزا ابن عم الپادشاه وفريق من الأمراء التيموريين العصاة الذين كانوا يقيمون هناك ، فما زال بهم حتى أخرجهم من سورات . على أن أكبر لم يكفد يعود إلى سيكري فتحپور حتى ارتد الكجراتيون إلى العصيان من جديد ، فلم يرجع عنهم هذه المرة إلا بعد أن استخلص من أيديهم مدينة أحمد آباد ودخل كباي وبارودا ، كما اقتحم حصن سورات المنيع الذي طالما استعصى على البرتغاليين ودفع خطرهم عن المنطقة كلها .

وفي هذا الحصن ، الذي كانت أسواره يصل سمكها إلى ما يزيد على أمتار أربعة مسلحة بالحديد ، عثر الپادشاه على قطع من المدفعية تحمل اسم السلطان العثماني سليمان القانوني ، فهي بقايا من آلات أسطوله البحري الذي كان قد بعث به لمعاونه سلاطين الكجرات في دفع خطر البرتغاليين عنهم^(١) .

ورجع أكبر من هناك في منتصف عام ٩٨١ / ١٥٧٣ م بعد أن عهد إلى وزيره تدرمل ثم شهاب الدين احمد خان من بعده بتنظيم شئون هذا الإقليم الغني الذي كان خراجه يُعَدُّ

من أهم موارء الدولة .

وظلت الأمور فى هذا الإقليم تميل إلى الاستقرار حتى أتى سىء لمظفر خان أن يجمع قوات جديدة سقط بها عام ٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م على أحمد آباد فدخلها كما استولى على كىبأى وباردوا قتم له بذلك السيطرة على أغلب الكجرات ، حتى سىر إليه الپادشاه قائءه عبد الرحىم خان خانان بن بىرم خان فردّه عن كئىر مما وقع بأىديه من أرضىن ، وما زالت قوات آكرا تطارءه من بعد ذلك حتى استسلم إليها عام ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٢ م لىقتل نفسه من بعد ذلك بموسى كان يخفىها فى ثىابه .

وقء عهد أكبر إلى ثانى أبناؤه مراد بشتون هذه الولاية التى صارت جزءا من أراضى الدولة وبقيت فى حوزة السلاطين المغول قرابة قرنىن من الزمان .

هذا وكان البادشاه قد صادف بالكجرات البرتغالىىن لأول مرة . وكانوا فئة قليلة قءمت لشد أزر مظفر خان فى حربته معه ، فلم يتعرض لهم بسوء ، واكتفى بأن أخذ عليهم موثقا بالآلآ يتعرضوا لحىجاج البيت الحرام حين يخرجون من موانىء الهند التى كانوا يسيطرون على مسالك أغلبها (١) .

وقد أشرنا من قبل إلى صلة البرتغاليين بالسكجرات وكيف
نسرّبوا إلى بعض موانئها بعد معارك بحرية شديدة ساهم فيها
ناصريون والعثمانيون بنصيب كبير (۱).

غزو البنغال: بيّنا فيما سلف كيف اتخذ شير شاه من البنغال وما
جاورها قاعدة لحملاته التي انتهت إلى إخراج همايون شاه من
الهند. ولبث هذا الأقليم في حوزة أمراء من الأفغان حتى انتزعه
من أيديهم سليم خان كراني صاحب بهار في عهد سليم شاه
سورى . وجرى هذا الأمير على إعلان ولائه الإسمى للدولة
المغولية ، حتى إذا ما خلفه ابنه بايزيد فقتله وزراؤه بعد قليل ،
جاء أخوه وخلفه داود ليغريه ما بخزائمه من أموال كثيرة وما
تهياً له من جند كثيف على مهاجمة أراضى الدولة المغولية الشرقية
وتخفيفها حتى بلغ بقتة وخرّبها .

ولئن كان أكبر قد خرج إلى هذا الناثر بنفسه عام ۹۸۲ هـ /
۱۵۷۵ م حتى بلغ بنارس فاقتمهما على صاحبها كما استولت قواته
بدورها على بقتة ، فإن قائده منعم خان رضى آخر الأمر بالصلح
مع خصمه بفعل ما كان بينه وبين أبيه من صداقة قديمة ، وأقطعه

إقليم أوريסה برغم معارضة زميله تدرمل . وما غدا داود ، حين بلغه وفاة نائب أكبر هناك بالهيضة ، أن انطلق يسترد أراضيه السابقة ، حتى أوقع به خان جهان نائب السلطنة الجديد فقضى عليه في ساحة راجا محل في ربيع الثاني من عام ١٥٧٦ / ٩٨٤ م . وبمقتله قضى على استقلال البنغال الذي لبثت تنعم به قرابة قرنين ونصف القرن .

على أن خان جهان لم يكذب يقضى عام ٩٨٧ هـ / ١٥٧٩ م . حتى خلفه مظفر خان تربي ليؤدي ما فرضه على أصحاب الأراضي من ضرائب عالية لصالح بيت المال إلى ثورة هؤلاء الملاك . وأدى إلى اتساع نطاق الفتن ، حتى شملت البنغال وجونپور كلها ، فنور أغلب العلماء ورجال الدين المحافظين هناك من الدراسات الفلسفية واللاهوتية التي كان البادشاه يمارسها وما بلغهم من انصرافه إلى التفكير في ابتداع مذهب جديد يذيب فيه عقائد الهند كلها ويجمعها على التوحيد ؛ حتى لم يتردد مُسلا محمد يزدى ، قاضى جونپور ، أن يفتي بوجوب حرب السلطان لما استجدته من بدع تزعم بناء الإسلام في الهند .

وبلغ من عنف الثورة هناك أن قُتل ظفر خان نفسه نائب أكبر هناك كما اضطرت قوات البادشاه التي كانت قد قدمت من

يهي إلى الاعتصام وقائدها تُدمرمل في حصن مسنفر ، حتى جاء
ميرزا عزيز كوكا ففضى على تمرد باب خان وعشائره الجغتائية
بالبنغال ، لينطلق من بعد ذلك قائده بازخان إلى بهار فيرغم معصوم
في نخودی زعيم الثوار هناك على الفرار إلى تلال سوا لك بالبنجاب
ثورة ميرزا حكيم : كان من نهج ثوار المناطق الشرقية من

افغان وأوزبك أن يعمدوا في الغالب ، وهم في غمرة العصيان ،
إلى إثارة القلاقل والفتن بأيدي أبناء جلدتهم عند حدود الدولة
العربية والشامية الغربية تخفيفا لضغط قوات السلطان عليهم .

ولم يكن ميرزا حكيم خان ليقعد بدوره عن الإستجابة لهؤلاء
الثائرين ، وهم الذين دأبوا على التاويج له بعرش آگرا إذا
ما غاوتهم على التخاص من نير أخيه الجالس عليه . وقوى في
تضد هذا الأمير هذه المرة . على ما عرف وعنه من خور في
العريضة وإنكباب على الشراب . ما كان من انضمام فريق من
مئة أكبر من طلاب المغامرات إلى صفوفه ، حتى خرج عام
١٥٨٣ م . إلى البنجاب فدخل لا هور وانهب ما حولها
من أرضسين .

وما غدا أكبر أن أسرع إلى هناك في خمسين ألف من الفرسان
وخمسة مائة من فيول الحرب وجموع كثيفة من المشاة ومعهم ولداه

سليم ومراد؛ فتقدم سليم إلى جلال آباد بعد أن عبر بحر خير ،
في حين اتجه مراد إلى كابل فالتحم بقوات عمته وأرغمه على الفرار .
على أن الپادشاه ما لبث أن ردّ أخاه إلى إمارته بعد أن عفى عنه
خوف انضمامه إلى أعدائه الأوزبگك ببلاد ما وراء النهر (۱) .
وهلك في حملة الپنجاب هذه خواجه شاه منصور ، ديوان (۲)
السلطان وأحد مستشاريه الذين ساهموا مساهمة قوية في إقرار
الأمر في الجهة الشرقية من قبل ، إذ دسّ عليه راجا مان سنغ
بضع رسائل قيل أنه كان يتبادلها مع ميرزا حكيم فأمر أكبر من
فوره بشنقه دون تثبيت من أمره ، وقد ندم على فعلته هذه من بعد . (۳)
ولئن كان من المعروف أن منطقة الحدود الشمالية الغربية
هي منذ القدم باب الهند الأعظم الذي ينفذ منه الغزاة إلى هذه
البلاد ، فإن اهتمام سلاطين الهند الجديتى بتحسين هذه المنطقة
لم يبدأ الاغداة غزو چنگيزخان وأبنائه من بعده للهند ؛
حتى رأينا آل بلبن والحلجيين ثم آل تغلق من بعدهم
يقيمون بها سلسلة من المعقل والحصون القوية حسبوا بها

۱ — طقات أكبرى ۲۵ :

۲ — الديوان هو التقييم على شؤون المال ، وهو وزير عادة

۳ — Muslim Rule 432-33

قوات كثيرة العدد والعُدَد .

وأتيح لتيمور لنگك اجتياح أغلب هذه الحصون حين
قتر الإهتمام بها ودب الإهمال إليها لما كان عليه آخر
سلاطين آل تغلق من الضعف . حتى جاء أكبر
فعمرها من جديد لتدفع عنه أخطار الأوزبكيك ، أصحاب بلاد
ماوراء النهر والدَّ أعداء الأمراء التيموريين وأشدَّهم مراسا ،
ومعهم القبائل التي تقطن أرض كابل وغرنة من الأفغان وغيرهم
الذين طالما أضرَّهم ثراء الهند جاريتهم ، بالقياس إلى جذب أراضيهم
وفقر بلادهم ، بالسقوط عليها وتخطف أراضيها وانتهاب أرزاقها ،
بل والتوغل فيها ما سنحت لهم الفرصة بذلك وغفلت عنهم
أعين نواب دهلي على البنجاب .

وكان من أثر مبادرذ الپادشاه إلى إرسال قواته لاحتلال إقليم
كابل عقب وفاة أخية ميرزا حكيم في شعبان من عام ٩٩٢ هـ .
١٥٨٥ م وضمه إلى أراضيه ، وما أنزله قواده من أمثال راجا من
سنغ وزين خان وراجا بيربل ، بعبد الله خان الأوزبكيك وقبائل
يوسفزاي الأفغانية من الهزائم الحاسمة ، أن أمنت حدود الدولة
في المناطق الغربية والشمالية الغربية ، لتتجه قوات آ گرا من بعد
ذلك بقياده راجا بهگوان داس لغزو كشمير فتضمها إلى أملاك

الدولة عام ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م .

كذلك دخلت جيوش الپادشاه إقليم أوريسه كما سيطرت على
السند والمثلثان ومنازل البطحان لتظل من بعد ذلك على قندهار التي
كان أكبر عيني النفس منذ أمد بعيد باسترجاعها من الفرس ، فهي
مفتاح الطريق إلى حدوده الشمالية الغربية .

واتهمز السلطان الهندي فرصة اشتغال عباس الصفوى شاه
بالفرس بحروبه مع العثمانيين والأوزبكيك فدفق بقواته عام ٩٩٨ هـ /
١٥٩٠ م إلى هذه الآيالة ، فلم يمهل عام ١٠٠٣ هـ حتى صارت في
حوزته دون قتال ، إذ وصل إلى غرضة في مهارة سياسية فائقة
أتمت على علاقات المودة بينه وبين جارة (١) .

وهكذا صار لا أكبر ، ولما ينصرم القرن العاشر الهجرى بعد .
تأسست مملكة الأرحماء امتدت من آخر حدود البنغال الشرقية
إلى ماوراء الهندكوش وأرض كابل و غزنة وقندهار في الغرب ،
ومن جبال الهملايا في الشمال إلى نهر شريدا في الجنوب . ولما تمته
توجه بعد

فروع الديكن : لبك سلاطين المسلمين في الهندستان يرون ،
في الديكن وما ورائها جنوبا بلادا غربية عنهم ، في الغالب ، بأهلها

وبماداتها ورسومها . على أن أطباعهم ، حين كان يستتب لهم الأمر في الشمال الهندى كله ، كثيرا ما أغرتهم بالنفوذ إلى ذلك الجنوب الذى كشفت لهم حملات علاء الدين الخلجى عما به من قوة . والذى قامت به دويلات وإمارات إسلامية أبى أصحابها بترغيبها بعبادة دهل على طواعية .

وكان من الطبيعى أن يتطاع أكبر بدوره إلى هذا الجنوب ، وهو الخارب الطموح ، بعد أن ساد سلطانه الشمال وعظم شأنه بأمنته حدوده .

واستعصت إمارة أحمد نگر أول الأمر على الأمير مراد بن أكبر وقائده عبدالرحيم خان لحسن دفاع الأميرة الشجاعة چندبى عنها ، فلم تسفر جهود هذين القائدين بالدكن إلا عن ضم إمارة رار إلى أملاك الدولة (١) .

١ - هذه الأميرة هي ابنة حسن نظام شاهی وأرملة إبراهيم عادل شاه . بنى صاحب بيجابور . وقد رجعت إلى مسقط رأسها في أحمد نگر بعد موت زوجها . جيا لتنف إلى جانب الصغير بهادر نظام شاهی صاحب الحق الشرعى في الإمارة . لما أدى بالوزير میان منجهو ، وكان يناصر أمير آخر يدعى محمد خدابنده ، إلى الاستيلاء على مراد بن أكبر الذى كان يحكم بالسكجرات . وبزغم نجاح هذه الأميرة في إقرار الأمير بهادر على بلاده ، فما شدا انصاره من الاحباش =

كذلك لم يفلح قواد الپادشاه فى حسم موقفهم مع قوات
أحمد نگر و بیجاپور وغولکوندہ بمجتمعہ حین التقوا بهم من جدید،
حتى جاء الوزير أبو الفضل بن المبارك بنفسه إلى الدکن فى جند
کشیف، وما عدا أن لحق به أكبر بنفسه بعد أن عهد بأمر حکومتہ
إلى ابنه سلیم .

وكان مما أدى بالسلطان إلى السير بنفسه إلى هناك ، موت
ابنه مراد من جهة وأنضمام أمير خاندش إلى الخارجین علیه من
جهة أخرى .

وسیر أكبر ابنه دانیل إلى أحمد نگر فى حین قصد هو
إلى خاندش ، فما إن دخل عاصمتها برهانپور ثم شرع من بعد ذلك
فى حصار عسیر ، أقوى حصونها ، وكان یمتنع فیہ صاحبہ میران
بہادر ، حتى وافته الأنباء بخروج ابنه سلیم علیه وتنصیبه لنفسه
سلطانا فى مدينه الله آباد بأدنى الدواب (١) ، فلم یثنه ذلك عن المضى
فى خطته حتى سقط الحصن فى یده وتبعه استسلام إمارة أحمد نگر

== والدکشیف أن انقلبوا علیها حتى ضیعوها ورضیعوا إمارتهم معها .

هذا وفى الجزء الأول من هذا الكتاب س ٢١٩ — ٢٦ تفصیل لنشأة
إمارات الدکن جميعاً .

١ — عنی أكبر عن ابنه حین عاد إلى آکرا فوزه البنغال وإن لبنت العلاقات
متوترة بین الپادشاه وابنه إلى آخر أيامه .

يبدوورها .

وبسقوط هذه الإمارات في مستهل القرن الحادى عشر الهجرى ، وختام القرن السادس عشر الميلادى ، تم لأكبر السيطرة على الدكن التى استمرت حروبه بها سنوات خمسة (١) ، وصارت الدولة المغولية ، أعظم الدول لعصرها وأقواها وأكثرها زاءً وغنى (٢) ، بما دخل فى حوزتها من أرضين وما انطوى تحت لوائها من الأمراء وما عمرت به خزائنها من أموال الفتح وغنائمه وكنوزه .

ولم يطل الأجل بأكبر حتى يتم فتح جنوب شبه القارة الهندية بأكمله بعد أن شرع فيه ، وقد كان بوسعه تحقيق هذا الأمر فى أمد قصير بعد أن أقر الأحوال فى الشمال كله بقضائه على أسرة سور وكبجه جماع الأوزبكيك وفتحها للبنغال واقتحامه حصون الراجبوتيين الكبرى وتأمينه حدوده كافة ، لولا ما تعرض له من ثورات وقتن عنيفه بسبب ما ذاع عنه من

١ - كان من أثر طول مقاومة أمارات الدكن الاسلامية للمغول ، ابتعاد الحظر إلى حين عن أمارة فيانكرك الهندوكية التى كانت تقع إلى ما وراءها جنوباً .

أفكار وآراء فلسفية أدت به إلى استنباط مذهب ديني جديد .

المذهب الإلهي :

برغم أن أكبر ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها . فقد أدى اضطراب حياة أبيه في الغالب إلى حرمانه من قدر وافر من التعاليم في الصغر ، فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة . ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلي . إذ كان قوي الملاحظة كأنما بالمعرفة ، فتعلم عن طريق التلقين مكتفياً بالإصغاء والتأمل . وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرئ في حضرته من الكتب القيمة التي جاوز عددها في مكتبته الخاصة أربعاً وعشرين ألفاً . ولقد ولد أكبر عن أب سني المذهب وأم شيعية ، وبنى بوضع أميرات من الهنادكة . وطفق لا يشغل نفسه إلا بعلوم أهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناغوري وولديه فبضى وإني الفضل . وكان ثلاثتهم من المشتغلين بعلوم الحكمة ، ففتحت ، عيناه على كثير من المسائل الفلسفية والأسرار الصوفية ، ودفعوه معهم في طريقهم ، طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول إلى الحق المجرّد .

وأدى به شغفه بهذه المسائل إلى إقامة دار للعبادة

« تبادتخانه » ، بمدينة فتحپور حاضرتہ الجديدة . تم بناؤها عام ٩٨٣ هـ / ١٥٧٥ م لتكون منتدى للفقهاء والمتصوفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ومسائل الفقه والتصوف والفلسفة .

ودرج أكبر على الحضور إلى هذه الدار عقب صلاة الجمعة عند انصرافه من خانقاه شيخ الإسلام . هذا كما كان يتعبد كذلك في كهف غير بعيد من قصره ويضى ليلاً بأكملها يناجى ربه بزموز الصوفية واصطلاحاتها .

كان هذا السلطان يرى في الملك نعمة من نعم الله العظمى ، يتجلى العرفان بها في حسن إدارة الحاكم لحكومته على وجه يجعل رعاياه جميعاً يتفانون في طاعته وتلجج السنتهم بالشناء عليه .

وعلى هدى هذه الغاية حاول أن يمزج نفسه بالهند وشعوبها من مسلمين وهنالك مزجاً عميقاً لينقلب هو وبلاده آخر الأمر إلى وحدة لا تنقسم أو تتجزأ . فضى يعمل على انضواء سنادك جميعاً تحت راية الحكم الإسلامى عن رضى وقبول بتألف قلوبهم ، وفتح أبواب بلاطه لهم حتى بلغ كثير من منهم أعلى

مناصب الوزارة والقيادة (١) ، كما أصهر إلى كثير منهم كذلك ، وإن أدى سلوكه هذا إلى نفور طائفة من العلماء ورجال الدين الذين كانوا ينكرون قيام المساواة بين المسلمين ومن خالفهم في دينهم .

وكان من ثمرة نهجه هذا الذي انتهجه أن طفق فريق من الأمراء الراجپوتيين يوالونه حتى ساروا معه بقواتهم لتحقيق أهدافه في الفتوح والقضاء على الفتن التي كانت تنشب من حين لآخر في أنحاء بلاده الواسعة .

وكان من بين هؤلاء راجا بهگوان داس وابنه مَن سنغ اللذان ظاهراه في حصاره لحصن چتور أقوى قلاع الهند ، ثم راجا بيرمل الذي لاقى حتفه وهو يدافع عن حدود الدولة الشمالية الغربية .

ولعل تدر مل هو أبرز هندوكي قام على خدمة أكبر في إخلاص بدت آثاره العظيمة واضحة جليّة في تاريخ الهند . فبهذا الوزير الذي كان قد نشأ عند السلطان القدير شيرشاه

١ - بلغ عدد المناصب الكبرى في الدولة أيام أكبر ١٥٠ ، كان الهنادكة يشغلون منها ٥١ منصباً .

يألم بالكثير من اتجاهاته السديدة في شئون الإدارة والحكومة ،
شارك بنجاح في حملات البادشاه البنغالية ، كما أظهر كفاءة
وإدارة كبيرة حين عُهد إليه بتنظيم شئون حكومة الكنجرات ،
أنتفى إمارات الهند ، وتنسيق مواردها المالية ، حتى صار من
جد ذلك خير مشير لأكبر فيما شرع فيه من إصلاحات شملت
إقامة نظم الحكم وشئون الدولة (١) .

لقد أدرك أكبر أن بلاده الواسعة لا يمكن حكمها وإقرار
الأمور فيها أقراراً حقيقياً إلا بقيام المؤاخاة والألفة بين أهلها على
اختلاف مللهم وتباين عروقهم ونحلهم . وهو حين قرّب إليه
المنادكة ، دفعه شغفه بالمعرفة إلى التطلع إلى ما عندهم من
ثقافات ورسوم قديمة ومعتقدات ، فعهد إلى فريق من العلماء
ينقل عيون الكتب الهندوكية القديمة من السنسكريتية إلى
إلى الفارسية ، لسان العصر بالهندستان ، ومن بينها الرامينا (٢) ،

Lane-Poole 260-62 - ١

٢ - قام المؤرخ بداوني بنقل الرامينا إلى الفارسية فأتمها في أربع سنوات ،
هي تحسوي خمس وعشرين ألف بيت ، يتركب كل بيت منها من خمس وستين
حرف وبطلها رام چند ، وكان مسقط رأسه مدينة أوده . وقد زينت هي
بأبهاارتا التي قام فريق من علماء المنادكة وأدباء المسلمين بنقلها إلى الفارسية
بقوش كيسار التتاشين في بلاط السلطان . منتخب التواريخ ثان ٣٢٠ ، ٣٣٦ .

ثم المهابهارتا ، كتاب الهند القديمة الأقدس ، التي يُعد قراءة قدر منها مجلبة للرحمة والمغفرة ، كما يقرء المسلمون القرآن وأتباع المسيح الإنجيل ، وتحوى ربع المليون بيت من الشعر ، في حين لا تعدو إلاذاة هو ميروس ، نظيرتها عند اليونان القديمة ، خمسة وعشرين ألف بيت .

ولم يكتف البادشاه بقراءة هذه الأسفار حتى راح في سبيل دراساته ، يستدعى إليه ، في دار العبادة وفي قصره شيوخ العقائد من برهمية وبوذية وجينية وويشية وزرادشتية ونصرانية (١) ، ليعرضوا عليه بضاعتهم علىه يبلغ إلى علة الفروق بينها حين تكفر كل فرقة اختها وتحرم على أتباعها أن يطاعوا غيرهم أو يخالطوهم .

ولم يكن أكبر ، وهو المفكر المسلم الحرّ ، ليحجم عن إعلان إعجابها بما يُعرض عليه من نواحي الخير والمبادئ الإنسانية في هذه العقائد ؛ بل لقد بلغ من تلفة مع أصحاب هذه الملل وحدبه على استمالتهم إليه أن ارتدى مسوح الهنداكة وجرب معهم طقوسهم (٢)

١ - هل الإنجيل إلى الفارسية كذلك على يد الوزير أبي الفضل بن المبارك

مستخب التواريخ ٣٦٠ ،

٢ - من ذلك أنه رتل معهم الإبهالات الدينية البرهمية التي زعموا له بأنها

وكتب عن استخدام الثوم والبصل في أطعمته وتقديم اللحوم
على مائدته .

ولقد كان أكبر في الواقع لايهمم أبداً بأصناف الطعام ، فنشأ منذ
صغره على غير ميل إلى تناول اللحم حتى حرّمه على نفسه محتجاً
بأنه لا يليق بالإنسان أن يجعل من جوفه مقبرة للحيوان ، وإن
لم يحرّمه على رعاياه .

كذلك كان يسكن كراهية شديدة للقصاصيين والصيادين الذين
كان يرى فيهم أناساً وقفوا حياتهم على قتل الحيوان (١) . هذا كما
مع اقتناء الطيور وأطلق ما كان منها جيبس الأقفاس .

تجعل الشمس وفق هواه . ولم تقف تجاربه عند هذا الحد حتى راح يحاول اختبار
مقدرة الإنسانية في أطفال عزلهم بقصره عن الناس بعد أن رتب لهم المراضع ،
وعلى مبادئ الأديان كلها حين يشبوا عن الطوق ويرى ما عسى أن تهديهم
لكنة فشل في تجريبه إذ استبان له بكمهم جميعاً بسبب عزلتهم
تاريخ التواريخ ثان ٢٨٨ » .

١ - لا يتفق تحريم اللحوم هنا مقاطعة الجزاير ومن إليهم بما ادعاه بداوني
بذبحه السلطان للحوم النمرة واقتنائه للخنازير والكلاب بقصره . وقد أفصح هذا
المرح عن وجه الحق في إتهاماته هذه وغيرها بما كان يحز في نفسه هو ومن كانوا
عزاء حين كانوا يرون السلطان يقرب الهنادكة إليه ويعاملهم بالتسامح والتكريم
نصدر السابق ٣١٤ »

ولم يكن أكبر كذلك يتناول سوى الماء القراح ، وإن كان قد عكف في شبابه على تناول النبيذ بعض الوقت .
كذلك اجتمعتي الپادشاه اليسوعيين الذين وفدوا إلى بلاطه ليستمع إلى بيان النصرانية من أفواههم لا من بطون كتبهم ، فأكرمهم ، وكانت لهم بعوث تبشيرية تذر في مستعمرات البرتغاليين بالهند ، حتى حملوا على حمل رعبته في التنصير ما أظهره من التبجيل والتوقير للإنجيل حين رفعوه إليه ، ولأيقونة المسيح وأمه البتول حين أطلعهوه عليها ، وما كان من رده المهبذ عليهم ، حين عرضوا عليه الدخول في ملتهم ، فقال لهم بأن الأمور كلها تجري وفق المشيئة الإلهية . وقد تجاهلوا موقفه منهم حين كانوا ينجحون إلى التحامل على الإسلام فيردهم عن ذلك بما أثر عنه من رفق ولطف .

استمع أكبر إلى هؤلاء جميعا في حرية وتسامح ديني مطلق وقت أن كانت أوروبا تجتاحها موجات مدمرة من التعصب ، فالكاثوليك كانوا يفتكون بالبروتستانت في فرنسا ، والبروتستانت كانوا يذبجون الكاثوليك في إنجلترا ، ومحاكم التفتيش كانت تنكل ببقايا المسلمين واليهود في إسبانيا ، ورجال الكنيسة بإيطاليا كانوا يُحرقون بتهمة الهرطقة جمهرة من العلماء

تدين لهم المدنية والحضارة الحديثة بالكثير .
والمعروف أن هذا الأمير التيمورى الذى كان يعمل ، فى
سيريل بلوغ الحقيقة ، على استخلاص الحسن من الآراء المختلفة
التي قد تنتهى به إلى غايته ، هداه تفكيره الفلسفى وبصيرته النفاذة
إلى أن يرى الديانات عموما ، بعد اطلاعه عليها ، كأنها رموز
مختلفة تمثل الأسرار التي تحيط بالكون وأهله . لذا ودّ لو أنه
استطاع إذابتها فى مذهب جديد يقوم على التوحيد ، ويجمع ما فى
هذه العقائد من فضائل ، ويقضى على الخلاف بينها . ويزيل ما بين
الناس من فوارق ، ويدعم أخوة الإنسان لأخيه الإنسان
ليبلغ بذلك كله إلى قيام التجانس التام فى مجتمع بلاده .
إلا أن مسعاه لم يتكلل بالنجاح فى مؤتمر الأديان الذى عقده
فى « عباد تخانه » ، وحشد له الصفوة من رجال الأديان وشيوخ
العقائد على اختلاف مللهم ونحلهم . ذلك أن هؤلاء الأعلام لم
يتبادلوا فيما بينهم إلاّ أفطع التُّهم وأحش الشتائم^(١) .

١ - اقترح أحد المناظرين ، وكان يدعى شيخ قطب جيسرى ، أن تختبر المسيحية
بزاه الإسلام بمحنة النار ، وذلك بأن يخوض وأحد القساوسة اللهب ، فمن خرج منه
سلاما كانت فرقته صوت الحق فى الأرض ، لكن اليسوعيين رفضوا ذلك وخافوه
« منتخب التواريخ ثاب ٢٩٩ » .

وعلى ذلك فقد أدرك أكبر ، قبل أن يأتى الفلاسفة المحدثون
بمن طويل ويقرروا ، على وجه التحقيق ، أن المعتقدات مستقلة
تمام الإستقلال عن العقل الصرف ^(١) .

ورغم سخريه الپادشاه من هؤلاء جميعا فقد راح أصحاب كل
مذهب وعقيدة يدعيه بدوره لنفسه في غير تورع ولا استحياء
ادعاه الزرادشتيون حين وضع علاماتهم على ثيابه ،
وادعاه الهنداكة حين رأوه يمتنع عن أكل اللحم ويحرم الصيد
واستخدام البصل والثوم في طعامه ، ويحض الناس من حوله على
ذلك . ونسوا تشدده المطلق في محاربة عادة الساقى الخاصة بهم -
حيث تقبل الأيتام التي ليس لها ولد على حرق نفسها مع جثمان
زوجها - حتى تدخل بنفسه لإيقاظ إحدى نساء الأشراف ومنع
عشيرتها من إرغامها على ذلك ^(٢) . كما أباح زواج الأراامل
وحض عليه ، على خلاف شرائعهم .

وادعاه النصراني حين أمر وزيره أبا الفضل بترجمة الإنجيل

١ -- الخلدن البوازن العالمي ليجوناف لوبين من ٣٥١

٢ -- هي ابنة أداى سنغ وأرملة جاى مل أحد أبناء عمومة راجا بهكوان داس
من زعماء الهنداكة المقربين من الپادشاه . وقد ركب أكبر بنفسه لإيقاظ هذه الأميرة .

به وأدخل دراسة النصرانية في تعليم ابنه ، ولم يمانع — على حد قولهم — في تنصير أحد من أهل الهند ، على الإختيار .
 بزعموا أنه ، بفضل تعاليمهم ، أحال المساجد في حضرته إلى
 منطبات للخيل والفيلة، بدعوى الاستعداد للحرب، وأمر بحرق
 المصاحف وحرّم ذكر النبي الأكرم بيلاطه واقتصر على زوجه
 واحده ، وحرّم على أتباعه المسلمين ختان أولادهم الذكور حتى
 يبلغوا الخامسة عشرة من عمرهم فتسكون لهم الخيرة فيما يعتقدونه
 من الأديان (١) .

وعلى هدى نشأه اللغة الأوردوية في الغالب - وهي مزيج
 من لغات الفاتحين المسلمين ولغات الهند ، نشأت نشوءاً
 عزيزاً من اختلاط هؤلاء الشعوب بعضها ببعض ، حتى غدت
 بالكاد لغة الهند القومية - هدت أكبر قريحته ، بمعاونة وزرّه أبي
 تفضل وأخيه فيضى ، إلى ابتكار مذهب جديد يتألف كل ما هو
 حسن في مسائر العقائد على وجه يقضى ، فيما ظنه ، على تناحر الفرق
 والأديان ويهيئ السلام للناس والأمن للدولة .

وهذا المذهب الذي يُعرف في التاريخ باسم « دين إلهى »
 والذي يقوم على تمجيد الله وينادى بوحدة الوجود ويمتزج فيه

التصوف والفلسفة بالعبادات : فيه البادشاه هو الإمام العادل^(١) ظل الله على الأرض ، والمجتهد الأكبر ، من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد خسر الدنيا والآخرة .

وكان من رسوم هذه العقيدة الجديدة . التي رمى أصحابها فيها إلى تمثيل عقائد الهند كافة أحسن تمثيل ، أن يقر المؤمن بها باستعداده لتضحية أملاكه وشرفه وحياته وعقيدته في سبيل البادشاه ، وأن يقتصر في غذائه على النبات ، ويمتنع عن تناول اللحم أياما كثيرة مرسومة ، ولا يجالس الجزارين والصيادين وغيرهم من قتله الحيوان ، ولا يحبس حيوانا أو طيرا عنده ، ويتجنب البصل والثوم ، وأن يبذل الصدقات للفقراء والمعوزين وكانت تحميمهم فيما بينهم هي : « الله أكبر » وجوابها : « جلّ جلاله » ،^(٢) .

١ — فكرة الإمام العادل هي عند أكبر بتأثير المذهب الشيعي ونظرية الشهدى المنتظر ، حتى اضطلع له تقويمها جديدا يبدأ من عام ارتقائه العرش . وهو ما حدث به كذلك في نقالب إلى أن يوحى لتفريق من المؤرخين ، وعلى رأسه مولانا أحمد نود بن قاضي تان . بكتابة « تاريخ أنبي » الذي يضم تاريخ المسلمين وسلاطينهم إلى العام الأثنى من تاريخ انتقال النبي الأكرم إلى الرفيق الأعلى .

٢ — لم يقل أحد من المؤرخين بإدناء أكبر الألوهية أو النبوة . ومما يذكره بداونر في هذا العهد (منتخب التواريخ ثان ص ٢١٠) — وكان من أشد الناقين على هذا —

وقرن أكبر إعلانه لمذهبه هذا بإصدار طائفة من التشريعات الإجتماعية المفيدة . فمنع عادة الساقى ، وأباح لأرامل الهنادكة الزواج ، وحض الناس على الاكتفاء بزوجة واحدة والابتعاد عن البناء بالأقارب الأقربين لما ينتجم عن ذلك من ضعف النسل وفتور فى الميل ، ومنع زواج الأطفال دون البلوغ (١) . وزواج النساء المتقدمات فى السن بشبان يصغرهن بكثير .

وفرض كذلك عقوبات صارمة على مثيرى الشغب والشجار ، كما منع تعاطى الشراب وتداوله ، وأمر بعقاب شارب الخمر وبأنعها ومشتريها وصانعها ، وقصر بيعها للتداوى على متجر خاص بمقربة من قصره وجعل به سجلاً يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها واسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها (٢) .

== المذهب الجديد - أن البادشاه رغب عام ٩٨٣ هـ فى ضرب عبارة « الله أكبر » على السكة والغائم الشاهاني ، فنصحه أحد رجاله بأن يستبدلها بقوله تعالى « وتذكر الله أكبر » حتى لا تحمل الأولى على ادعاء الألوهية ، فاحتج عليه السلطان بأن كل ما فى الأمر هو موافقة مقتضى الحال ، فكيف للإنسان أن يرقى إلى ادعاء الألوهية وهو على ما هو عليه من العجز والضعف .

١ - نس هذا التشريع على أن لا يقل سن الشاب عن ستة عشر عاماً وانفاذ عن أربعة عشر .

٢ - يرى بداوني فى هذا الإجراء تنظيمياً غير مباشر لتعاطى الشراب فخب وترخيصاً مقنناً به ، وبلغ من فرط تحامله هنا أن صرح بأن النبيذ يدخل لحم الخنزير ==

وأمر كذلك بجمع البغايا في دار تدعى « شيطانپور » :
أى محلة الشيطان ، ووكل بهن عاملاً خاصاً يقوم على شئونهن ،
ثم أخذ من بعد ذلك يستدعى إليه كل واحدة منهن فيستوضحها عن
أغواها ودفع بها في طريق الشرّ والفساد ، لينتهي من ذلك إلى قتل
كل من ثبتت هذه التهمة عليه .

ولم يكتمف بتعميم هذه الدور في مناطق كثيرة ببلاده حتى
أمر بأن يساق إليها كل زوجة يثبت إدمانها على الخُصام
والشجار مع زوجها .

هذا كما منع من استرقاق أسرى الحرب ^(١) واختلاط النساء
بالرجال في الأسواق وعند شواطئ الأنهار طلباً للسقى
أو الإغتسال .

وأعفي الهنادكة من ضريبة الرءوس ورفع عنهم رسوم

=== في صناعته «متنخب التواريخ ثان ٣٠١»

١ — هذا الإجراء يعد ، على ضوء ملابسات القرن السادس عشر الميلادي ،
من أنبل ماشرعه ملك ، فضلاً عن تحقيقه لهدف من أهداف الإسلام الإنسانية الكبرى
في الدعوة للتعبير وفك الرقاب . ولا ننسى أن الهنادكة كانوا يسقطون عن الأسرى
قيمتهم الإنسانية فيسلكونهم في عداد المنبوذين. هذا وتجد بيان هذه التمريمات جيداً
في الجزء الثالث من آيين أكبرى لابن الفضل بن المبارك بمواضع عديدة
متفرقة منها .

الحجج (١) ، حتى يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين . ولم يكتبف بأن يصرح للذين أجبروا في صباهم على الإسلام أن ينظروا متى بلغوا سن الرشد، في البقاء على إسلامهم أو الرجوع إلى دين آباءهم ، حتى راح ينادى بحرية الناس جميعا في تخيير ما يروقهم من الأديان والعقائد ، ويسدى لهم النصيح بالألا يتعرضوا للذين يخالفونهم في عقيدتهم بسوء أو أذى ، وأن يسلكوا معهم سبيل المودة والرحمة حتى يصلوا وإياهم إلى معرفة الحق .

والحق أن أكبر لم يحاول أن يحمل الناس أبدأ على الدخول في مذهبه الجديد هذا . ولم يلق بالا إلى رفض راجا بهگون داس وراجامن سنغ (٢) إلا استجابة إلى دعائه ولا إلى احتجاج قائده عزيز ككا برغم أنه كان بوسعه . - بطبيعة الحال - أن يحمل كثيرا من رجاله على الانتظام في حزبه .

١ - كان يجي من الهنادكة رسوم معينة نظير السماح لهم بالحجيج إلى أماكنهم المقدسة ، وهذه هي التي رفعها أكبر عن كاهلهم - هذا وكان أكبر هو كذلك أول من سير الحمل الهندي إلى الأراضي المقدسة .

٢ - كان من رد مان سنغ على البادشاه أنه يعرض حياته دائما للموت في سبيل السلطان ، وأنه على دين الهنادكة ، فإذا ما طلب إليه أن يسلم فقد يفعل ذلك ، وهو لا يعترف بغير هاتين الملتين على كل حال .

وإثن التّف فریق من الناس حول المذهب الجدید جلبا للنفع وطمعا فی اکتساب الحظوة فی الغالب ، فإن الفشل التام قد أصاب الپادشاه فی ،شروعه هذا الذی لم یکن لیقوی أبدا علی هدم التقالید الموروثة ، فلبثت الغالبیة العظمی علی استمساکها بعقائدها ومذاهبها .

ولم تکن حركة أكبر هذه إلاّ واحدة من المحاولات القویة الّتی اضطلع بها نفر من المسلمین والهنداکة ، من قبله ومن بعده ، للتقريب بین الإسلام والهندوکیة وتضییق شقة الخلاف بینهما وإحلال التفاهم وتحقیق الوحدة بینهما .

وهذه التعالیم ، الّتی اضطلع بها کیتانیا ونانک وکبیر وداراشکوه ، یلاحظ فیها تأثیر التوحید الإسلامی تأثیرا کبیرا ، حتی اترى فرقة الّسک الهندوکیة تجهر صراحة بتعظیم النبی الأکرم علی الخصوص ، وتمجید القرآن الکریم .

وأدت هذه الحركات فی الغالب إلى إضعاف روح التعصب الدینی والعِرْقی وأوهنت من ضغط نظام الطبقات إلى حدّ کبیر .

وبنح أكبر بتسامحه الشدید علی کل حال إلى کسب ولاء الهنداکة حتی أوائلک الذین لم یعتقدوا مذهبہ الجدید ، واستطاع

عموما أن يحقق لبلادها الوحدة السياسية التي كان يهدف إليها
ويعمل في سبيلها (١) .

نظام الدولة : لئن كان أكبر بوصفه البادشاه هو صاحب
السلطان المطلق في الدولة الذي يوجه أمورها وفق هواه ، إلا
أنه سار في حكمه على مقتضى العدل والتسامح المطلق ، فنظر إلى
رعاياه دون أدنى تفرقة في الدين أو الجنس ، فمارسوا جميعا
حقوقهم الدينية على اختلاف مللهم ونحلهم في حرية تامة ، في
الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا ينكثون أصحاب المذاهب

.....

١ - لم يصرح أكبر في الواقع بشكره للإسلام أو خروجه عليه وإن اضطر
جملة من شيوخ المسلمين . ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول بتمسك بدينه ، فقد
كانت السياسة هي دينه ، ووحدة أهل الهند تحت سلطانه هي عقيدته . وما
ذهب إليه السيد أمير علي ، العلامة الهندي ، من أن أكبر لم يفضل في حياته
تعاليم برسوف والأئمة ، (Islamic culture. October 1927) إنما كان
لتمسكه حقيقة بفضائل الإسلام الكبرى ، وإن لم ينف ذلك عنه ورضه
الخوض في بعض مسائل الفروض والمبادئ بما يخالف الشرع ، فضلا عن تأثره بفكرة
التسامح عند الهنود وإعجابها بما تدعوا إليه الويشنوية من إعادة اكتشاف
الإنسان لنفسه وإدراك شخصيته خارج الحدود التي يفرضها العرف وترسيما التقاليد
الدينية ، واقتناعه بأراء اليوبانشاد في القول بأن كل إنسان إنما يسمى السكان
الإسلامي باسمه يلام وجهه نظره .

التي تغاير مذاهبهم في المسيحية على ما كان يفعل الأليزابيثيون مع
كاثوليكسي أيرلندا، وأصحاب فيليب الثاني ملك أسبانيا مع
البروتستانتين .

كذلك لم يكن هذا الأمير المغولي ليتردد عن مشاوره رجاله
في تصريف شئون الدولة على أحسن وجه يكفل صالح الأهلين ،
حتى بلغ من حرصه على إسعادهم أنه لم يعارض في فرض ضرائب
جديدة عليهم فحسب بل ورفع عنهم كذلك قدرأ مما كان يفرض
عليهم من قبل .

وهذا السلطان، الذي قيل أنه قد أوتي حظاً وافراً من راحة
العقل حتى صار الموجه الفعلي لسكافه المشروعات والإصلاحات
التي تمت في عصره ، كان يعتمد ، أكثر ما يعتمد ، في تصريف
الأمور على طائفة من كبار الرجال في الدولة وعلى رأسهم وكيل
السلطنة ، وكان في أول عهد به بالحكم بيرم خان قائده ومربية .
ويأتى من بعد الوكيل في المرتبة الوزير أو الديوان . وهو القيم على
شئون المال في الدولة ، وكان يشغل في العادة مركزاً كبيراً
في الجيش (منصبدار) شأنه في ذلك شأن جميع أصحاب المناصب
في الدولة ؛ ويليه مير بخشى وهو الذى يقوم بدفع مرتبات الجند
والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها ، ويُعد مستولاً

بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص . ويأتى من بعده
خان سامان وهو صاحب شئون البلاط ، وكان يلزم الپادشاه
فى حله وترحاله ويشرف على شئونه الخاصة جميعها . ثم قاضى
القضاة وهو الموكل به شئون العدل وإجرائه وفق الشرع .
وأخيرا المحتسب وهو الذى يراقب سلوك الناس ويمنع ممارسة
البدع وارتكاب ما ينافى الشرع والآداب عموما .

وإلى جانب هؤلاء الكبار ، كان هناك فريق آخر من أصحاب
المناصب المهمة ، دونهم فى المنزلة ، مثل المستوفى ، محاسب الدولة
الأول ، والكُتُوب وهو بمثابة رئيس الشرطة ، وكان يوكل
إليه حراسة المدينة فى الليل والبحث عن اللصوص وقطاع
الطرق ومراقبة السكان ورقابة الأسواق ، ثم صاحب البريد
: أمير العرض الذى يرفع إلى الپادشاه الالتماسات والشكاوى .

وبلغ من حرص أكبر على ضمان العدل فى دوائه أنه كان
ينظر بنفسه فى القضايا الكبرى التى كان على عماله بولايات
الدولة أن يبدعوا بها إليه ، كما كان يفتح أبواب قصره للناس
حرما معلوما فى كل أسبوع ليتلقى منهم ظلاماتهم بنفسه أو يتلقاها
من ينيية عنه من ثقاته حين كان يتغيب عن مقره .

وكان صدر الصدور (المفقى) وقاضى القضاة ومساعدوهم

يعاونون الپادشاه عادة في الفصل في ذلك كله وفق قواعد الشرع الشريف ، مع مراعاة رسوم الهنادكة وشرائعهم فيما يعرض لهم من مشاكل ويقوم بينهم من خصومات -
وقد ألغى أكبر كثيراً من العقوبات البدنية التي تتنافى مع الإنسانية ، كبت بعض أعضاء البدن ، وأمر أن يكون تنفيذ أحكام الأعدام منوطاً بمصادقته شخصياً على الحكم .

هذا ولم تكن الدولة الإسلامية في الهند ، قبل عصر أكبر ، تعرف التقسيمات الإدارية في الغالب ، اللهم إلا ما ذهب إليه شيرشاه في هذا الباب من قبل ، إذ كان تحديد الإقطاعات رهناً بمشيئة السلطان وحده .

وانتهى أكبر إلى تقسيم أراضي الدولة إلى ولايات « سِيپَه » ، وكل ولاية إلى عدة مراكز (سركار) وكل مركز إلى جملة دساكر (برگنا) .

وكانت هذه الولايات في أول أمرها اثنتي عشرة ، حتى إذا ما فُتحت الدكن بلغت خمس عشرة هي : آگرا والله آباد وأوده ودهلي ولاهور والمثلتان وكابل وآچمير والبنگسال وهار

وأحمد آباد ومالوه وموار وخاندش وأحمد نگر (١) .
ورأس كل ولاية ، في هذا النظام ، يدعى سبهاسالار ، أى
الأمير العام ، وهو نائب السلطان بها . ولم يكن له أن
يتدخل فى حرب أو يبرم التحالف والصلح دون مشورة السلطان
ورأيه .

وهو المشرف الأول على شئون القوات والقضاء فى إقليمه .
وله أن يعيّن صغار العمال ويقبلهم . ولم يكن له أن يتدخل فى
الأمور الشرعية التى هى من اختصاص الصدر وحده ، أو يصدر
حكم بالإعدام دون إذن السلطان نفسه .

ويليه فى المنزلة ثمانية من أصحاب المناصب الكبيرة وهم :
الديوان ، والصدر ، والعامل ، والبخشى ، والخزندار ، والفوجدار
والسكتول ووقائع نويس . وبيان وظائفهم هو كالتالى :

الديوان : ويتأبط به شئون المال بالولاية ، وهو يلى السبهاسالار
فى المرتبة . وكان فى أول أمره يعيّن من قبل أمير الأقليم
نفسه ، حتى رأى السلطان أن يجعله تابعا له ليكون رقيبا من لدنه
على كل ما يصدر عن الحاكم من تصرفات وأفعال ، ويحسد من

سلطانه كذلك إذا لزم الحال .

الصدر : وهو صاحب الشريعة في الإقليم كله، وكان في العادة من العلماء أصحاب المهابة، ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره .
العامل : وهو صاحب الخراج ، وكان عليه أن ينظم جباية الضرائب ويراقب عماله جميعا في بقطة تامة وحذر على وجه العدالة ، وأن يجرى تقدير خراج الأرض على درجة خصوبتها وجودتها، وأن يعمل على تأمين الناس على أنفسهم وما يملكون ، ويظهر الطرق والسبل من اللصوص وقطاع الطرق ويراقب البيع والشراء .

التخشي : وهو المحاسب الذي يراجع أعمال العمال ورجال الدخولية، ويشترط فيه أن يكون ماهرا في الحسابات ملما بأصول الخراج ونظمه وأسس الإيرادات والمصروفات . وأن يسجل ذلك كله في سجلاته بالتفصيل .

الخزّندار : وهو صاحب الخزانة الحافظ لأموال الدولة ، وعليه أن لا يخرج مالا دون إذن الديوان ، مع إيصال بالتسلم ، ويثبت ذلك كله في دفاتره .

القوجدار : وهو القائد المباشر لقوات الولاية ، وعليه أن يعاون السپهسالار في إقرار السلام في الإقليم كله ، ويعين العمال

من تحصيل الضرائب من أهل القرى والديساكر الذين يتمتعون
من أدائها ، على أن يكون ذلك بطلب مكاتب وتصريح من
الحاكم وكان هو الذى يطارد بقواته عصابات اللصوص وقطاع
الطرق ويخمد كل عصيان أو فتنة تنشب فى الإقليم .

الكوتوال : وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ
الأوامر والقوانين فى المدن .

قائع نويس : وهو مسجل الوقائع ، وضابط الاتصال بين
الحكومة المركزية والولاية ، والرقيب الذى لا تخفى عليه فى الإقليم
كله خافية .

وبواسطة هؤلاء الرقباء كان الپادشاه يقف على كل أمر ،
سغیر أو كبير ، يجرى فى كافة نواحي دولته المترامية الأطراف .
وكان ، على كل واحد من هؤلاء أن يحيط أمير الإقليم ورجاله علما بما
يبلغه من الحوادث والوقائع قبل أن يرفع خبرها وتفصيلها
إلى السلطان .

وبرغم أن الپادشاه كان قد أحكم نظام الرقابة على عماله جميعا
فى مختلف أنحاء دولته فأقام من كبارهم رقباء بعضهم على البعض
لآخر ، فإن صعوبة المواصلات وترامى المسافات ، مع اشتغال
الدولة نفسها بالحروب والغزوات المتواصلة فى الغالب ، قد

اضعف من جدوى هذا النظام حتى صار حكام الأقاليم يتصرفون
عموما وفق هواهم وعلى مسئوليتهم الخاصة.

وامتدت إصلاحات أكبر كذلك إلى نظام خراج الأرض
الذى كان يُبعد أهم موارد الخزينة بعد رفع ضريبة الرءوس عن
كاهل الهنادكة وإعفائهم من ضريبة الحج .

ولم يكن هذا السلطان هو أول من أجرى ضريبة الأرض
على نظام كفل العدل للمسلمين والهنادكة على السواء ، فقد سبقه
إلى ذلك شير شاه سوري ، وإن كان خلفاؤه قد عدلوا عنه من بعده
فناثروا النهج القديم مع ما كان فيه من إجحاف بالغ الأهلين .
وحين عهد أكبر إلى تدمير مل وزير ماليتة ديوان أشرف ، بوضع
نظام ثابت لخراج الأرض يوفى للدولة حقوقها ولا يضار
الأهلون به ، عمد هذا الأخير أولا - على ضوء تجاربه السابقة
بالكجرات حين عهد إليه بتنظيم شئونها - إلى مسمح أراضى
الدولة كلها وبيان ما يوجد منها فيزرع على مدار السنة ،
وما يزرع منها مرة واحدة في العام ، وما لا يُنبت إلا مرة واحدة
في كل بضعة أعوام ، وما يعتمد منها في السقى على الأمطار ،
وما يسقى منها من الأنهار والينابيع والآبار ، وما هو في حكم

البور، وما يقع منها في السهل أو يقوم على سفوح الجبال أو تغطيه
الاحراش والغابات (١).

حتى إذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الإنتاج
في عشر سنوات، على أن يكون للدولة ثلث المحصول نقدا في
الغائب، بعملة العصر، وكانت دقيقة الصنع مضبوطة الوزن، مالم
يصب الزرع بآفة أو ينقطع الماء عن الأرض فتجذب.

كذلك حاول أكبر جاهدا أن يدرأ عن بلاده خطر المجاعات
المروعة التي كانت تدهمها حين كالت تجذب الأرض بسبب
انحباس الأمطار الموسمية عنها. فاهتم إهتماما بالغاً باستصلاح
الأراضي البور، وحض الأهلين على الأشتغال بالزراعة
وتوسيع رقعة الأراضي المنزرعة، وأمدم بما يحتاجونه من البذور
ويعاونهم على زيادة إنتاج الأرض.

وكان من ثمرة هذه الجهود أن نعم الناس في الغالب بحياة طيبة
لم يألفوها منذ زمن بعيد، وازدهرت عيشتهم، وصارت الأسعار
في متناول أيديهم جميعا.

وقد اقتبس البريطانيون أغلب نظم أكبر، الحكومية والإدارية

والإقتصادية ، حين صار إليهم زمام الأمور في الهند .
وثمة إصلاح آخر بالغ الأهمية أجراه الوزير الهندوكي
تدرمل ، بتوجيه من سباطانه ، حين أمر بتحرير سجلات الدولة
كلها بالفارسية ، لغة المسلمين الرسمية بالهند إذ ذاك ؛ فأقبل
كثير من عمال الدولة من المسلمين الهنود والهنادكة على تعلم هذه
اللغة ، مما أدى إلى رواجها ورجاء كبير (١) ، ففي اليوم ثانی
لغات العالم الإسلامي انتشارا بعد العربية .

ومهد هذا الإجراء لظهور الأوردوية المكتوبة ، تلك اللغة التي
هي مزيج من لغات المسلمين ولغات الهند ، والتي نشأت نشوءا
غريزيا من صلات سكان الهندستان من المسلمين والهنادكة
بعضهم ببعض ، لتأخذ صورتها الأدبية بعد قليل وتعم البلاد كلها .

الجيش : جرى سلاطين المسلمين في الهندستان على الاستعانة
في حروبهم بما كان يمدّهم به أصحاب الإقطاعات من الرجال
في الغالب . وكانت هذه الحشود ، على ضخامة عددها تجهل
أساليب القتال وفنونه عموما ولا يتيسر لها فرص المران والتدريب .
حتى إذا ما قضى أكبر على نظام الإقطاع وصارت

تأراضى كلها ملكا للدواة ، وغدت ولاياتها تحكم بواسطة
نواب للسلطان يوليهم شئونها على نظام مرسوم ، رأى أن
ينهج في تنظيم قواته الحربية نهج علاء الدين الخلابى وشيرشاه
سورى من قبل ، فتعدو للدواة قوات نظامية دائمة تقوم بدفع
تجورها من الخزانة العامة .

وكان من بين هذه القوات من يعمل تحت إمرة الپادشاه
نعمه ففى بمثابة حرسه الخاص ، ومنها من كان يعمل تحت
إمرة حكام الولايات . هذا عدا القوات الخاصة التى كان
يحتفظ بها أصحاب المناصب الكبرى فى الدولة (المصبدارية) .
وقضى هذا النظام على كثير من مساوىء سابقه ، ومنها
ما كان يبذله الأمراء عادة من الرشاوى للحصول على إقطاعات
واسعة نظير ما يتعهدون به من إمداد السلطان بالجند والمؤن ،
وما كان يستتبع ذلك من إرهابهم لسكان الإقطاع وابتزازهم
لأقواتهم ومصادرتهم لأموالهم وأملأ كههم .
هذا وكانت قوات أكبر المسلحة تتألف من المئات والمدفعية
والفرسان والبحرية .

والمشاة ، إذا استثنينا منهم حملة البنادق (بندقجى) وأرباب
السيوف (شمشير باز) ، لم يكن لهم فى المعارك شأن يذكر فى

الغالب . فعامتهم ، على كثرة عددهم ، كانوا يضطلعون بخدمة القوة العاملة ونقل المؤن ورعاية الدواب وحراسة المعسكرات ليس غير .
أما سلاح المدفعية ، وهو الذى أتى به ظهير الدين بابر إلى الهند على ما ذكرنا من قبل ، وعرفه السكجراتيون من بعد ذلك على أيدي البرتغاليين الذين كان لهم مستعمرات بشاطئهم فاستخدموه فى حروبهم مع همايون ، فقد كان مناط عناية الپادشاه الكبرى حتى كان يشرف على كل شئونه بنفسه .
وأغلب خبراء هذا السلاح كانوا من رجال فرغانة ومن العثمانيين ومولدى البرتغاليين بالهند . وبلغ من اهتمام أكبر بهذا السلاح وحده على إدخال كل تحسين ممكن عليه ، أنه احتال على تيسير استخدام قطعه الثقيلة ، التى كانت تستنفد جهود الرجال عند نقلها من مكان إلى آخر ، بأن وجه مصانعه إلى صنعها من قطع صغيرة يسهل فكها وتركيبها ويهون حملها ونقلها على جنده .
وأما سلاح الفرسان فكان هو القوة الضاربة الرئيسية فى الجيش ، حتى كان الپادشاه يوالى بنفسه التفتيش عليه ويختبر خيوله ، وينزل إلى حظائرها ، ويراقب تدريب رجاله .

وإلى جانب الفرسان كانت هناك وحدات الفيلة ، وقوام كل واحدة منها كان يتراوح بين العشرة والثلاثين . وكان

كل فيل يحمل إسمًا خاصًا به على العادة التي لاتزال تجرى بتلك البلاد حتى اليوم .

كذلك عُنِيَ أكبر بتدعيم سلاحه البحري وإن لم يبلغ به إلى درجة الأساطيل التي كانت تجوب أعالي البحار في عصره على كل حال . وأغلب سفنه كانت تعمل في أنهار الهندستان وفي حدود موانئه ، ومن بينها ما كان يحمل المدافع الخفيفة وآلات الحرب .

وقام ، بتشجيع من السلطان وتوجيه منه ، عدة مصانع لبناء السفن مختلفة الأحجام والأشكال في لاهور وأحمد آباد وكشمير . وكان يعمل على هذه السفن فريق من مهرة الملاحين الذين كانوا يفتدون من ساحل الملبار وكمباي ليلاقوا من تقدير البادشاه ما انتهى إلى تقرير رتب لهم نظير رتب الضباط في جيشه البري .

هذا وتباین أقوال مؤرخي أكبر في تحديد عدد قواته، حتى ليذهب بعضهم إلى تقويم الفرسان عنده بأربعمائة ألف والمشاة بما يقرب من أربعة ملايين .

والثابت المعروف أن الجيش الذي سار به البادشاه للقضاء على فتنة أخيه حكيم خان عند الحدود الشمالية الغربية كان يضم

قرابة خمسين ألفاً من الفرسان مع خمسة آلاف من فيول الحرب وألوف كثيرة من المشاة، وجميعهم كانوا يقاتلون، رتباتهم من الخزانة العامة. ومن الطبيعي أن يتضاعف هذا العدد حين تنضم إليه قوات الولايات، وينكمش إلى ما دون ذلك بكثير أيام السلم.

الحياة والفكرية والثقافية : وقف المؤرخ عبد القادر ابن ملوك شاه بداوني المجلد الثالث من كتابه «منتخب التواريخ» على ذكر من عاصر أكبر واختلط به من الحكماء والعلماء والفقهاء والمؤرخين والشعراء والأدباء الذين تجاوز عددهم الثلاثمائة. والواقع أن الهند لم تعرف من قبل أكبر سلطاناً مثله اجتمع حوله هذا العدد الكبير من رجال العلم والأدب، وأتصلت ندواتهم عنده ولقوا منه كل إجلال وتوقير وتقدير، حتى بلغ من احترامه لشيخه عبد النبي صدر الصدور مثلاً أنه كان يقدم إليه نعليه بنفسه حين يغادر مجلسه. بل إنه حين بلغه مقتل وزيره الفضل، وكان عالماً ومؤرخاً كبيراً مشهوداً له بسعة الإطلاع وغزارة المعرفة، اشتد حزنه عليه حتى ودّ لو كان هو المقتول مكانة، فنابغ العلماء، على حد قوله، لا يجود بهم الزمان إلا في النادر القليل، بخلاف الملوك وإن صلحوا.

كان من بين كبار المؤرخين الذين عرفهم بلاط أكبر ،
المؤرخ محمد قاسم فرشته صاحب التاريخ المعروف باسمه ، وعبد القادر
بداوى سالف الذكر ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى
ومحمد عبد الباقي صاحب مآثر رحيمى . وكان أبعد هؤلاء
ذكرا وأخدهم صيتا الوزير أبو الفضل بن مبارك العلامى الذى
نعب دورا هاما فى توجيه آراء الأدياشاه الفلاسفية ومبادئه المذهبية
على السواء . وله كتابان مهمان أولهما أكبر نامه ، وفيه
يستعرض تاريخ الدولة منذ نشأتها ، وقد أكله من بعده الشيخ
عناية الله ليم به تاريخ حكم الأدياشاه كله ، ثم آيين أكبرى الذى
يسعد ثبنا كاملا لتقاليد الدولة المغولية ورسوم البلاط ونظام
الحكومة وقوانينها ، إلى جانب ما يحويه من حديث مفصل عن
الهنداكة ورسومهم وعاداتهم وعلومهم .

ولم يكن أبو الفيض فيضى دون أخيه أبى الفضل فى نباهة
الذكر . فهذا الشاعر الذى لم يكن له نظير فى عصره ، حتى كتب فى
المنشوى والديوان أكثر من عشرين ألف بيت ، كان على نبوغ
كبير فى الكتابة والفقه ثم الطب الذى بلغ من شغفه به
أن أوقف علمه به على علاج الناس بالمجان . وترك هذا العالم
من بعده مكتبة كبيرة ضمت قرابة خمسة آلاف مجلد من

النوادر في الشعر والطب والفلك والموسيقى والرياضيات
والفلسفة والحديث والفقہ . وقد نقلت جميعها : على أثر وفاته ، إلى
البلاط بعد تصنيفها .^(١)

وإلى جانب فيضى ، اشتهر الشاعران الهندوكيان تنسى داس
وسورداس اللذان كانا يجيدان النظم في الفارسية والسندسكريدية معاً .
ولا أدل على عظيم عناية أكبر بالفنون الجميلة من مخلفات
عصره الفنية الرائعة التي يزدان بها كثير من متاحف العالم الكبرى
اليوم . ولقد وفد إلى بلاطه جملة من مشاهير النقاشين الفرس
وعلى رأسهم ميرسيد علي وعبدالصمد ، فلقوا عنده كل عناية وتشجيع .
ودفع بأكبر ولعه بهذه الفنون إلى أن يأمر بإقامة معرض للنقش
مرة في كل أسبوع تشجيعاً منه للفنانين وتشجيعاً لهمهم وإغراء
لمشاهيرهم بالقدوم إلى بلاده .

ولم يغفل بدوره كذلك عن تشجيع فناني الهنداكة حتى نشأ
من بينهم طبقة فذة غدت تنافس نقاشى المسلمين في أكثر
من ناحية (٢) .

ولا يستغرب ذلك كله من عاهل أوتي من الأحاسيس الفنية

١ --- داونى منتخب التواريخ ثالث ٣٠٥

Laurence Binyon : The court Painters of the — ٢
Grand Moghul . Oxford 1921 .

ما جعله يصرّح بأن التصوير هو ضرب من العبادة ، وأن للفنان ،
شيئا يبدو ، طريقته الخاصة بالإقرار بواحدية الخالق المبدع .
فهو ، حين يصرّ الكائنات الحية وينقش أعضائها وأطرافها
وملاحظها على لوحته ، لا بُد وأن ينصرف بذهنه وخياله إلى
التفكير في إبداع خالقها الذى نفخ فيها بما يعجز هو عن
تصويره وإبرازه .

وقد تختلف عن فنانيه لوحات كثيرة سجلت حياذ البلاط ورسومه
وكثيرا من مظاهر المجتمع لعصره في إبداع منقطع النظير .
ومدرسة النقش المغولية التى وضع أسسها أكبر لها اليوم صيتها
الذائع فى عالم الفنون على كل حال .
كذلك كانت مصانعه تخرج طُرُفا من النسيج المزركش والسجاد
والفاخر المحلى بمختلف النقوش والألوان .
ولم تكن عناية أكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير
والنقش . وما تزال الأنعام المغولية وألحانها لها سوق رائجة بالهند
حتى اليوم .

أما العمارة الهندية الإسلامية التى تعد بحق من مبتكرات
العصر الأكبرى ، فى القصور والمساجد والحمامات وغيرها من
المنشآت ، بمدينة فتحپور على الخصوص ، ما يُبعد من بين خير نماذجها

التي تجلّت رائعة فيها بعد في مثنوى تاج محل بآگرا الذي يُعدّ من بين عجائب الدنيا .

وفنون الهند هي جملة ، باعتراف المؤرخين الأوربيين . لم تكن في عصر أكبر دون فنون أوروبا منزلة إن لم تتفوق عليها في بعض نواحيها (١) .

اتّلى أكبر في أواخر أيامه بكوارث عائلية حطمت من قوته النفسية وهدّت من كيانه . من ذلك فقدد لولديه مراد ودا نيل على التوالي بإدامتهما على الشراب ، وعقوق ابنه الأكبر سليم وعصيانه له حتى دبر مقتل الوزير العالم أبي الفضل بن المبارك الأعظم خالصاً الپادشاه وأكبر مستشاريه (٢) .

واشتدّ الداء على أكبر عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م فأسلم روحه إلى بارئها في جمادى الآخر من العام نفسه .

وحاول الخان الأعظم عزيز كسكا ومعه الأمير الهندوي راجامن سنغ ، والپادشاه في أيامه الأخيرة ، أن يهدا للنبادة

V. A. Smith. History of Fine Arts in India and — ١
Ceylon. Oxford 1930 .

٢ — تكمله أكبر نامه لعناية الله ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣

بالأمير خسرو، ابن سليم وحفيد أكبر، سلطانا على الهند بدلا من أبيه الذى أدى بيفيه إلى تمكن كراهيته من قلوب الكثيرين . لكن بديرهما باء بالفشل حين قدم سليم إلى أبيه وهو فى النزاع فقلده سيف همايون وعمامته وعهد إليه من بعده^(١) .

ولم يكن أكبر بهى الطلعة ، وإنما كان قوى البنية مقداما شجاعا ، لم يتقاعس أبدا عن مشاركة جنده فى أعنف المعارك أو يتردد فى مواجهة أضرى النمرة والأسود والفيلة وأشدها شراسة فى المصطاد : كما كان يستخف بأربعين ميلا يمشيها فى اليوم الواحد : ويندفع بحصانه فى مجرى الكنجج إبان موسم الأمطار والفيضان وسيوله الجارفة .

كذلك كان أكبر شديد البر بالناس عظيم الإحسان إلى الطبقات الفقيرة خصوصا ، حتى جاوزت رحمته بهم كل مدى وشملهم عدله إلى أبعد حد .

ومن تواضعه أنه كان يتقبل من أهل الطبقات الدنيا هداياهم البسيطة الزنافة بنفسه ويضمها إلى صدره ممتنعا مع أنه كان لا يكثر هدايا الأمرء والأعيان (٢) .

١ — وقابلي « حالات » اسعد بك قزوینی ١٦٩ — ١٧١

٢ — الهند وجيرانها ١٣٧

وكان، إلى جانب نظافته الشديدة، بسيط الثياب في الغالب ، فلم يكن يميل كثيرا إلى التحلي بالجواهر ، غير كلف بأنواع المآكل والمشرب . ولقد أفلح في كمولته عن تناول الشراب ، ولكنه ظل طوال حياته مدمنا على تعاطي معجون الأفيون، وهي رذيلة ظلت تتمكن من كثير من سلاطين الهند وفارس وتركيا أمدا طويلا (١) لتوردهم موارد الردى فى سن مبكرة فى الغالب .

هذا وكان أكبر طموحا يستمتع بصفات عقلية ممتازة يسّرت له أن يقضى وقتا مرسوما فى النظر إلى شئون الدولة وما تقتضيه نظمها من ضروب الإصلاحات التى كان يجيش بها صدره ، لينصرف من بعد ذلك إلى الجلوس إلى طوائف العلماء والحكماء الذين كانوا يفدون إليه من كل أمة على إختلاف مذاهبهم ومللهم، حتى شهدت الهند فى عصره نهضة عقلية رائعة لم تكن تقل عن نظيرتها بأوروبا إذ ذاك .

وترك أكبر من بعده لابنه دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكملة مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن .

١ --- جرب البادشاه كذاك التدخين وكان التبغ حديث الورد إلى الهند . وقايىمى أسعد بك ١٦٥ --- ١٦٧ ، وفى هذه الصفحات نقاشٌ طريف بين أسعد بك وظيف السلطان الذى كان يحذره من الأندفاع وراء تقاليد الأوربيين فى عاداتهم دون تبصر .

فلما كان هو أول من انتقل بالباريين من محاربيين وطلاب
المغامرات إلى أصحاب أسرة مالكة عظيمة. ذلك أن بابر، أول
السلطانين المغول في الهند، كان قد شغل بحروبه ومغامراته وفتوحه
عجلة حياته، في حين قضى همايون الشطر الأكبر من عمره في
المنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذي كان قد انتزعه منه الأمير الأفغانى
شهر شاه سورى، وطرده من الهند كلها، ثم كتب الاستقرار على
على عرش الهند لأبى الفتوح جلال الدين محمد أكبر. فتجلت عبقريته
في تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها، حتى كانت طريقته في الحكم
عجى التي أذاعت من صيته أكثر مما أذاعته فتوحاته، فأجمع كثير من
المؤرخين على أنه أعظم ملك عرفته الهند، حتى ليسلك كذلك
بن أعظم الملوك في التاريخ طرا (١).

جهانگیر

لم يكن أكبر ، وهو من هو في رعايته للعلم والعلماء ، لينسى
لابنته سليم مقتله لوزيره المؤرخ العالم أبي الفضل بن المبارك .
كذلك لم يكن ليروقه منه ولعه الشديد بالشراب ، حتى جال
بخطاره يوما ، بتجريض من صديقه رانا من سنغ وقائده عزيز
ككا ، أن يتخطاه بولاية العهد إلى حفيده خسرو .

وحال دون تحقيق هذا الأمر حسن تدبير هذا الأمير حين
قدم إلى أبيه مستتبيا عما بدر منه من عصيان وعقوق في السابق ،
ليجلس من بعد ذلك على عرش الهند في آگرا في الثامن من
جمادى الثاني عام ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م باسم السلطان أبي المظفر
نور الدين محمد جهانگیر .

وبرغم ما كان من ميل هذا الأمير للشراب ، فقد كان على
درجة كبيرة من الثقافة ، شغوفا بالمعرفة التي نشأه أبوه عليها ،
متشبها بالتسامح المطلق الذي دأب أبوه على غرسه في نفسه وبشئة
فيه ، حتى غدا في ذلك كله بصورة منحجرة لسلفه أعظم سلاطين

منذ المسلمين بلا شبهة .

ودفع جهانگیر حرصه البائع على ضمان إجراء العدل
ببطلان في دولته ، بالوقوف على شكاوى رعاياه والظفر في تحقيقها
بنفسه ، إلى أن أمر بمد سلسلة العدالة التي ذاع صيتها عنه : « أول
ما أمرت به بعد جلوسى على العرش هو مد سلسلة العدالة لأطلع
بنفسى على شكاوى المظلومين من إهمال رجان ديوان العدالة
للمرهم ، » (١) . وكانت سلسلة من الذهب الخالص تطول
بلائين ذراعا ، وتتدلى منها أجراس سبعة ، وتمتد من شرفة
البرج السلطاني الخاص بقلعة آگرا لتبلغ أسطونا شُدت إليه
عند شاطئه جمته . والغالب أن سطوة الحكام ونفوذ العمال
كان أقوى من إرادة السلطان ، فلم تُحرك هذه السلسلة وتهز
أجراسها إلاّ مراتٍ قليلةً .

هذا كما كان في أسفاره ورحلاته الكثيرة لا يني عن تفقد
أحوال الناس والجلوس إليهم وتحقيق مظالمهم بنفسه .
دستور أمل : ودعم جهانگیر صنيعه هذا بإصدار « دستور
أمل » ، وهو أنتنا عشرة وصية وجهها إلى عماله ليسيروا على

١ - واقعات جهانگیری ص ٢٨٥ . وهي تقليد جرى عليه بعض حكام الصين الإقدمين .

هدايا في علاقاتهم برعاياه وتدييرهم لشئون الدولة .
وقد نظم هذا الدستور وظائف الدولة ومن اصحابها المدنية
والعسكرية والدينية على السواء ، وفسر شئون الميراث وقوانين
الضرائب ، ودفع عن كاهل الأهلين ما كانوا يلزمون بدفعه
للولاة والعمال من الضرائب ليفيدوا منها لأنفسهم ، كما حظر
تطبيق العقوبات التي تؤدي إلى جـدع الأنف أو قطع الأذن
أو بترأى عضو من أعضاء البدن مهما بلغ عظم ذنب المذنب . كذلك
حرّم هذا الدستور تعاطى الشراب وصناعته وتجارته ، وحضّ
على إقامة دور الشفاء في كافة أنحاء البلاد وتزويدها بالأطباء ، على
أن تقوم الدولة بالإنفاق عليها ، فتصرف الغذاء والدواء للمرضى
بالمجان ، وحرّم على الولاة والعمال استخدام أقاربهم في مناصب
الولايات أو مصاهرتهم إلى الأهلين دون إذن صريح من
السلطان ، وحثّهم على إضفاء الأمن والطمأنينة على الناس
فلا تُغتصب أملاكهم أو أموالهم ، وأن يكفؤهم أخطار
اللصوص وقطاع الطرق بتعمير الأرض الخلاء التي يأوى
الأشرار عادة إليها ، وذلك ببناء الدور والمساجد بها وحفر
الآبار فيها فيأنس الناس إليها .
كذلك نظم هذا الدستور مسكوكات الدولة من الذهب

والفضة والنحاس وجعل لكل صنف منها علما مرسوما^(١) .
ونهج جهانتكبير نهج أبيه أكبر في التشبث بالتسامح المطلق
أزاء رعاياه من الهنادكة على الخصوص فقرَّبهم إليه وفتح لهم باب
المناصب الرفيعة في الدولة .

والثابت أن هذه السياسة قد ساعدت في كثير من الأحوال
على إقرار السلام في أراضي الدولة المغولية المترامية الأطراف
أكثر مما عاونت عليه قواتها العسكرية وآلاتها الحربية . وحين
عدل حكام هذه الدولة فيما بعد عن سياسة التسامح هذه التي جرى
آباؤهم عليها ، أخذت الدولة تتعرض لمتاعب شديدة دفعت بها
آخر الأمر في طريق التفسخ والانحيار .

ولئن كان السلطان قد شمل صديقه راجا برسنغ ديو ، قاتل
الوزير أبي الفضل ، بالكثير من الرعاية ، فإنه لم ينس ، على كل
حال عبد الرحمن خان خانان بن الوزير المقتول فرغه مكانا عليا .
كما تغاضى كذلك عن فعلة القائد عزيز ككا وراجا من سنغ ، حين
كادا يميلان بأبيه إلى إبعاده عن ولاية العهد ، فأجزل عطاءه لهما ،
وإن لم يغمض عينيه أبدا عن مراقبة سلوكهما وسلوك ابنه خسرو
الذي كادا يناديان به مكانه في السابق .

ثورة الأمير خسرو : ما غدت نوازع الشباب الغض وأطباعه أن تغلبت على خسرو وهو يعلم أن له من بين الكبار في الدولة ظهراء في آماله ، فانطلق من حصن آگرا ، حيث كان أبوه يستبقيه به تحت عينيه ، واتجه إلى البنجاب في بضع مئين من رجاله وقد رفع بنود العصيان .

وانضم إليه في الطريق بعض صغار القادة ومعهم عبد الرحيم ديوان لاهور ، الذي اتخذه وزيراً له ، كما نفحه گورو أرجونا زعيم طائفة السنيك وصاحب جرانث صاحب ، أقدس كتبهم ، قدراً كبيراً من المال بدوره ، حتى إذا ما بلغ لاهور ، امتنع دلاور خان أمير البنجاب عليه بها ، ليُقبل السلطان من بعد ذلك بنفسه فيصدّه عنها ويوقعه في أسره ويمثل بمن ماله في عصبانه من القادة أشنع تمثيل (١) .

وكان مادفع بجهانگير إلى خروجه بنفسه عَجِلاً في أثر ابنه ، هو ما خافه من احتمال اتصاله بعدوّه راجا من سنغ في البنغال ، أو الأوزبکگ والفرس عند حدوده الشمالية الغربية فيفتح بذلك باباً للبتاعب والأخطار التي لا تحمد عاقبتها .

على أنه ارتكب خطأ شنيعاً حين أمر بقتل زعيم السنك ،
برو ، ولده ابنه الثائر بالمال ، وكان في مقدوره أن يلقى بهذا الشيخ
في الحبس حتى يوافيه أجمله بسلام ، فيتجنب بذلك إثارة عمداً
منذفة السنك الكبيرة القوية التي رفعت شهيداً إلى مرتبة
تنديسين ، وراحت تنادى على طول الزمن بالنار لمقتله ، فساهمت
بمئاتها هذا مساهمة فعالة في تعجيل انهيار بناء الدولة المغولية
حين بدأ الضعف يعتمدها .^(١١)

وكان الحبس لم يفتّ في عضد الأمير خسرو ، فإغدا بعد
قليل أن استمال إليه نفرأ من حراسه ليتآمروا معه على قتل
السلطان . حتى إذا ما وقف جهانكير على تدبيرهم ، حين بلغ لاهور
قادمًا من كابل حيث كان يستجم ، أمر بقتل المتآمرين ، دون
أنه الذي سمعت عيناه وإن ترفق به الكحال حتى استرد بعض
بصره بعد قليل . وقد بقي ، خسرو في محبسه حتى وافاه أجله بالدكن
عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م .^(١٢)

اضطرابات البنغال : أدى اضطراب الأحوال في البنغال ،
كثرة توالى الحكام عليه وقصر إقامة كل واحد منهم به ، إلى أن

Prasad, Muslim Rule. p. 432 — ١

٢ — انتخابات جهانكير شاه ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

جمع الأفغان هناك شملهم من جديد ، فراحوا بزعامة من يدعى عثمان أفغان ، يثيرون القلاقل والفتن ، حتى قدم إليهم القائد مهايت خان فقضى على عصيانهم وأقر الأمور في هذه البلاد من جديد . وكان لحسن صنيع جها نسكر مع زعماء الثوار في البنغال ، حين عفا عنهم وقاد بعضهم مناصب في الدولة ، أكبر الأثر في ركونهم إلى طاعته وتفانيهم في خدمته .
وكذلك فعل السلطان مع رانا أمار سينغ صاحبِ موار فوصله وابنه وبالغ في إكرامها . (١)

مَلِكْ عَنبر : كانت الدكن قد ظهر بها قبيل وفاة أكبر وزير حازم وقائد شجاع هو ملك عنبر الحبشى وزير ملوك نظام شاهى أصحاب إمارة أحمد نگر .
وقاد هذا الوزير بصيرته النافذه إلى الإفاده من المرهتها الهنادكة وما عرفوا به من شجاعة وتهور في القتال ، فدر بهم على حرب العصابات ومعارك الأدغال .
وقد استفحل أمر هذه الطائفة حين بدأ الضعف يدب في الدولة المغولية . فصارت لهم دولة وقوة رهيبه طفقت تهدد حكام

الهند المسلمين تهديدا خطيرا .
وأمكن لهذا القائد الحبشى أن يسترد أغلب الأراضى عند
أسير گاه وما حولها ، وهى التى كان قد استولى عليها أكبر ومنعه
خروج ابنه سليم عليه من التوغل عند الجنوب منها . حتى إذا ما
توالى قواد جهانگیر على الدكن فصدّهم عنها وأرغمهم على
الارتداد إلى الكجرات ^(١) ، بعث السلطان بالخان خانان فهدّ
الأرض بضرب العدو ، ليقدم شهزادة خرّم من بعد ذلك ويقر
الأمور هناك بعد حروب طويلة انتهت بضم أقاليم الدكن الشمالية
إلى أراضى الدولة ، وإن لم تكسر شوكة الوزير الحبشى ورجاله ،
حتى تمكن خليفته حميد خان ، وكان من بنى جلدته ، أن يصرف
قادة السلطان عن حربه على قدر كبير من الأموال .
قد أقام السلطان ابنه خرّم نائبا له بالدكن ولقبه بشاهجهان وهو
اللقب الذى عُرف به من بعد ذلك فى التاريخ .

كذلك كتب لجهانگیر التوفيق بالاستيلاء على حصن كنجرا
الهندوكى الشهير عام ١٠٣١هـ / ١٦٢١م بعد حصار طويل دام أربعة عشر
شهرًا . وكان قد امتنع من قبل على فيروز تغلق وأكبر نفسه ، بل
وكل الفاتحين المسلمين منذ أيام محمود الغزنوى الذى تم له اقتحامه .

فانتهب ما بمعبد نكر كُت الذي يقع في نطاقه من أموال وكنوز (١)
ثورة شاهجهان: أدى ضياع قندهار من أيدي الدولة
المغولية إلى إثارة حفيظة السلطان على ابنه شاهجهان، بتحريض من
زوجته نورجهان ، حتى صار الحال إلى خروج الابن على أبيه
وجهره بعصيانه له .

ذلك أن هذه المدينة فضلا عن أهميتها التجارية الكبيرة ،
حتى كان يمر بها في العام الواحد ما ينوف على أربعة عشر ألف
جمل تحمل البضائع فيما بين الهند وفارس ، كانت موقعا حريبا
خطيرا عند حدود الهند الشمالية الغربية ، مما حدا بباير وأولاده من
بعده أن يحرصوا على الاحتفاظ بها في أيديهم

ولئن كان الفرس قد أكرهتهم بعض الظروف على التخلي
عنها إلى حين ، فإنهم لم يعدلوا أبداً إلى التنازل عن حقهم الثابت
فيها أو تغفل عيونهم عنها أبداً . فانتز الشاه عباس الصفوي
فرصة اضطراب الأمور ببلاط الهند عند وفاة أكبر فزحفت
قواته إلى المدينة ، فزال أميرها شاه بگ خان ممتعا فيها حتى
وافته قوات جهانگیر فأبعدت هؤلاء الغزاة عنها .

هنالك شرع الشاه الفارسي يلاحق محاولاته الودية عند

السلطان الهندي عاتيه يسترد مدينته سليما . حتى إذا ما أيقن بفشل
السياسة به بادر عام ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م بضرب الحصار عليها .

وحين طالب جهاننكير إلى ابنه شاهجهان أن يبادر بالسير من
الدكن إلى قندهار لدفع الفرس عنها ، خاف إن هو سار إلى خارج
الهند ، أن تكيد له زوج أبيه نورجهان في غيابه ، وكانت قد
شرعت تحشد جمودها ومعها أخوها آصاف خان لحمل السلطان
على جعل ولاية العهد للأمير شهريار أصغر أبنائه وزوج ابنتها من
زوجها الأول شير أفكن ، فظهر بعصيانه لأبيه حتى رفض أن
يسير إليه جند الدكن حين طالبه بها .

هنالك اهتبلت نورجهان هذه الفرصة التي سنحت لها بذلك ،
فراحت تحط من قدر الأمير الثائر وتُعلي من قدر ختنها أصغر أبناء
السلطان حتى عقد له جهاننكير لواء حملة قندهار .

وفيما كانت السلطنة منهمكة في تنفيذ خططها ، سقطت
قندهار بأيدي الفرس ، لتفقد من بعد ذلك رسل الشاه الصفوي إلى
جهاننكير وتؤكد له حق أميرها المتوارث وقومه في هذه المدينة
فيتقبلهم بقبول حسن ويبعث في أثر قواته يأمرها بالارتداد إليه .
وقوى من جبهة نورجهان أن كان يناصرها في خططها فريق
من كبار القواد والأمراء ، وفيهم آصاف خان ومهابت خان وبرسنغ

بندلا قاتل أبي الفضل ؛ وها هو السلطان نفسه يسير برأيها ؛ وموارد الدولة كلها رهن تصرفها .

واشتبك الخصمان ، السلطان وابنه ، في قتال عنيف عند الجنوب من دهلي . حتى إذا ما دارت الدائرة على شاهجهان ، فاعتذر ملك عنبر وسلطان غولكونده عن مديد العون له حين أكره على الارتداد إلى الدكن ، انطلق إلى أوديسه فتم من هناك إخضاع البنغال وبهار له . على أن فشل في الاستيلاء على أوده والله آباد ، وما تكشف له من تفشى الخيانة بين صفوفه ، اضطره إلى الارتداد إلى الدكن من جديد ، فرحب به ، في هذه المرة ، ملك عنبر الحبشى حتى كاد يشتبك إذ ذاك مع قوات الدولة في بيجاپور .

ووضح لشاهجهان آخر الأمر ضعف مركزه بالدكن ، فلم يكذب يكتب إلى أبيه مستتبيا حتى حملت نورجهان السلطان من فورها على الصفح عن ابنه ، على أن يبعث بابنيه ، دارا شكوه وأورنگزيب ، وكانا حديثين إذ ذاك ، رهائن بدار السلطنة (١) .

مهابت خان : لم تكن نورجهان لتذهب هذا المذهب في حمل السلطان على الإستجابة إلى ضراعة ابنه الأكبر لولا ما بدالها من أخطار تهدد بالقضاء المبرم على خطتها وهدفها الأكبر في

الحصول على البيعة لخمها شهر يار .

ذلك أن مهابت خان ، وهو ذلكم القائد القدير الذي تم على يديه إقرار الأمور بالبنغال و دحر قوات شاهجهان من بعد ذلك ، ساق ذرعا بنورجهان التي غدت تسيطر بنفوذها على شئون الدولة ، التي أدى بها غرورها إلى الخط من أقدار كبار الرجال ، فانطلق يدعو لأخذ البيعة لبرويز ثاني أبناء السلطان ، وكان طوع يمينه ، ضمن بذلك خلاص الأمر له مستقبلا .

وأدى غلو السلطان ، بتحريض من زوجته ، في اضطهاد ابنه وقائده حين أمر الأول بالسير إلى الدكن والثاني بالتوجه إلى البنغال ، إلى أن فرّ الإثنان من عنده وخرجا عن طاعته .

وما غدا مهابت خان أن كمن للسلطان . وهو في طريقه من لاهور إلى كابل قادما من كشمير ، فسقط عليه في خمسة آلاف من محاربي لراجپوتيين الأشداء عند نهر جهلم ، رافدا للسند . وأوقعه في أسره (١) . ولم تغلح نورجهان أول الأمر في فك أسار زوجها ، فباءت مواتها بالهزيمة وسقطت وأخاها بدورهما في الأسر ، لتصل بداهتها وحيلتها من بعد ذلك إلى الإيقاع بمهابت خان وهو يسير في

حفنة قليلة من رجالة ، حتى لم يتمكن من الخلاص إلا بشق الأنفس
فهرب إلى الدكن .

هذا وكان شاهجهان قد سارع بدوره لنجدة أبيه حين علم
بوقوعه في الأسر ، فلم يباغى السند حتى وافته رُسل
نورجهان تنبئه بما أشاعه خبر مقدمه من الاضطراب في صفوف
مهابت خان ، حتى تم لهم الخلاص مما وقعوا فيه ، وتشير إليه
بالارتداد سريعا إلى الدكن لإقرار الأمور فيها. (١)

نورجهان : هذه السيدة ، التي صارت صاحبة السلطان المطاق
في الهند في عهد جهانگیر ، هي ابنة تاجر فارسي يدعى ميرزا
غياث ساقته الأقدار إلى بلاط أكبر نولى ديوان كابل واضطلع
به في مقدره فائقة . وما غدت ابنته هذه ، وكانت تدعى
مهر النساء أن بنى بها مغامر فارسي آخر يدعى علي قلى استاجلو
ويشتهر كذلك باسم شيرافكن ، وكان قد قدم الملتان فالتقى بالخان
خامان الذى ألحقه بأحد المناصب في الجيش .

وصحب علي قلى هذا الأمير سليم (جهانگیر)
حين سيّره أبوه أكبر لقتال رانا موار ، ولبث معه

كذلك بعض الوقت بالدكن ؛ حتى إذا ما خرج الأمير على أبيه ، كان ذلك القائد الفارسي من بين الذين تخلوا عنه من القادة وتركوا معسكره .

وحين ولي جهانگیر العرش ، فتناسى لكل رجال أبيه السابقين ما كانوا قد ارتكبوه في حقهم وشمهم جميعا ببرّه ، عهد إلى شيرا فگن بدوره بأحد المناصب في البنغال ؛ حتى إذا ما استراب في اتصاله بعصاة الأفغان هناك ، فبعث إلى نائبه البنغالي قطب الدين يأمره بتسييره إليه ، اهتبل هذا القائد فرصة انفراده بحاكم البنغال فهوى عليه بسيفه حتى كاد يقضى عليه ، لولا أن أسرع إليه حرس قطب الدين فمزقوه إربا بسيوفهم وأنفذوا أميرهم .

وسئرت أرملة شيرا فگن عقب ذلك إلى البلاط فلبثت به سنوات أربع حتى بنى بها جهانگیر عام ١٠٢٠ هـ / ١٦١١ م . وما تقوله الرواية عن غرام السلطان بهذه السيّدة منذ أن رآها بالدكن أيام أبيه ، حيث كان زوجها يسير في حاشيته ، حتى انتهى إلى تبرمقتل زوجها بالبنغال لتخلص له ، قد نجد له سنداً في حملة السلطان نفسه ومؤرخيه على شيرا فگن ، حين يصفوه بأنه كان مجرد ساقٍ عند الشاه الصفوي إسماعيل الثاني ، وأنه سار سيرة أهل

البيغى والفساد فى البنغال (١) .

ولعل بناء جهانگير بهذه السيدة، بعد أن تركها تقيم سنوات أربع فى حرم أمه ، إنما كان فى الغالب لينسى الناس قصتها ولتخف لوعتها على زوجها وما لقيه من مصير أليم . وأيضاً ما كانت حقيقة المسألة ، فإن هذه السيدة ، التى كانت لاتزال على جمال فائق برغم بلوغها الرابعة والثلاثين من عمرها حين بنى بها السلطان . قد أوتيت من قوة الشخصية وحدة الذكاء ورجاحة العقل ما يسر لها أن تغدو صاحبة السكامة الأولى فى الدولة، حتى خضع لمشيمتها السلطان والقادة وتقبلوا جميعاً مشورتها بأحسن القبول . ولا أدل على دهائها وسعة حيلها من نجاحها فى تخليص نفسها وزوجها من أسر القائد مهابت خان والإيقاع به بدوره على ما فصلناه من قبل .

واشتهرت هذه السيدة كذلك بقوتها البدنية الفائقة وشجاعتها المخارقة ، حتى انبرت لصراع أشد الكواسر فتكا ، كما كان لها كذلك مشاركة فى الدراسات الأدبية وتفهن ذائع فى تصميم الأزياء ونقوش النسيج والجواهر والحلى (٢) .

١ — اقتبال نامه ٤٠٢ ، ٤٠٥

٢ — Muslim Rule. 441

ولقد كان حريا بنورجهان أن تقصر جهودها على وجوه الخير التي حققت الكثير منها ، حتى نهضت بالمرأة الهندية ورفعت الكثير من الجور عنها وساهمت مساهمة فعالة في معاونة الكثيرات من الفتيات الفقيرات على الزواج . فقد جرها ما صار لها من بالغ النفوذ على زوجها ، حتى ضربت السكة باسميهما (١) وذيلت مراسيم الدولة بخاتميهما جنباً إلى جنب ، إلى أن طفقت ، بوحي من أطعماها ، تعمل لجل السلطان على البيعة لأصغر أولاده وختمها الأمير شهر يار ، فأثارت بذلك ثائرة شاهجهان ، صاحب الحق الأول في ولاية العهد ، حتى جبر بالخروج على أبيه . ونهج نهجه كذلك طائفة من كبار رجال الدولة حين رأوا هذه السيدة تعمد ، بدافع من غرورها وكبرياتها ، إلى محاولة النيل من أقدارهم ، لتزعزع هذه الدسائس والفتن كلها من بناء الدولة وتعوق من إقرار الأمور فيها من بعد ذلك .

وساعد على إطلاق يد نورجهان في تصرف شؤون الدولة ، فضلا عن وله جهانگیر بها ، ما كان من إدمانه على الشراب ، الذي قضى على أخوية وهما في ميعة الشباب من قبل ، وتعاطيه

للأفيون ، حتى قضى فى ٢٨ صفر من عام ١٠٣٧هـ / ١٦٢٧ م ،
والكأس فى يده ، بعد أن حكم اثنين وعشرين عاما .

شخصية جهانگير : لولا محنة الشراب التى ابتلى بها جهانگير
لأفادت الهند منه خيرا كثيرا .

فلقد كان لهذا السلطان الكثير من صفات أليه العالیه التى أرادها
له حين حرص على تزويده بالكثير من العلم والمعرفة والفضائل . فنهج
نهج التسامح المطلق فى حكمه وقرّب إليه المسلمين والهنّاكة على
السواء ، ولاطف الأوربيين ومبشّريهم حين قدموا إليه .
هذا ، كما كان له مشاركة كبيرة فى الدراسات الأدبية
والتاريخية ، والمسام واسع بعلوم الحيوان والنبات خاصة ، وشغف
بالغ بالحدائق وتنسيقها بل وتزويدها بكل نبت جديد ، مما لم تكن
تعرفه الهند ، على ما كان يفعله جدّه بابر من قبل .

وبلغ من رسوخ قدم جهانگير فى الفنون الجميلة ، وبخاصة فى
فن النقش والتصوير ، أنه كان فى مقدوره أن يميز نقوش كل فنان
بخصائصه ؛ فى سهوله ويُسر . حتى عند ما يشترك جملة منهم فى نقش
واحد (١) . وحين كان يعرض عليه زواره من الأوربيين صور

تاريخهم وأمرائهم ، كان يأمر نقاشيه بنقلها ، تنوياً ، ليزين بها
مخدرات بلالطه .

وقد كتب بدوره سيرته ، على غرار ما فعل آباؤه في الغالب ،
ضمنها الكثير من أعماله ومشاهداته . ويؤكد صدق روايته
عموماً ، ما كتبه معاصروه من الأوربيين عن هذه البلاد حين
زاروها (٢) .

البريطانيون عند جهانگیر : أدى ما أذاعه البرتغاليون بأوروبا عن
سلخ ثراء الهند الطائل ، وما كانوا يرونه من كرم حكامها وترحيبهم
بالمسيحيين وملاطفتهم لهم ، أن قصد هذه الأرض في القرن
الثامن عشر الميلادي نفرٌ من تجار الهولنديين والبريطانيين
ديفرنسيين ليبيغى كل واحد منهم لأتمته قدرا من الامتيازات
تخارها التجارة وباطنها وهدفها الاستعمار .

وسبق البرتغاليون الأوربيين جميعا إلى الهند على ما فصلناه
من قبل ، ثم جاء الهولنديون في أثرهم ، وكان لهم نشاط تجارى
مدهوظ في جزر الهند الشرقية ، وفي جاوه وبتافيا على الخصوص ،
تبعجوا في إقامة بعض مصانع لهم بسورات بالكجرات وعند
سواطىه قيايانگر وغولكونده الشرقية ، ودعموها بالحصون

لتقف في وجه منافسيهم من البرتغاليين الذين كان لهم عند دولة المغول مقام حميد . وما زالوا يجدون في نشر أسواقهم بالهند حتى بلغوا بها آگرا نفسها (١) .

واقننى البريطانيون أثر الهولنديين في غزو الأسواق الآسيوية . والهندية بخاصة . وجاء منهم إلى الهند عام ١٦٠٨م ولیم هوکنز ، فكان أول بريطاني يظهر في آگرا ويلتقى بالسلطان . وحين عرض على جها نگیر رسالة من مليكة جيمس الأول يرجوه فيه تيسير أمور التجارة الإنجليزية ببلاده ، احتفى به السلطان أول الأمر احتفاء كثيرا حتى أذن له بمشاركته مجالس شرابه . وبقي عنده فترة من الزمن ، حتى بلغ البرتغاليون بدسائسهم إلى تنفيره منه ، فرجع إلى بلاده دون أن يحقق غرضه على الوجه الذى ابتغاه . وكان مما ألقاه هؤلاء إلى السلطان في شأنه أنه لا يعدو أن يكون رسول ملك صغير على جزيرة صغيرة ، تدعى إنجلترا ، أغلب سكانها من صيادى الأسماك . (٢)

ومهد ازدياد النفرة بين حكام الكجرات والبرتغاليين

ومشربهم ، إلى الترحيب بتوماس رو مبعوث ملك الإنجليز حين
وعاد إلى هناك من بعد ذلك عام ١٦١٥ م ، فاستطاع بلباقته
وعزمه وما جلبه معه من الطُّرف والجواهر والحلى ، وما قدّمه
لرهبان الدولة من الهدايا الفاخرة ، أن يبلغ عند السلطان مكانة
مستويزة ويصل إلى ما يريد. فبُنيت شركة الهند الشرقية البريطانية
أفدائها في أماكن عدّة ، وصار لها مصانع في سورات ، وعند
ساحل كوروما ندل ، وغوالكونده ، وإلى الجنوب من مدراس .
وقد وصف هذا السفير وسلفه ، سلطان المغول الهندي
وبلاطه وما كان له من أبهة بالغة ، كما تحدثنا عن نظام حكمته
وجيشه وتقاليد القوم ورواج الثقافة عندهم .

هذا ، وكان التجار الأوربيون يحرصون عموما على أن يجلبوا
إلى الهند كل طريف من منتجات بلادهم ويغمروا أسواقها
بالمكاليات وأدوات الزينة التي كان الناس هناك يكافون بها كفا
شديدا ويتمتتون عليها تهاافتا عظيما ، ليأخذوا منهم في نظيرها
الواد الأولية والبحار والقطن والنيلة ، فيجنون من مقايضاتهم هذه
أباحا طائلة وغنّما وفيرا . وكانت هذه المقايضات تجري في
نالب في موافى ، بروج وسورات وكبای وقاليقو طثم في كلكتا

من بعد ذلك . (١)

وكان مما يَسَّر للبريطانيين على الخصوص غزو أسواق الهند،
خلو جالياتهم أول الأمر من المبشرين وحرصهم على تجنب التدخل
في شئون الناس وتظاهرهم بالموودة والمداهنة لهم .

وإدّى تعرّض البرتغاليين لبعض السفن التي كانت تحمل
بضائع برسم السلطان ، مع نفور الناس منهم ، إلى أن أغرى جهانگیر
البريطانيين بقتالهم ، بعد أن طردهم من بلاطه ، فنزلت بهم في البحر
ضربات قاصمة .

وكسب التجار البريطانيون بصنيعهم هذا امتيازات أخرى
ما زالت تزداد على مر الزمن ، وما غدوا يدعمونها بالخبث والدهاء
ويشبتونها بالعدو والخيانة حتى وضعت بريطانيا أيديها على
شبه القارة الهندية كلها .

شَاهِجَمَان

حين مات جهانگیر سارع آصاف خان بإنباء صهره شاهجهان بالمكن بالخبر، ثم عمد من فوره إلى إخراج داور بخش، حفيد السلطان الراحل من ابته خسرو؛ من محبسه وأجلسه على العرش، ليتقى بهذا الإجراء الموقوت ماعسائه أن يحدث من اضطراب الأمور في المدينة، حتى يتأتى له تخلص أولاد شاهجهان، محمد داراشكوه، وشاه شجاع، وأورنگزيب، وكانوا جميعا يقيمون عند نورجهان^(١) منذ أن بعث بهم أبوهم رهائن في دار السلطنة. ولم تكن نورجهان لترضى بما ذهب إليه أخوها آصاف فخرت ختنها الأمير شهر يار على أن يتأدى بنفسه في لاهور، قصبه البنجاب، سلطانا على الهند. وظاهره على هذا الأمر أمير من أولاد عمه دانيال، يسارع إليه من بعد ذلك آصاف خان بنفسه ويقتحم المدينة عليه ويلقى به في الحبس بعد أن سُملت عيناه.

وتناهى خبر ذلك كله إلى شاهجهان ، ولما يبرح الدكن بعدئذ ،
فكتب في التتو إلى صهره آصاف خان يحرضه على القضاء على منافسيه
جميعا ، فكان لتنفيذه كل ما رغب فيه زوج ابنته أكبر الاثر في
ارتفاع مكانته عنده وازدياد نفوذه في البلاط بالتالى ، حتى صار
وزير السلطان الاول ولقب بيمين الدولة . ولم تكتب النجاة
من مذبحه آصاف خان تلك إلا لداوربخش فلاذ ببلاد فارس
حتى أواخر أيامه .

هنالك لم تملك نورجهان بإزاء ذلك كله إلا أن تعتزل الحياة
العامة . وقد تناسى لها السلطان الجديد كل ما كان لها معه من
عداء وأجرى عليها رزقا حسنا . ووافاها أجلها بلاهور
عام ۱۰۵۵ هـ / ۱۶۴۵ م فثويت إلى جوار زوجها جهانكير بيستان
دلکشا بظاهر قصبه البنجاب .

ولد شاهجهان عام ۱۰۰۰ هـ / ۱۵۹۲ م ، من أم هندوكية ، -كأبيه-
هى ابنة رانا مروار . وهو ثالث أبناء جهانكير وأقدرهم جميعا ،
اتصف برجاحة العقل والذكاء وقوة العزيمة حتى كان جدّه أكبر
شديد الاعتزاز به كثير الحذب عليه . وقد عرف دون سائر
أمرائه أسرته السابقين بهزوفه ، فى الغالب ، عن مقاربة الشراب
مع مجانبته اللهو والعبث . وكفلت له صفاته العالية هذه ثقة أبيه

فيه دون أخويه : خسرو ، الذى عمد إلى عقوقه له منذ صغره .
بيروز الذى لازمته العلل وضعف الإدراك منذ ولادته ، وكان
بنيهما يدمن الشراب فقضيا به فى حياة أبيها .
وراد من قدر هذا الأمير عند أبيه ما أظهره من مقدرة وكفاءة
فى حرب الراجپوتين عند موار ، وما أبداه من حنكة ودراية
حين أرغم ملك عنبر الحبشى على قبول شروطه بعد ما أنزله من
الجزائم المتكررة بقوات الدولة ، فأنعم عليه بلقب شاهجهان
وعهد إليه بإدارة حكومة الدكن . حتى إذا ما توجهت
نورجهان الخيفة من علو شأنه نخشيت أن يطغى بنه وذه على
سلطانها ، راحت توقع ، بالدس ، بينه وبين أبيه ، فاعدا أن
رفض السير إلى قندهار حين طلب إليه أبوه ذلك - وكان قد بلغه
ما تدبره زوج أبيه لجل السلطان فى غيبته على البيهة إلى ختنها
أصغر الأمراء شهر يار - لينتهى به الحال من بعد ذلك إلى
الجهر بعصيان طال أمده حتى عادت المياه بينهما إلى مجاريها من
جديد على الوجه الذى فصلناه من قبل .

وحين دخل جهانگیر فى النزاع ، تدبر آصاف خان
الموقف ، على ضوء مصالحه الخاصة ، فى روية وحذر ، فأثر
أن يقف إلى جانب ختنه القوى الرشيد شاهجهان معرضا عن أخته

نورجهان وختنها شهریار ، لیصل من بعد ذلك - وفق ما قدر
ودبر - عند السلطان الجديد إلى أعلا المناصب ویصیر له بالدولة
شأن وأی شأن .

ممتاز محل : بنی شاهجهان عام ١٠٢١ هـ / ١٦١٣ م وهو فی
صدر شبابه بأرجمند بانویبگیم ابنة آصاف خان وهی الی تشتهر فی
التاریخ باسم ممتاز محل أو سیده التاج .

وهذه السیده، الی حرص أبوها علی تنشئتها تنشئة طیبة وتزویدها
بالعلوم والآداب منذ صغرها ، كانت علی جمال فان وخلق نبیل
وصفات عالیة أدت بها إلى ملازمة زوجها فی کل المحن الی
مرت به ، إبان خلافه مع أبیه وحرابه معه . فی وفاء وإخلاص
قل نظیره . وحين رقی زوجها العرش صارت له خیر ناصحة
ومرشدة ؛ فلم یسبدها منها أبدا ما كان من شأنه أن یغضب رجال
الدولة أو یشیر ثائرة القادة ، وإن أخذ علیها بعض المؤرخین دفع
زوجها ، بوازع من تقواها وورعها ، إلى العدول بعض الشیء
عن التسامح المطاق الی كان یصطنعه آباؤه بأزاء الهنداکة
والمبشّرين المسیحیین . ولعل شاهجهان إنما منع ، بوحی منها كذلك ،
تجوّد الناس للسلطان ، علی ما كان متبعاً منذ أيام أكبر ، وعاد

الدولة إلى اتخاذ التقويم الهجرى فى أعمالها (١)، وحرّم التطاول على
قيام الخلفاء الراشدين عند شيعة بلاده ، وحدّ من بناء معابد
جديدة للمنادكة .

ولم يبظر ممتاز محل ما كان لها من نفوذ بالغ و ثراء طائل ،
فكانت تقمى على البر بالفقراء والأرامل ، وتعين بماها الفتيات
الغقيات على الزواج ، كما وسعت رحمتها كثيرا من المذنبين ، حتى
كانت تباع بتدخلها عند زوجها إلى ردّ حياتهم عليهم فى الغالب ،
وإعادة أصحاب المناصب منهم إلى مناصبهم (٢) الأولى .

ووافها أجليا عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م وهى تضع طفلها
الرابع عشر ، فزن عليها زوجها حزنا شديدا ، حتى عزف عن كل
مباهج الحياة برغم امتداد الأجل به من بعدها خمسة وثلاثين عاما .
وقد أذاع من صيتها ذلك المشوى الفخم الذى أقامه زوجها لها ، فكان
من آيات وفائه لذكرها . ويعرف هذا الضريح باسم « تاج محل »
ويُعد بحق من بين روائع الفن المعمارى فى الدنيا .

ثورات الدكن : تعرض شاهجهان فى بداية حكمه لبعض

١ — بدلا من التقويم الألى الأبرى

٢ — Muslim Rule. p 485

ثورات في الدكن ، كان منها ثورة راجا ججهار سنغ في بُندخاند . ذلك أن هذا الأمير الهندي كان قد ورث عن أبيه برمن سنغ ، قاتل أبي الفضل ، أموالاً طائلة ، فجال بخاطره أن يناهض الدولة في قوات أبيه السابقة ، وكانت بدورها وفيرة العدد ، حتى اضطر السلطان أن يسيّر إليه قائده مهايت خان في سبعة وعشرين ألفاً من الفرسان وستة آلاف من المشاة ، فأرغمه على الإستسلام له ، ليعاود عصيانه في العام التالي من جديد ، وينطلق ينتهب أراضي جيرانه من الهنادكة ، ولما كان خروجه ماغداً أن انتهى به إلى مقتله وولده بكر ماجيت .

و فرغ شاهجهان من هذه الفتنة لتنتقل قواته في العام الثاني من حكمه في أثر قائد أبيه السابق خان جهان لودهي حين أشعل بالدكن بيران ثورة ثانية . فقد عمد هذا القائد الأفغاني ، عقب وفاة جهانگیر وقبل بلوغ شاهجهان العاصمة ، إلى الزحف إلى ماندو والاستيلاء على مقاليد الحكم فيها . وأطمعه عفو السلطان عنه من بعد ذلك حين ولاه بعض الدكن ، فانطلق يعنف بالأهلين ويشتط في ارتكاب المظالم والجور ، ليسير إليه السلطان عندئذ قائديه عبد الله خان ، ومظفر خان فهاز الايطاردانه حتى ظفرا به بعد عامين فأُورد حقيقته (١) .

المجاعة والقحط : لم يفرغ شاهجهان من هذه القلاقل إلا ليوأجه محنة القحط الذى اجتاح بلاده فى العام الرابع من حكمه ، وذلك بسبب انحباس الأمطار الموسمية التى تعتمد عليها الهند فى السقى والرى ، فانجباب عن مجاعة بشعة بدت أقسى مظاهرها فى الكجرات والدكن ، وزاد من سوء الحال انتشار الأوبئة لامتاكة بين السكان .

وبرغم ما بذله السلطان من جهود جبارة لإغاثة الناس ، حتى أمدهم بالكثير من المؤن والأرزاق والأموال وأقام المطاعم المجانية لهم وأعفاهم من أغلب الضرائب المفروضة عليهم ، فإن رداءة المواصلات وازدحام الطرق بالمهاجرين قد عوق كثيرأ من بلوغ هذه النجيدات أهدافها، حتى باع الناس أولادهم من الإملاق وطبعدهوا الجييف من المخمصة، وغلبهم تعلقهم بالحياة على حبهم لأولادهم، حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه (١)، وكثيرا ماسدت الطرق أجداثُ الألوف من الصرعى، وأقترت قرى وأحياء بأكلها من ساكنيها .

البر تغاليون : ضاق شاهجهان ذرعا باستبداد التجار البر تغاليين

عند شواطئ البنغال، إذا انطلقوا يتخطفون الناس هناك قسرا ليبيعوهم في سوق الرقيق، وفرضوا على السكان مكوسا لحسابهم، حتى عم أذاهم وجورهم أغاب المناطق التي كانوا ينزلون بها عند شواطئ الهند الشرقية والغربية على السواء.

وتفاقم خطر مبشرهم تفاقما خطيرا، فقد جهدوا، في ظل موطنهم هؤلاء، لحمل الأهليين على قبول عقيدتهم قسرا، كما راحوا يتدخلون في شؤون الدولة التي يعيشون في كنفها ويتآرون عليها مع تجار الهولنديين وغيرهم من الأوربيين الذين كانوا يفتدون إلى هذه البلاد لامتنعاص مواردها. ويشجعون بعض الخارجين على سلطان الدولة من أبناءها على العصيان حتى كتب أسقف جوا البرتغالي نفسه يشكوهم إلى ملكه^(١).

ولم يكن شاهجهان بغافل عن سلوك هؤلاء البرتغاليين الذين أقدموا، إبان محنته مع أبيه، على اختطاف فتاتين من أتباع زوجته ممتاز محل حين نزل على مقربة من محلتهن، فسكت إذ ذاك على مضمض ولم ينسها لهم. حتى إذا ما ولي الحكم وفزع الناس إليه من عسفهم بعث من فوره عام ١٠٤٠ هـ / ١٦٣١ م بقائده قاسم خان (٢).

ت كما على البنغال وأمره بافتحام مراکز هؤلاء الطغاة وتشيتيمهم .
ویرغم امتناع هؤلاء الدخلاء فی حصون قویة ، كانوا قد
سروها بالمدافع وشحنوها بالبندق والرجال ، فقد اقتحم عليهم
رجال السلطان أقوى مواقعهم فی هوجلی وخاصوا من أيديهم
عشرة آلاف من أهل الهند كانوا مُعَدِّين للتصدير . (١)

ولم تخسر الدولة فی هذه الحرب أكثر من ألف قتیل ، فی
حين سقط من أعدادها عشرة آلاف ، ووقع فی الأسر أربعة آلاف
آخرون منهم ، سيقوا إلى آگرا ليخيروا بين اعتناق الإسلام
أو الحبس .

وإن كان شاهجان قد عمد بإجرائه هذا مع أسراه إلى أن يردَّ
الصاع صاعين لبشرى البرتغاليين (٢) ، وهو خطأ لم يكن لئله أن
يرتكبه ، فهو على كل حال لم يذهب إلى ما ذهب إليه ملوكهم بأوروبا
وأسبانيا على الخصوص حين خيروا مسلمي الأندلس بين اعتناق
المسيحية أو الموت حرقا . وقد ردَّ السلطان الهندي هؤلاء
البرتغاليين آخر الأمر إلى محلتهم على كل حال ، وإن لم يستطيعوا أن
يعودوا بها إلى سيرتها الأولى من العمران لفرط ما كان قد نزل بها

١ - منتخب الباب ٢١٢

٢ - Muslim Ru'e. 489

من الدمار .

ولم يتردد البريطانيون ، على الخصوص ، في الإفادة من هذه المحنة التي نزلت بأعظم منافسهم بالهند فبدلوا جهودا كثيرة للتقرب من السلطان والحصول على مزيد من الإمتيازات لهم ولقومهم بالتالى .

حروب الدكن : تاق شاهجان إلى أن يتم الفتح التي بدأها أبوه وجدّه من قبل بالدكن والتي شارك هو بنفسه في بعض منها أيام جهانگیر . وشدة من عزيمته للمضى في هذا الأمر ، وهو السنّى المتمسك بعقيدته ، حرصه البالغ على منع انتشار مذهب الشيعة الذى كان بعض سلاطين الدكن قد طفقوا يروجون له في إماراتهم ويرحبون بأصحابه الفرس ، حتى غدت بلادهم مثابة لمناوة السنيّين في الهند وإثارة الفتن بين السكان .

ولئن قعد بشاهجهان بعض ما اعترض عهده من الاحداث عن الماضى بخبطه إلى غايته ، فقد اضطلع بهذه المهمة ابنه أورنگزيب من بعده ، وما زال بها حتى أتمها على خير وجه ، فلم تخضع الدكن كلها لسلطان الدولة فحسب ، بل لقد أظلت راية المسلمين شبه القارة الهندية كلها من أدناها إلى أقصاها .

هذا ولقد كان من أثر خروج شاهجهان ومهابت خان على

طاعة السلطان جهانگیر، وما تبع ذلك من أحداث فصلناها في موضعها، أن ضعف سلطان الدولة في الدکن، ليهتمز أصحاب بيچاپور وغولكونده هذه الفرصة فيخلعوا عنهم الولاء للسلطان مغولى ويوسعوا، من بعد ذلك، في رقعة أراضيهم على حساب إمارة أحمد نگر التي بقيت على ولائها الاسمى للسلطان.

واستبد بشئون الحكومة في أحمد نگر قائد مراهتى يدعى شاهجى، حتى صار سلاطين هذه الإمارة ينصبون وفق هواه، ويظاهرة في استبداده هذا أصحاب بيچاپور فراخوا يمدونه بالمال والرجال، فلم يرشاهجهان بازاء ذلك كله إلا أن يخرج بنفسه إلى الدکن، وكان قد طلب إلى أصحاب بيچاپور وغولكونده أن يعدلوا عن عدم دفع الخراج لشاهجى ويعترفوا بسلطانه هو من جديد فلم يستجيبوا له.

وأدى ظهور شاهجهان بالدکن في قواته الكثيفة إلى أن بادر أمير غولكونده بإعلان طاعته له من جديد، وقد تعهد له بمنع سب الخلفاء الراشدين ببلاده، وإجراء الخطبة بالثناء عليهم، والعدول عن الدعاء لشاه الفرس فيها.

وبقى صاحب بيچاپور على عصيانه حتى اقتحمت قوات السلطان بلاده ففتكت بأغلب قواته وانتزعت عددا كبيرا من

من حصونه ، ليرضى آخر الأمر بالخضوع ويتعهد بالابتعاد
عن القائد المراهطي شاهجي الذي يادر بمهادنة السلطان بدوره . ولم
يرجع شاهجهان من الدكن حتى أقام ابنه أورانگزیب نائبا له هناك
عام ١٠٤٥هـ / ١٦٣٦ م وقد دخلت في حوزته دولت آباد
وأحمد نگر وتلنجانا وخاندش وبرار (١) .

مكث أورانگزیب بالدكن سنوات ثمانية ، حتى إذا لم يستطع
صبرا على ما بلغه من تمكن أخيه الأكبر داراشكوه من قلب أبيه ،
فصارت أمور الدولة لا تجرى إلا وفق مشورته قدّم بنفسه إلى
العاصمة بدعوى قلقه على صحة أخته جهان آرا ، وكانت قد أصيبت
بحروق شديدة حتى أشرفت على الموت ، فلم يجدها نفعا ما بذله
الأطباء من جهود كثيرة لانفاذ حياتها . لولا ترياقي صنعها لها
مولي يدعى عارف أزاح به آلامها عنها ورد الحياة إليها . وقد
قابل السلطان صنيعه هذا بإغداق الأموال والإينعام عليه .

بلخ وبدوخشان : بسعى الأميرة جهان آرا رضی السلطان عن
أورانگزیب من جديد فذبه الحكومة السكجيات ففضي بها
عامين اضطلع فيهما بشئونهما على خير وجه ، حتى وجهه من بعد
ذلك إلى بلخ وبدوخشان ، ليشارك هناك في حروب عنيفة مع

كان شاهجهان يعنى من ورائها اسرداد بلاد
من وراء النهر كلها ، موطن آباءه السابقين ، التي لم يغفل أحد
من السلاطين المغول بالهند عن السعى إلى استرجاعها ما واتتهم
الفرصة وتكشّف لهم ضعف حكامها .

ولئن أفلح أورنگزيب في إزال ضربات قاصمة بالأوزبك ،
على كثرة عددهم بالقياس إلى قلة قواته ، فقد انسحب آخر الأمر
من بلخ بعد أن أجلس على عرشها أحد أحفاد نظر خان حاكمها
السابق ، على الولاة له ، ليفتك الزمهيرير بفريق من قواته من بعد
تلك وهي في طريق العودة وتضيع كل الأموال والجهود التي أنفقتها
الدولة في هذا الغزو هباءً (١) .

قندهار : أشرنا من قبل إلى ضياع قندهار من أيدي
شاهانگیر حين رفض ابنه شاهجهان أن يسير إليها لدفع الفرس عنها ،
وكان قد بلغه ماتدبره نورجهان في الخفاء لخل زوجها السلطان
بني البيعة لختها الأمير شهربار من بعده .

وحاول شاهجهان عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٧ م أن يستعيد هذا
الإقليم بالموودة من أيدي الأمير الفارسي علي مردان ، نائب الشاه
الصفوي عليه ، لكن مسعاه باء بالفشل . حتى إذا ما كتب أمير قندهار

إلى سلطانه يسأله إمداده بالجند والعتاد ليقوى بهما على صد قوات الهند عن أراضيها ، حمل مطلبه على غير حقيقته فظنه لا ينبغي من وراء ذلك إلا تدعيم سلطانه ثم الخروج عن طاعته ، فسير إليه قوات كبيرة ، لا لتشد من أزره وإنما لتوقعه في أسرها وتعود به إلى العاصمة .

وجبين وقف على مردان على ما كان يُدبر له ، سارع من فوره بالكتابة إلى حاكم كابل المغولي يستنجد بشاهجهان ، لتقبل قوات الهند على المدينة من بعد ذلك فتدخلها ثم تدفع قوات الشاه الفارسي عنها بعد قليل .

ولم يسكت الفرس بدورهم على ضياع هذه المدينة من أيديهم . حتى إذا مارق الشاه عباس الثاني عرش الصفويين اعترم الخروج لاستردادها في شتاء عام ١٠٥٩ هـ / ١٦٤٩ م وهو يعلم أن تلوج الهندكوش سوف تعمق أي مدد يسارع به سلطان الهند إلى تعزيز حاميها إبان هذا الفصل .

وصح ما جرى في حساب الشاه الصفوي . ذلك أن دولت خان ، نائب شاهجهان هناك ، حين بان له تردد دولته في تسير الجند إليه إبان فصل الثلوج ، وكان يلح عليها من قبل هذا لتعزيز قواته فلا يجد لمطلبه سمعاً ، لم يصبر طويلاً على الحصار

بما تسلم لأعدائه وهو لا يعلم أنهم بدورهم كانوا على وشك الرحيل عنه لضعف كبير طرأ على مؤنهم ، وأن قوات الهند كانت بالفعل في طريقها إليه .

وجهد شاهجهان من بعد ذلك في استرداد هذه المدينة من جديد ، فسيّر إليها نخبة من قواده وقواته وعلى رأسهم ابنه أورنگزيب ووزيره سعد الله خان الذي خلف آصاف خان بعد وفاته .

وكان حربياً بالسلطان أن يستجيب لأورنگزيب حين طلب إليه أن يأذن له بالسير في محاولة ثالثة نحو هذه المدينة (١) ، وكان قد أمكن له في حصاره السابقين لها أن يدرس مواقعها وإمكانات حمايتها دراسة خبير ، حتى كاد أن يتم له دخولها لولا إقبال الشتاء ونفاذ مؤنّه ، فأدى رفض شاهجهان لطلبه ثم تسييره دارشكوه إليها هذه المرة ، على قلة درايته وخبرته الحربية ، إلى رد قوات الدولة عنها كرتة ثالثة وضياع ما بذل لفتحها من أنفس وأموال هباء (٢) .

أورنگزيب في الدكن : عاد أورنگزيب إلى الدكن

عام ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ ، بعد غياب دام سنوات ثمانية قضاهما في

١ - عمل صالح ثمان ٥٣٤

٢ - شاهجهاننامه ١٠١ ، ١٠٢

الكيجرات وعند بلخ وقندهار، ليرى حكومتها قدسات أحوالها حتى غدت عبثاً ثقيلاً على الدولة، تستنفد إدارتها كثيراً من أحوال بيت المال بدار السلطنة بعد أن كانت تمدّه في السابق بخراج وفير. فقد انصرف حكامها إلى رعاية مصالحهم الخاصة، فأهملوا شأن الزراعة بها وطفقوا يثقلون كاهل الأهالي بما فرضوه عليهم من مكوس لحسابهم حتى هجر الفلاحون أغلب أراضيهم وفرّوا من قرأهم، فأجدبت الحقول وخوت البساتين والحـدائق على عروشها. فما غدا، بمعاونة إداري حازم يُدعى مرشد قُلى خان، أن نهض بالزراعة، عماد ثروة الإقليم، من جديد، فجعل كافة الأراضي الخصبة تحت إدارته مباشرة، وأمن الفلاحين في أعمالهم وأمدّهم بالبذور الجيدة والماشية وشجّعهم على استصلاح الأراضي البور وزراعتها.

واهتمدى مرشد خان بنظم تُدرمـل وزير أكبر، فأمر بمسح الأراضي كلها وأعاد تقدير الخراج المفروض عليها من جديد، فجعل للدولة نصف محصول الأرض التي تزرع على مياه الأمطار، وثلثه من الأراضي التي تروى بمياه الآبار، فيما عدا البساتين والحدائق فيجب منها ربع المحصول. أما الأراضي التي كانت تسقى من الترغ والقنوات فكان ربطها يتراوح بين الزيادة

والنقصان بحسب طبيعة تربتها .

وبهذا النظام ، وما كفله من توفير الأمن للفلاحين ، أقبل
خيلاء على أعمالهم في جسدٍ ونشاط أدى إلى استقرار اقتصاديات
البلد من جديد ونهوض مواردها بالتالى .

كذلك كان من أثر سوء إدارة حكام الدكن ، إبان غياب
أورنگزيب عنها ، أن عاد أصحاب غولكونده وبيجاپور إلى سابق
حروجهم على طاعة السلطان ، فامتنعوا عن دفع ما فرض عليهم
من جزية وراحوا يتخطفون أملاك الدولة هناك . حتى أغتم
أورنگزيب فرصة سنحت له بنشوب الخصام بين عبد الله قطب
شاهى سلطان غولكونده ووزيره محمد سيد المعروف بمير جملة -
وكان هذا الأخير قد بلغ الكثير من النفوذ والقوة فصار له جيش
خاص به داخل الدولة قوامه خمسة آلاف من الفرسان وعشرون
ألفاً من المشاة - فزحف بقواته على هذه الإمارة بدعوى
تخليص أسرة الوزير من الحبس ورد أملاكها إليها . ولم يُسغن
سلطان غولكونده فتيلاً ما بعث به إلى قادة القوات المهاجمة
من أموال كثيرة وجواهر عساهم يرجعون بذلك عنه ، فاقتم محمد
بن أورنگزيب عاصمته وأوقعه فى أسره .

وعنى شاهجهان آخر الأمر عن قطب شاهى وردّه إلى إمارته

بعد أن أقسم على الولاء له، ليرتبط معه من بعد ذلك برابطة النسب حين زُفت ابنته إلى محمد بن أورنگزیب^(۱). وما غدا مير جملة بدوره أن شمله شاهجهان بالرعاية حتى وزر له خلفاً لسعد الله خان .

وسار أورنگزیب كذلك إلى بیجاپور، وكان قد بلغه اضطراب أحوالها بعد وفاة سلطانها محمد عادل شاه ، فما زال بها ، ومعه مهابت خان ومير جملة ، حتى وقع بأيديهم حصون بيدار وگولبورگة وگلیاتی وبارنده . فما إن فرغوا من أمرها عام ۱۰۶۸ هـ : ۱۶۵۸ م فانطلقوا إلى مدينه بیجاپور نفسها ، حتى أمرهم شاهجهان بوقف القتال ، إذ رضى سلطانها بالصلح على جزبة كبيرة مع إعلان خضوعه وولائه ، وتنازله عما ضاع من أيديه من الحصون^(۲) .

فتنة الأمراء : رأى شاهجهان ، حين اشتد به المرض عام ۱۰۶۷ هـ : ۱۶۵۷ م أن يعهد بالملك من بعده إلى داراشكوه أكبر أبنائه الأربعة من ممتاز محل دون إخوته ، وكان قد استبقاه إلى

۱ - شاعبه نامه ۱۱۸ ، ۱۱۹ .

۲ - عمل صالح ۱۲۸ .

جانبه بأفرا حتى يتدرب على التمرس بأغناء الحكيم .
ولم يكن لهذا الأمير بطبيعته كفاية حرية أو حكمة سياسية ،
إلا أنه كان واسع الإطلاع ، شغوفا بدراسة الأديان بخاصة ، حتى
نقل ، بمعاونة بعض علماء البراهمة ، اليو بانيشاد المقدس من
السنسكريته إلى الفارسية . وجرّ عليه اختلاطه بالهنداكة واشتغاله
الكثير بعلومهم ، سخط علماء السنّة ، مما يسر لأخيه أورنغزيب
أن يفيد من ذلك مستقبلا ، حتى بلغ إلى تأليب المسلمين في الهند
عليه إبان نزاعه معه على العرش .
أما شجاع ، ثاني الأبناء ، فكان في مقامه بالبنغال منصرفا في
الغالب إلى ملاذّه . وقد تعاون جو هذا الإقليم وإدمانه للشراب
على إضعاف عزيمته والهدّ من كيانه .
هذا ، في حين كان أورنغزيب يسوس شؤون الدكن في همّة ونشاط .
ولم يكن رابع الإخوة ، مراد بخش ، وهو في مقامه
لكجرات إلا صورة أخرى لأمير البنغال .
وأثار نبا البيعة اداراشكوه نائرة إخوته الآخرين ، إذ كان
كل واحد منهم يرى نفسه أحق بالملك من أخيه . (١) ومن هذا
الأمير ، بخاصة ، الذي كان يُشاع عنه ميله إلى محاولة إيجاد دين

جديد يمزج فيه قواعد الإسلام بعقائد الهنادكة .
على أن أورنگزيب - وهو الذى قد كفل له محبة الناس
وثقتهم به ما أظهره من كفاية فى الحرب وما عُرف عنه من الحزم
والخلق القويم والتسك التام بأحكام الشرع - تمكن من أن
يُغرى أخاه مراد بالائتلاف معه، على أن يقسما أرض الهند فيما
بينهما فيكون للثانى منها البنجاب والسند وكشمير وبلاد الأفغان .
فالتقت قواتهما بقرية دهرمت على مقربة من أُجَيْن وقد أعلننا
معا أنهما إنما قد قدما لتخليص البلاد من ربة ذلك الأمير المرتد
داراشكوه .

واتجه شجاع ، بدوره ، على رأس جيش كبير ، إلى دهلى بعد
أن كان قد نادى بنفسه سلطانا على البنغال ، لكن قوات سليمان
بن داراشكوه ما غدت أن أرغمته على الإرتداد إلى إمارته بعد
ن بلغ بنارس (١)

وبات بالفشل كل الجهود التى بذلها الوسطاء لمنع الصدام
بن قوات داراشكوه وأخويه ليُمنى من بعد ذلك جنود دهلى
زيمة شديدة ساعد عليها نفور بعض القواد المسلمين فى جيش

الدواة من السير تحت إمرة قادة من كبار الهنادكة فأنجازوا إلى صفوف مهاجمهم .

وقوى من عزيمة أورنگزيب ما انضم إلى جبهته من قوات عديدة ، وما وقع بأيديه من أسلاب وذخائر حربية وموّن ، فاتجه إلى گواليار حتى حط رحاله بسهل سموگره إلى الشرق من آگرا ، لينزل من بعد ذلك هزيمة أخرى قاصمة بعدوه ، بعد قتال عنيف عظمت فيه خسائر الطرفين ، حتى اضطر داراشكوه آخر الأمر إلى الإرتداد إلى آگرا سريعا في الليل تاركا كل عتاده وموّنه لأخيه .

وحين بلغ الإمبر الظافر آگرا فمكتب إلى أبيه يمتدّر إليه عن هذه الحرب التي أكرمه أعداؤه على خوض غمارها ، بعث إليه شاهجهان بسيف بدعى عالمگير هدية منه ودعاه للقدوم إليه . غير أن رجال أورنگزيب حذروه مما قد يكون أعدّه له أبوه من شر الكالإيقاع به ، وأشاروا عليه بأسر السلطان على الفور حرصا على سلامته وتأمينا لمركزه .

وأدى قطع الماء عن حصن آگرا إلى استسلام حاميته بعد دفاع مجيد ، لتحدّد من بعد ذلك إقامة شاهجهان في جناح الحرم بالقامة ، ولم يكن يرخص لأحد الاتصال به إلاّ لابنته

جهان آرا التي تفانت في السهر على راحته حتى آخر حياته .
ووقع بأيدي أورنگزيب رسالة كان أبوه قد بعث بها إلى
داراشكوه يحذره فيها من القدوم إليه ويطلب إليه لزوم دهلي ،
فتكشّف له بذلك سوء نوايا أبيه نحوه وصح لديه ما حذّره رجاله
منه في السابق ، فخرّم الكتابة على السلطان المعتقل .

وأحس أورنگزيب ، وهو في طريقه إلى دهلي زحفاً ، بنفور
أخيه مراد منه حتى شرع يتآمر عليه ، فدبّر بدوره أمر اعتقاله
غدرآً ليُسيره من بعد ذلك إلى السجرات ويعتقله بقلعتها . وما
غداً أن أُدين هناك لقتله ديوانه على نسقي قسّم له عام ١٠٧٢ هـ /
١٦٦١ م^(١) .

وحين بلغ أورنگزيب دهلي نودي به عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م
سلطاناً على الهند باسم عالمگير .

هكذا ، وقد ظل داراشكوه يضرب في أرض البنجاب
والملتان والسجرات وآجمير ، حتى حط به المطاف عند زعيم من
البطمان يدعى : ملك جيون ، كانت له عليه أياد سابقة كثيرة ،
فلم يغن عنه ذلك كثيراً ، إذ غدر به الأفغانى ودفع به إلى أخيه

بأقوى العلماء بكفره وأباحوا دمه (١) .
أما شاه شجاع فما زال به قواد أورنگزيب يطاردونه في
بنغال حتى اختفى في جبال آسام وانقطعت أخباره .
ولو أن شاهجهان ، حين أبلّ من مرضه الذي اعتقد أن فيه
بئسه ، كان قد عمد من فورده إلى حسم الموقف بنفسه بدلا من
أن يبعث إلى ابنه داراشكوه يطلب إليه العـدول عن قتال
بخوته ، وقد كان يوقن إنه لا بأس عليه من قدومهم إلى دار
السلطنة ، لتغير الموقف كله على وجه السلامة .

فقد كان حريبا به أن يبرز إلى الميدان بنفسه فيقضى بظهوره
على الشائعات التي راجت بموته والتي ساعد على انتشارها سدّ ابنه
الأكبر الكافة الطرق المؤدية إلى الدكن والگجرات والبنغال
بقطعه البريد عنها .

هذا ، كما كانت دعوته لمجلس الحرب الذي يضم كبار القادة ،
كفيلا بدوره ، في مثل هذه الظروف ، بالقضاء على الفتنة في
بهدها ، في الغالب .

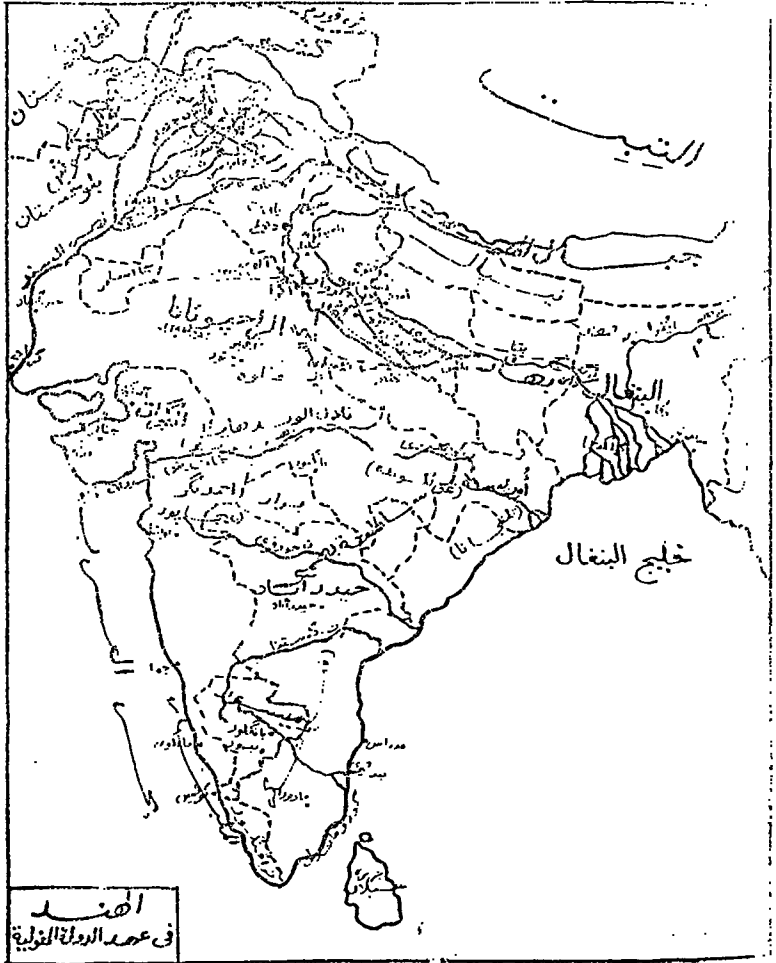
وغنى عن البيان أن ما عُرِف به أورنگزيب من مقدرة
بحزم مع انتصاره لعلماء السنة وتأيدهم له . قد أدى إلى التناقص

القوم حوله . فلم يكن ما أظهره الأهلون من الأسى حين جرى بداراشكوه إلى دهلي أسيراً فطوّف به في طرقاتها إلاّ لغدر مضيفه به في الغالب .

ولبت شاهجهان في محبسه سنوات ثمانية ، حاول في أثناءها عبثاً العمل على استرداد ملكه . حتى قضى أسيفاً حزينا عام ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٦ م وهو في الرابعة والسبعين من عمره ، وهو يرنو ببعصره إلى تاج محل ، حيث ترقد زوجته الحبيبة ممتاز محل ، وإلى جواره جهان آرا ، ابنته منها ، التي وقفت حينئذ على خدمته والعناية به .

شخصية شاهجهان : كان شاهجهان حاكماً قديراً بلغت الدولة في عهده أوجها وعلت مكائنها، وقد نهج نهج أبيه وجده في تنظيم شئون الحكومة ، وتميز بالحزم الشديد مع رجاله وعماله والسهر على مصالح رعيته ، حتى كان لا يتردد في إنزال العقاب الشديد بمن يراه يتراحمي في تحقيق العدالة لهم أو يتسبب بإهماله في الخاق الضرر بهم (٢) .

ولئن ذهب إلى فرض ضرائب جديدة على التجار وأعاد فرض الرسوم التي كان الهنادكة يلزمون بها عند زيارة أماكنهم



المقدسة ، فإنه كان : على حد قول الرحالة الفرنسي تأثره ، ينظر إلى رعاياه عموماً نظراً إلى أبنائه (١) . وتجلت شفقتهم وحده على رعايتهم فيما كان يبذل من جهود كثيرة لتخفيف وطأة القحط والمجاعات ، حين كانت تنزل بهم ، فلم يكتف بما أقامه لفقرائهم من مطاعم مجانية كثيرة وما كان يبعث به إليهم من الأرزاق والمؤن والأهوال ، حتى أمر عماله بشراء الأطفال الذين كان أهلهم يعرضونهم للبيع من فرط الإحلاق ليردهم عليهم ثانية فيما بعد (٢) .

وبلغ من بره - ذا السلطان ، الذي عرف بتمسكه الشديد بشعائر سنته ، أن داوم على إرساء هبات من الأهوال في كل عام إلى فقراء الحجاز وعلماء الأراضى المقدسة وأشرفها . وأدى به ذوقه الفنى الرفيع : وما ورثه عن آبائه من أموال طائلة (٣) ، إلى تزيين الهند في عهده بجملة من المنشآت المعمارية

١ - Lane-Poole 329 -

٢ - Muslim Rule 546 -

٣ - يقدر الرحالة الألماني بمئتي مليون ما كان بخزائن دار السلطنة حين زارها في عهد شاهجهان ، بما يبادل ثلثمائة مليون جنيه ، عدا الدخل السنوي ، كما ذكر كذلك أن جيش السلطان كان يضم مائة وأربعمائة ألفاً من الفرسان ، ووصف مدينة آكرا وازدهار الحياة فيها ، فقال إن طريقها كانت مهيبة نظيفة وإن =

الفخمة التي ما تزال تُرى آثارها حتى اليوم بأكر، وبدهلي الجديدة التي يعد بحق منشئها ومجددها، والتي اتخذها مقاما له بعد أن أتم بناء قصره الكبير بها .

ومن هذه الآثار المسجد الجامع ومسجد اللؤلؤ والقلعة الحمراء . وأروعها جميعا ذلك المنوى الفخم الذي يعرف باسم تاج محل ، والذي أقامه لتخليد ذكرى زوجته ممتاز محل ، فعُد بكاله وبهائه من بين روائع المعمار في الدنيا . وقد استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما ، واستخدم فيه عشرون ألفا من العمال ، وبلغت تكاليفه سبعة عشر وتسعمائة لكتا (١) . من الروبيات .

وبلغ بشاهجهان كلفه بالأبهة إلى صنع عرشه الفخم المعروف بعرش الطاووس الذي رُصِّع بأكداس من الجواهر النادرة ، وكانت قوامه من الذهب الخالص ، وكان سقفه المطلي بالمينا يُحمل

== حوائث التجار كانت تترخر بمختلف أنواع السلع ، وقد خصص لتجار كل سلعة محلة موقوفة عليهم ، وكانت دور المسافرين نفمة نظيفة كذلك .

وأحصى هذا السائح بهذه المدينة سبعين من المساجد وثمانمائة من الحمامات ، هذا عدا القصور الشامخة التي كانت يسكنها المسلمون والهنداكة بظاهاها . وقال إن سكان آكرا كانوا من الكثرة بحيث يمكنهم أن يقدموا من بينهم في الحرب مائتي ألف من

الرجال . Lane-Poole 333-5

٤ - اللك مائة ألف ، وفي هذا البناء اخطاط الطراز الفارسي بالهندي .

على اثني عشر عمودا من الزمرد ، على كل واحد منها طاووسان
تزينها الجواهر وتتوسطها شجيرة يغطيها الماس والياقوت والزمرد،
وتتدلى منه درج ثلاث تكسوها الجواهر والياقوت . وقد
استغرق صنع هذا العرش سنوات سبعة وبلغت تكاليفه أكثر
من ستة ملايين من الجنيهات (١). وحين غزا نادر شاه الفرس ،
الهند عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م حمله معه، فأثرى حكام الفرس من
جواهره ، وأفاد فتح على شاه سلطانهم من بعد ذلك من بقاياها
وحطامه في إقامة عرش جديد له حمل الإسم نفسه .

أورنگزیب عالمگیر

اعتلى أبو المظفر محمد محي الدين أورنگزیب عالمگیر عرش الهند عام ۱۶۵۸م / ۱۶۵۷م والبلاذ يعمها الخراب الشامل الذى اكتسح حقولها وروجها إبان حروب الوراثة الجارحة التى قامت بينه وبين أخيه دارا شكوه . وحالف القحط هذا الخراب بسبب انحباس الأمطار الموسمية ، فأتى على كل ما تبقى بالبلاذ من أخضر ويابس . لذا رأى أورنگزیب أن يرفع عن كاهل الأهلين عددا من المكوس والضرائب تخفيفا عنهم ورحمة منه بهم ، فأعفوا عن ثمانين نوع ، منها مكوس الطريق والمرور ومكوس الأرضية ، التى كان يلزم بها أصحاب المتاجر والحوانيت جميعا ، ومكوس لأضرحة ورسوم الدواب ، كما خفّض كذلك كثيرا من الرسوم التى كانت تفرض على المحاصيل الغذائية الزراعية تيسيراً على تسكان جميعا من مسلمين وهنادكة (۱) .

وبرغم أوامره المشددة فى تنفيذ هذه الإعفاءات

وعنفه في معاقبة المقصرين من عماله ، فإن سكان المدن كانوا هم وحدهم ، في الغالب ، الذين أفادوا من ذلك كله ، إذ احتال حكام الأقاليم دواما على إبقاء الحال على ما كان عليه . حتى لا يضاروا في أهم مواردهم ومصدر ثرائهم ، ولا سجا حين عدل أورنگزيب عن نظام التجنيد الذي رسمه جدّه جلال الدين أكبر ، وسار عليه أولاده من بعده ، إلى نظام الإقطاع القديم .

اشتهر أورنگزيب منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتماليم السُنّة ، حتى خاض حرب الوراثة ضد أخيه داراشكوه على هذه المبادئ وأورده حتفه على ما أفتى به علماؤه . لذا أبطل الاحتفال بالنيروز عيد الفرس وحظرت دخول بلاده على أصحاب مذهب الشيعة وغيرهم من أصحاب المذاهب غير السُنّية (٢).

١ — كان الحكام وعمال الدولة ، فضلا عن حرمهم البالغ على الاحتفاظ بمظاهر الأبهة والعظمة ، يتنافسون في تقديم الهدايا الثمينة من الجواهر وغيرها إلى السلطان في كل مناسبة ، وأعظم هذه المناسبات هي ذكرى مولده حيث كان يوزن بالذهب والجواهر على رسم مغولي قديم . ويذكر الرحالة الفرنسي برنيه ، وكان قد حضر هذا الحفل في أحد الأعوام ، أن ما قوم به السلطان من الجواهر يقدر بمائة وازي المليونين من الجنيهات . Lane-Poole 375

وكان من أثر هذا الإجراء ، ومناصبته قبائل الأفغان
تهدأ فيما بعد ، وما سبق إليه جسده حين نادى بأن الهند
تهدأ ، أن انقطع عن جيوش الدولة مصدر مهم طالما أمدّها
جاربين أشداء ، من أبناء بلاد ما وراء النهر وبلاد الأفغان
يركابل ، كانوا بلا مرء كفيلين بشد أزر بني جلدتهم ، الذين
تأثرت عزيمتهم على مرّ الزمن ببحر الهند ، في دفع خطر المرفهنا
والسك عن الدولة ، وهما العصبتان اللتان عجزت تزايد
نشاطهما في نهايتهما .

وأدى حرص أورنكزيب عالمكير على أن يصبغ دولته
بالصبغة الإسلامية الخالصة إلى أن تشدد في تحريم الخمر
والميسر تحريماً تاماً وأبطل البدع ، ثم أمر بتعمير المساجد
وترميم الخرب منها وأمدّها بطائفة مختارة من الأئمة
والوعاظ والمدرسين ، وحض الناس على الإقبال على حلقات
العلم بها وشجعهم على الدرس فيها ، ثم بعث بمحتسبيه من بعد ذلك
ليراقبوا سلوك الناس ويحماوهم على التمسك بتعاليم الشرع
والإبتعاد عن نواهيها .

وظفق أورنكزيب من بعد ذلك يُبعد الهنادكة عن مناصب
الدولة الكبرى ويقال من عددهم في الدواوين عامة ، فلم يُبق بها

منهم سوى نصفهم حرصاً على صالح العمل (١) ، ولم يكن ذلك بدءاً منه بعد أن رأى بوادر الفتنة والعصيان تظهر من بينهم أيام أبيه .

وانتهى أمره معهم إلى أن أمر بغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من إقامة معابد جديدة لهم ، حتى هدم معبدى بنارس وسومنات ، وأقام على أنقاض معبد — دَمْتَهْرَه مسجداً كبيراً ، بعد أن بدّل اسم هذه المدينة إلى إسلامپور ، ونقل أوثان هذا المعبد المكحلة بالجواهر إلى آگرا فردم بها أساس مسجد نواب بیسگیم صاحب حتى يطوؤها المسلمون بأقدامهم في صلاتهم تقرباً إلى الله (٢) .

وأعاد أورنگزیب فرض جزية الرؤوس على الهادكة وأعفى من تأديتها غير القادرين عليها . وقد أدى الحرص بكثير من عامتهم إلى الدخول في الإسلام تخلصاً من دفعها .

كذلك فرض أورنگزیب رسماً جديداً على البضائع التي كان يستوردها التجار من الخارج ، وكان أغلبها من أدوات الترف

والزم الهنادكة منهم بدفع هذا الرسم مضاعفا .

يمكن تقسيم مدة حكم أورنكزيب التي تجاوزت سبعة وأربعين عاما إلى فترتين : الأولى ، وهي التي شغل فيها عامة إقرار الأمور في الهندستان ، والثانية وهي التي قضاهما في حروب متواصلة بالمكن والجنوب استوعبت ستة وعشرين عاما واستنفدت أموالا طائلة ووهلك فيها ملايين عدة من الجنود والأهلين . وقد مدد من وراثتها في الغالب إلى الجهاد في سبيل نشر الإسلام بين الهنادكة والقضاء على مذهب الشيعة أكثر مما هدف إلى توسيع رقعة ملكه .

آسام والبنغال : أفاد أورنكزيب من كفاءة قائدة

مير جملله فوجهه في جيش كبير وأسطول من السفن النهرية إلى آسام وكوش بهار اللتين تقعان عند الطرف الشمالي الشرقي الهندي وهي منطقة تغطيها الغابات والآجام . وكان أصحابهما يتخطفون أراضي الدولة . وبرغم فتك الأوبئة بجند الدولة وشدة ضغط العصابات عليهم ، وهم في حصارهم لعاصمة آسام ، فقد مضى بهم قائدهم غداة انتهاء موسم الأمطار ، والجمي تركبه : حتى أرغم الآساميين على

التسليم ، فعاملهم برفق ومودة (١) . وعن أسف أن وافي الموت
مير جُمله وهو في طريق عودته إلى دكا عام ١٠٧٢ هـ ١٦٦٣ م ،
وأن نوابه أضافوا جميع بيوتهم ووده بهد بضع سنين بسوء
إدارتهم وعسفهم .

وخلف مير جُمله علي البنغال الأمير شايبته خان ، خال
السلطان . وكان ملوك أراكان بها قد اشتد نشاطهم حتى راحوا
يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع البرتغاليين لمناهضة الدولة . فرحبوا
بقراصنة هؤلاء المستعمرين وغيرهم من المغامرين ، حتى باتوا
يسيطرون على خليج البنغال ، فضلاً عن مساحات واسعة تمتد من
من داتا الكنج إلى دكا ، ثم انضلقوا يقطعون الطريق
على التجار ويتخطفون الأهالي ويبيعونهم بيع الرقيق لتجار
الهولنديين والإنجليز والفرنسيين في الثغور الدكنية الشرقية
وفي جزيرة سرنديب غير بعيد من شيتا جونج .

وبرز شايبته خان لمقاتلة هؤلاء جميعاً ومعه أسطول كبير
عدته ثلاثمائة سفينة خاض ضدهم غمار معارك متصلة دامت
١٠٧٥ - ١٠٧٦ هـ ١٦٦٥ ، ١٦٦٦ م حتى كسر شوكتهم
وحرر كثيراً من السكان من أيديهم واستعاد للدولة مساحات

كبيرة من الأراضي التي كانت في حوزتهم . وقد تحالف شايسته خان في حروبه هذه مع الهولنديين والبريطانيين الذين كانوا يتوتون للقضاء على منافسيهم من البرتغاليين ولم يكن يدري أنه بقضائه على البرتغاليين إنما يهد السبيل للبريطانيين الذين بدأوا وقتذاك بداية متواضعة هناك فأقاموا مصانعهم في منطقة كانت نواة لمدينة كلكتا الحالية (١) .

البطمان والأفغان : أخذت أطراف الهند الشمالية الغربية

تتعرض ابتداء من عام ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٧ م . لغارات قبائل البطمان الأفغانية ، وعلى رأسها يوسفزي والأفريدي (٢) ولما ينقض عام واحد على فراغ الدولة من مشاكل الحدود الشرقية . ولقد جهد السلطان أكبر من قبل في الحد من نشاط هذه القبائل ، وحذا حذوه جهانگیر ثم شاهجهان في تسيير جيوشهما القوية إلى قندهار وبدخشان مرات عدة . وحين تجددت حركات هذه القبائل أواخر عهد شاهجهان ، بسبب حرب الوراثة الجاحمة التي نشبت بين أبنائه ، فأنحدرت جموع يوسفزي إلى مناطق الهزرا

١ — Lane-Poole 382.3 — المصانع هنا هي المخازن .

٢ — تشتهر من هذه القبائل الأفريدي والوزيرى على الخصوص بشدة المراسخى صعدت جيوش الهند البريطانية مرات عديدة عن بلادها في القرنين : الحالى والماضى . وأثرت بها خدائر جسيمة .

فبلغت شواطئ نهر كابل، لم يكتف حاكم أتوك بردها في عنف حتى خرب منازلها وأراضيها .

وركبت هذه القبائل إلى الهدوء بضع سنين من بعد ذلك ، كان راجا جسوانت ، نائب السلطان عند جامرود ، يراقبهم فيها بعين ساهرة حذرة . ثم برزت قبائل الأفریدی ، وعليها زعيمها أكمل خان تستنهض همم القبائل الأخرى وتستعين بها في السيلطرة على المنطقة الواقعة بين كابل وبشاور . حتى أتيج لها آخر الأمر أن تنزل هزيمة قاصمة بقوات الدولة ، عند مرخيبر ، سقط فيها عشرة آلاف من جند السلطان أسارى بأيديهم .

وشجع هذا النصر القبائل الأفغانية الأخرى التي كانت تضرب بين أتوك وقندهار ، فركبت بدورها إلى العصيان . وقوى من عزيمتها انضمام الزعيم الأفغانى خوشمال إلى صفوفها ؛ وكان هذا الزعيم قد استدرج من قبل ، بالخيانة والغدر ، إلى بشاور ثم أتى به فى السجن بدهى ، فأطلق سراحه على أن يسير وابنه بجند الدولة لمحاربة أعدائه من قبائل يوسفزى ؛ ولكن ما أحرزه بنوجلدته من الانتصارات على الدولة أنساه عداؤه معهم فانضم إليهم .

هنالك بعث أورنكزيب بفداى خان حاكم لاهور إلى بشاور ، وسير قائده الآخر مهابت خان إلى كابل . حتى إذا ما تكشف له

تواطؤ هذا الأخير مع العدو جعل مكانه شجاعت خان .
وأدى ظهور قوات الدولة القوية عندمنطقة الحدود إلى قدوم
فريق من شيوخ العشائر الشائرة مستسلمين . حتى إذا ما أصم
شجاعت خان أذنيه عن الاستماع إلى نصيحة راجا جسوانت فلم
يصطنع التريث والصبر حتى يأتيه بقية الشيوخ فيبرم الصلح معهم
على خضوعهم للدولة ، فاندفع بقواته إلى منازلهم في مناطق التلال
المجاورة لكابل ؛ احمدر البطهان إليه في ليل شتاء عاصف عام
١٠٨٤ هـ / ١٦٧٤ م فأنزلوا بقواته هزيمة شاملة لاقى فيها حتفه .

هناك لم ير السلطان بُدا من المسير إلى هذه المنطقة آخر
الأمر بنفسه ، فأفلق وقائده أغار خان ، بقوة السلاح تارة وبيذل
المودة والمال والعطاء لشيوخ القبائل تارة أخرى ، في أن يؤمّن
منطقة ممر خيبر ، أخطر أبواب الهند وأهم طرق الغزاة إلى
سهولها وأراضيها .

ولم تستنزف قلائل الحدود الشمالية الغربية هذه كثيراً من
أموال الدولة فحسب . بل لقد اضطر السلطان بسبب عنفها إلى
استدعاء نخبة من قواته الدكنية إليها ، مما أتاح الفرصة لإمارات
الدكن والمرهتها على الخصوص ، ليقبوا من نفوذهم هناك ويشيروا
المتاعب في وجه الدولة من بعد ذلك .

ولو أن أورنگزيب كان قد اصطنع المودة مع القبائل الأفغانية منذ بادىء الأمر وأخذهم بالسياسة والدهاء الذى اشتهر به ، لأفاد من شدة مراسهم فى القتال فى حروبه الطويلة ، مع الراجپوتين والسك والمرهتاوشيعه الدكن ، وقد كانوا على دواه فى تصبهم لشديد لتعاليم السُّنة .

الجات والستناميون : أدت السياسة التى انتهجها أورنگزيب عالمگير فى تدمير معابد الهنادكة وإقامة مساجد للمسلمين على أنقاضها ، إلى شيوع روح التذمر بينهم حتى ثار الجات منهم " ثورة عارمة عند ماتوا فتمكن زعيمهم جُكال من قتل نائب السلطان هناك وانتهاج أراضى سعد آباد . ولم يفت سقوط هذا الزعيم فى يد الدولة ومقتله ، فى عضد بنى قومه ، فطفقوا ينزعون إلى التمرد والعصيان بين الفينة والفينة حتى تفاقم خطرهم حين بدأ الضعف يدب إلى بناء الدولة بعد عهد أورنگزيب .

١ — الجات أو الرِط ، منهم المسلمون ويكون السنڤ الأعلی والنتان ، وقد ذكرهم الجاحظ بأنهم أصحاب مهارة فى التجارة والصيرفة والصيلة ، ومنهم فريق من الهنادكة فى الراجپوتانا ، ومنهم السك فى البنجاب أتباع نانك ، وجهم من الويشية ، وغلب الصيرفة والمرايين فى الهند اليوم منهم .

وجاءت ثورة الستاميين في أعقاب سابقتها . وهم طائفة من
داد ينتسبون إلى الإسم الحسن (الله : ستام) ، ويحرصون
على كبريائهم وأنفتهم حرصا شديداً . حتى لا يترددون في سبيل
الك عن بيع أنفسهم ببيع السماح . ولم يكن مردُّ ثورتهم إلا
باعتداء بعض الجند على فريق منهم^(١) دون أى سبب ديني
آخر ، فزحمت جموعهم من ناربول عند موات تخرب
با يصادفها من مساجد وتعمل السلب والنهب في المدن والقرى ،
حتى بلغت مشارف دهلي ، وفي ركابها شائعات قوية عن نفاذ
عزها واطلاستها ، حتى فرغ الناس والجند من لقاءهم فلم يتأتى للسلطان
نقضاء عليهم إلا بمشقة

السك : لم يقعد السك بدورهم عن المشاركة في حركة
السيخط التي عمت الهنادكة جميعاً بسبب موقف السلطان غير
الودي معهم ، وكانوا قد غدوا يناصبون الدولة العداء من قبل
عند أن قتل جها نغير زعيمهم أرغون حين ظاهر ابنه خسرو
في خروجه عليه .

وهذه الطائفة . وهي من الجبات التي يجابون . إمامها مصلح
ديني يدعى غورو نانك ، ظهر في القرن التاسع الهجري ، وحاول

أن يصهر ديانات الهند في مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعا ،
ويقضى على فروق الطوائف ، ويعلم المساواة التامة بين الناس .
وبلغ رابع خلفائه رام داس مكانة مرموقة عند السلطان
أكبر ، حتى أقطعه أرضا أقام عليها محلة لا يتباعه ومريديه ، فما زالت
تنمو وتكبر حتى صارت إلى مدينة أمر تسهر كعبتهم الدينية
اليوم بالبنجاب .

حتى إذا ما تفشت الكراهية المسلمين بينهم بسبب مقتل
جها نكير خليفته أورغون ، شرع زعيمهم الجديد هار غووند
يُعيدُهم إعدادا عسكريا للدفاع عن كيانهم .

وحين ثار بهم تاسع زعمائهم غوروتغ بهادر ليعارض الدولة
في اضطهادها للهندكة وتخريبها لمعابدهم ، فقبص عليه أورنكير
عام ١٠٨٦ هـ : ١٦٧٥ م وأورده مورد الردي ، انطلق
ابنه غووند سنغ يشعل روح الحماس في قومه ، ليثأروا لقتلهم ، وهو
يوصل تدريبه الحربي لهم ويعمدهم بنقيع السيوف والخنجر .
فصمدوا لكل الضربات التي وجهتها إليهم الدولة في عزم
وإصرار حتى تم لهم السيطرة على منطقة التلال فيما بين سنلج ،
رافد السند ، وجمسه .

وأحاطت قوات الدولة بهذا الزعيم آخر الأمر بعد أن قتلت

وإليه ، فالتحق بخدمة بهادر خان خليفة أورانغزيب ، (١) لانتاب قومه ، حين بدأ الضعف يدب في بناء الدولة ، إلى جيش جهور غدا والمرهتها نذير سوء عليها .

الراجپوتيون : أدى فرض أورانغزيب جزية الروس من الهنادكة من جديد ، بعد أن ظلوا يعفون من دفعها ذابة قرن ونصف القرن ، إلى تفاقم الإضطرابات بينهم واشتداد أولر غضبهم .

وكان هدف السلطان من وراء إعادة فرضها هو الحصول على المال الذي أعوزه في حروبه الكثيرة ، فلم يلتفت إلى توسلات جموعهم الكثيرة التي وفدت إليه وزحمت طريقه إلى المسجد ، حتى استخدمت القبيلة لتفريقها فهلك كثير منهم تحت أقدامها .

ولم يقبل الأمراء الراجپوتيون جزية الروس هذه عن طيب خاطر ، وقد انقلب السلطان ينظر إليهم بعين الإمتحان ، في حين أن أسلافه ، حتى بعد استيلائهم على أقوى حصونهم في چتور ، كانوا يعدونهم في الغالب حلفاء لهم ويحفظون عليهم مراسم الأمانة والإمارة .

حتى إذا ما احتجز أورانغزيب بيلاطه أحد أبناء راجاجسوانت

بعد موته . وكان هذا الأمير قد شارك في إقرار الأحوال عند
الأطراف الشمالية الغربية لأهند . فبرأى إلى قومه أنه إنما ينبغي
بفعلته هذه إلى حمل الأمير الراجبوتي الصغير على اعتناق
الإسلام . أتفقوا حول درغا داس راجاسوار (جدهمپور)
الذى توصل بالحيلة إلى تخلص الأمير من أسرته ونقله وأمه إلى
إمارته (١) . لينفذ السلطان عندئذ قائده تهور خان وابنه أكبر
لغزو هذه الإمارة وضمها إلى أملاك الدولة

كذلك انبرى أمير أوديسا (مواس) بدور يعارض ما فرض
عليه وعلى قومه من جزية الروس فاجتاحت قوات الدولة بلاده
بدور . وخرت ما بها من مهابدى راجبوتى لم يشفع لها ما كان
بين أميرها وأورنگزيب من صلوات مودة وسلام .

استصم الأمراء الراجبوتون النمرون من بعد ذلك بخصونهم
في الجبال ، وأطلقوا من هناك نشطين الإيقاع قوات الدولة .
وقد شمل أكبر رابع أثناء أورنگزيب في كبح جماح هؤلاء الثورين

١ - منتخب الباب ٢٩٨ .

٢ - رفض أمراء أدايبور دائما معاهدة سلاطين المسلمين ، كما رفضوا فيما بعد
أن يشاركوا في حفل تويج فكتوريا ملكة بريطانيا امبراطورة على الهند ، ورد
أميرهم إلى نائبها قلادة كوكب الهند محتجا بأن أحداً من أجداده لم يحمل شعار
المسودية من قبل .

الذين كادوا يصلون إلى قطع الإمدادات والمؤن عن أورنگزيب نفسه وهو في موار .

وأدى حرج الموقف بأورنگزيب إلى استدعاء ولديه الآخرين ، أعظم ومعظم ، بقواتهما من الدكن والبنغال لمشاركة الحرب عند موار ، في حين وجه ابنه أكبر إلى موار بعد أن أنبئه تأنيباً شديداً لهاونه السابق مع العدو . فإذا بالأمراء الراجپوتيين يلتفون حول هذا الأمير الغاضب ، وكان إذ ذاك في الثالثة والعشرين من عمره طموحاً فتياً ، فما زالوا يزينون له الخروج على أبيه حتى استجاب لهم ونادى بنفسه سلطاناً عليهم .

هنالك قرّر قرار القوم على الزحف ، بمجموعهم التي تجاوزت السبعين ألفاً ، إلى آجمير مقر السلطان ، ولم يكن بها حوله من الجند عندئذ ما يزيد على الألف فارس ، حتى أتاح تباطؤ الأمير أكبر وانشغاله بمتعة الفرصة لأورنگزيب ، فبلغ بدهاؤه وحسن تديره إلى صرف الأمراء الهنادكة وجموعهم عن ابنه وجذب مامعه من قوات الدولة إلى صفوفه ، إذ اصطنع خطاباً بعث به إلى أكبر ، تعمد أن يقع بأيدي الراجپوتيين ، وقد أثنى فيه على الأمير وعلى خداعه للأعداء على مارسمه له من قبل ، وأمره باستدراجهم وقواتهم حتى

يُخَصَّرُونَ بَيْنَ قُوَّتَيْ الْمُسْلِمِينَ لِيَسَادُوا عَنْ آخِرِهِمْ^(١) . فإذا بالراجپوتين ينفرط عقدهم حين أطلعوا على الرسالة ؛ وإذا بالأمير الثائر يجد نفسه وحيدا في الميدان ، فيمعن في الحرب حتى ينزل بعد مطاف طويل عند شهبوجى بن شيواجى زعيم المرهتيا بالدكن . وقد أبحر من أحد موانئه من بعد ذلك إلى إيران فأقام بها إلى آخر حياته .

وانتهت الحرب مع موار عام ١٠٩٢ هـ / ٦٨١ م بعد أن قبل أميرها التنازل عن بعض حصونه للدولة نظير إعفائه وقومه من جزية الرءوس . أما موار فقعد بقيت على عصيانها حتى أقر بهادرشاه ، خليفة أورنگزيب ، لأصحابها بحقوقهم فيها . الشيعة والمرهتيا : قضى أورنگزيب ، بطريق العنف الذى سلكه مع الأمراء الراجپوتيين ، على هورد قوى من الجنود الذين ظالموا ساندوا الدولة فى حروبها أيام السلطان جلال الدين أكبر وخلفائه . كما شارك أمراؤهم ، فى الوظائف الكبرى وفى الجيش ، فى تحقيق المنعة للدولة وتوفير المهابة لها . وكان هؤلاء المحاربون الأشداء كتميلين بشد أزرا أورنگزيب فى حروبه الطويلة التى تضاها بالدكن فابتلعت الأموال الطائلة وفى فيها ألوف كثيرة من أبنائها . وبدأ بناء الدولة من

سائر أمتها يتزعزع ويتصدع .

فقد عقد العزم ، بعد أن تم له إخضاع موار عام
١٠٩٠ هـ / ١٦٨١ م ، على السير إلى الدكن . فهاهم سلاطين المسلمين في
بيجاپور وغولكونده لا يزالون يحملون هناك لواء التشييع ويروجون
لذا المذهب الذي يرى أورنگزيب أنه من أفدس الفروض عليه ،
يرصفه سلطان السنيين وحامى حمى المذهب ، أن يقضى على ملكهم
أو يعودوا إلى ملتته . ولقد أرغم في عهد أبيه على وقف القتال
معهم ومهادنتهم ، ليهتبلوا الفرصة التي أتتحت لهم من بعد ذلك بمرض
شاهجهان وقيام حرب الوراثة بين أبنائه فيعودوا إلى سيرتهم
الأولى في العصيان ونبذ طاعة الدولة . وهاهم المرهتها قد تفاقم
خطرهم ، والدولة منشغلة بحروبها عند الحدود الشمالية الغربية وفي
أراجپوتانا ، فانتشرت عصاباتهم تخرب المدن والقرى وتنتهبها
وتغتصب الحصون وتقطع الطريق على التجار وتأوى عندها
الخارجين على سلطان الدولة حتى نزل الأمير أكبر بن أورنگزيب
آخر مطافه بيكنفهم .

ولم تكن الدكن ، على كل حال ، بغريبة عن هذا السلطان ،
فقد وُتلي حكمها في عهد أبيه ما ينوف على اثني عشر عاما
يعرف مالا أرضها من خصب عميم وما لأمرائها من ثراء عريض .

وكان المرهتها الدكنيون هم أول من اجترأ من سكان الجنوب في الغالب على الزحف إلى الهندستان . وقد قضى أورنغزيب عالمگیر أكثر من ستة وعشرين عاما يحاربهم هناك . وقد أنزلت عصاباتهم بالدكن كله في أيامه خسائر بالغة بما خربته من مدنه وقراهه وما أحرقته من زرعه وضرعه حتى شاركوا فيما بعد مشاركة فعالة في انهيار الدولة .

ويُشتق اسمهم من مهاراشترا ، أى المملكة الكبرى ، وهى التى لم يبلغ الباحثون تحديدها في القديم بعد . ويعتقد البراهمة من زمرة الشودر أدنى طبقات الهند وطوائفها ، وإن كانت سماتهم فيها كثير من سمات التورانيين . وقد ذاع اسمهم في القديم على كل حال حين استعان بهم بليكسين الثانى في حروبه مع هرشا .

وامتدت إلى منازلهم بالدكن يدورها موجة الإصلاح الدينى التى ظهرت فى أماكن متفرقة بالهند فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادى ، فظهر من هداة المراهمة ، اكناته وتكرام ورام داس ، ينكرون نظام الطبقات ويجهرون بأن الشودرى قادر بعقيدة بهاكتى (أى الإخلاص لله) أن يبلغ عند الله منزلة ليست

دون منزلة البرهمي الورع^(١) .

وقد أفاد منهم ملك عنبر الحبشي الوزير الدكني في حربة مع جهانگیر ، على ما ذكرناه من قبل . وظهر من بين صفوفهم من بعد ذلك شاهجی بهونسلا الذي حارب الدولة ثم عمل تحت لوائها لينضم آخر المطاف إلى صفوف البيجاپوريين من بعد ذلك . وحين قضى شاهجهان على إمارة أحمد نگر ، تمكن ذلك القائد المرهتي بعد قليل من أن يمد نفوذه إلى هذه الإمارة ويُجلس على عرشها أميراً من أسرة نظام شاهي . حتى اجتاحت جند الدولة هذه الإمارة من جديد ، فليجأ شاهجی ثانية إلى بيجاپور ثم اعتكف آخر الأمر في إقطاعه بيونا وشارغوندا على مقربة من بمباي .

شيواجي : نشأ شاهجی ابنه شيواجي تنشئة عسكرية منذ صغره . وأتاح له لزومه بلاط بيجاپور بعض الوقت التمرس بالسياسة والوقوف على الكثير من أحوال الدولة وعلاقاتها بسلاطين الدكن ، كما بث في نفسه حكيم المرهتها ، رام داس ، حباً الهنادكة ، وحرصه على وقف حياته للدفاع عن

بنی جلدته ومقدساتهم .

حتى إذا ما اضطربت الأحوال في بيجاپور بسبب مرض سلطانها عام ۱۰۵۶ هـ / ۱۶۴۶ م . انتهز شيواجى هذه الفرصة ليستولى على جملة حصون حول بونا (۱) . إقطاع أبيه . ولينفذ من بعد ذلك إلى إقليم كُنكان .

هنالك بادر سلطان بيجاپور إلى اعتقال شاهجى فلم يطلق سراحه حتى تعهد ابنه شيواجى بالركون إلى السلم والابتعاد عن انتهاب أراضي الإمارة وتخطفها .

ولكن المرهتهى مالبت أن عاد إلى كُنكان من جديد ، وأورنگزيب نائب شاهجهان إذذاك بالدكن مشتبك في الحرب مع بيجاپور ، فوضع يده على أغلب أراضيه ، وتحكم في موافيه حتى رد البيجاپوريين عنه حين ساروا إليه من بعد ذلك ، وطفق يتعقبهم في تقهقرهم عنه حتى دخل بلادهم . فلم يرتد عنها إلا حين بلغه زحف شايبسته خان قائد أورنگزيب على الدكن .

وأتيح لشايبسته خان أن يقتحم بونا وحصن شكن ويثبت أقدامه في القسم الشمالى من كُنكان ، ليفاجأه عندئذ شيواجى بمقره في

مائتين من رجال عصاباته قدموا في هيئة من يحنفون بزفاف صبي ، فانقضوا على قصره في غارة ليلية قُتِل فيها أغلب حراسه وحرّبه وأصيب هو نفسه بجراح شديدة (١) .

واستشرى خطر هذا الزعيم المرهبي حتى سقط في أربعمائة من رجاله على ميناء سورات الغني فانهب سكانه وتجاره وما صادفه فيه إذ ذاك من سفن الحجاج المسلمين . فلم يقف في وجهه هناك إلا مصانع الهولنديين والإنجليز الذين لم يأبهوا تهديده وأغلظوا القول لرسله ، فعاد بأسلابه إلى مقره دون أن يجره على التعرض لهم بسوء .

وثار أورنگزيب لفرط جراءة هذا الثائر ، فبعث إليه بجيش كبير، عليه ابنه معظم ، اكنسح بلاده حتى هدد مقر حكومته في رايبكره ، ليهادن الدولة من بعد ذلك فيتنازل لها عن الكثير من الحصون ويتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة لها .

وما زال السلطان بعدوّه حتى حمّله، بحسن تدبير قائده راى سنخ ، على القدوم إلى آگرا ومعه ابنة شهبوجى ليقدّم فروض الولاة إليه بنفسه .

وحسين أحسن هذا الزعيم المغامر بأنه وابنه معتقلا
في دارهما ، احتالا على الخراس فهربا من محبسئيهما في سلتين
من سيال القاكه بتديير محكم ، لينطلقا من بعد ذلك إلى
مناوأ أورنكزيب من جديد . وقد كان في إمكانه أن يكسبهما
إلى صفه باصطناع المودة معهما فيباغ بمعوتيهما إلى إخضاع الجنوب
كله لسلطانه دون كبير عناء .^(١)

ومن عجب أن شيواجي ، حسين عاد إلى مقره ، وجم
وزراءه منصرفين إلى تديير شئون الدولة وكان شيئا لم يقع
لا . سيرهم

وعادن شيواجي الدولة عامين انصرف فيهما إلى تنظيم
حكومته ، وكان يدير شئونها إذ ذلك مجلس برئاسته قوامه
ثمانية من الوزراء لشئون المسان والشئون الداخلية والخارجية
والدينية والبلاط وشئون الحرب والقضاء ، وجميعهم ، فيما
عدا وزيرى العدل والشئون الدينية . كانوا من أصحاب الرتب
في الجيش .

وعدل شيواجي عن نظام التجنيد الذى كان يلزم به رجاله
فضاء ستة أشهر من كل سنة فى المعسكرات لينصرفوا من بعده

إلى حقوقهم ، فأقام له جيشاً ثابتاً التزمت حكومته بنفقاته . وكان فوائده أول الأمر المشاة حتى يسهل تشكيل العصابات منهم . ثم ضم إليهم من بعد ذلك فرق من الفرسان صاروا مصدراً للفرع والرعب أينما حلوا وساروا . (١)

ولم يهتم المرتهبها إلا بترقية الزراعة وتوسيع رقعتها . فلم يلتفتوا إلى العناية بالتعليم أو العمل على كسب الأهلين إلى صفوفهم (٢) .

وظلقت تصابيحهم تعاود نشأتها من جديد ابتداء من عام ١٠٨١ هـ ١٦٧٠ م حتى طردت نائب السلطان من كُنسكان . وسقطت مرة ثانية على سورات ، فبلغ ما انتهت به منها ما يزيد قيمته على سبع ملايين من الروبيات . وكان من أثر غاراتهم المتكررة على هذا الميناء المهم أن أدى انتشار الرعب منهم بين السكان إلى كساد التجارة فيه .

ونادى شيواجي بنفسه آخر الأمر أميراً على قومه عام ١٠٨٥ هـ ١٦٧٤ م ، والدولة منشغلة عنه إذ ذلك بفتح الشمال ، وقد ضم إليه كثيراً من الأراضى والحصون في نطاق مملكة

١ — Hist. of the Mahratlas. Vol 1 175

٢ — Shivaji and his times 485,6

فيًا يانكر القديمة التي بات الهنادكة فيها يحلون باستعادتهم لمجدها
الغابر عـلى يديه .

ثم انطلق من بعد ذلك ينتهب أملاك الدولة نفسها ، بعد أن
اغتصب بعض حصون أخرى من سلطنة بيجاپور . فلم يستطع
دائرخان قائد أورنگزيب أن يصمد في وجهه كثيراً ، حتى طواه
الردى عام ١٠٩١هـ / ١٦٨٠ م ولما يكمل الثالثة والخمسين من
عمره (١) .

وزرع من بناء الدولة التي أقامها شيواجي ، انصراف رجاله
من بعده إلى تحقيق أطماعهم وآرهم الخاصة ، فانقلبت القوة التي
أقام صرحها إلى سلاح هدام استخدمه رجاله في منازلهم فيما
بينهم ، ليحىء من بعد ذلك أورنگزيب ، بعد فراغه من حروبه
في الشمال ، فيلتحم معم في معارك متعاقبة استمرت سنين طويلة
وأصيبوا فيها بضربات متلاحقة منه وخسائر جسيمة في الأموال
والأنفس .

بيجاپور وغولكونده : قدم أورنگزيب عالمكير إلى

١ — يذكر خافي خان في منتخب الباب « ٣٠٥ » لشيواجي أنه كان يحرص
في غرابه على ألا يتعرض أحد من رجاله لساقد المدين أو نائهم وأطفالهم بالسوء برغم
عدائته الشديد لهم .

بُرهانپور عام ۱۰۹۲ھ/ ۱۶۸۱م ليقود بنفسه معارك الدكن ، فبعث
بابنه الامير مُعظم لغزو اراضى المرهتا ، فتوغل في كُنكان ليجد
العدو قد جلى عنها بعد أن أحرق زرعها وخرَّب قراها. حتى إذا
ما حاول الجيش الغازى أن يمون جنده بالمؤن عن طريق
البحر سقط الثوار على السفن فاستولوا على ما بها من حبوب
وأغرقوها .

وحين وجه السلطان ابنه الثمانى أعظم إلى بيجاپور وسار هو
إلى أحمد نگر ، انطلق شمبھوجى بن شيواجى وخليفته إلى خاندش
غرب بعصاباته قراها ، حتى إذا ما قدمت إليهم قوات الدولة تفرقوا
سراعا . على عادتهم ليتصيدوا أفرادها وينزلوا بها خسائر كثيرة .
هنالك رأى أورنگزيب أن يوجه جهوده كلها إلى الاستيلاء
أولا على إمارتى بيجاپور وغولكونده فيحرم بذلك المرهتا من
أموال كثيرة كانت تلتزم هاتان الإماراتان بدفعها لهنم اتقاء
لشرهن ، وبيع في الوقت نفسه إلى القضاء على أصحاب مذهب
ينكره أشد الإنكار ، وهو مذهب الشيعة الذى كان يدين
به سلاطين هاتين الإماراتين ويروجون له بالهند .

وفى هاتين الإماراتين اللتين كان الضعف قد تسرب إلى
حكومتيهما فى قوة بسبب تنازع حكاهما ووزائهما فيما بينهما ،

كانت نواة عصابات المرهتها الحديثة ، وفيهما كذلك عاش زعيمهم شاهجي وابنه شيواجي وحفيده شيمهوجي ، وكانوا جميعا على تحالف وثيق في بعض الأوقات مع حكامهما، ويجمعهم معا في صعيد واحد ، آخر الأمر ، عداؤهم المشترك للدولة وكرهيتهم المتأصلة في نفوسهم لها .

وأشرف أورنگزيب بنفسه على حصار حصن بيجاپور ، فلم يغن صاحبه فتيلا استجاده بأبي الحسن قطب شاه سلطان غوالكونده أو بشيمهوجي أمير المرهتها ، حتى أرغم على الاستسلام بعد دفاع مجيد ، دام عاماً وبعض العام ، استطاع إبّانه البيجاوريون بمعاونة المرهتها أن يخربوا كافة الأراضي الزراعية ببلادهم ويحرقوا محاصيلها حتى عانى الغزاة شحاً شديداً في الأقوات كاد يصر فبهم غير مرة عن غايتهم ، لولا عناد قائدهم أعظم بن السلطان وشدة مراسه .

ودخل السلطان بنفسه المدينة قبيل أواخر عام ١٠٩٧ هـ / ١٦٨٦ م فهدم كل النقوش الهندية التي كانت تزين قصر سلطاتها سكندر شاه ، كما خرب رجاله بدورهم جملة من المنشآت الفخمة الأخرى بها .

وقضى سلطان بيجاپور وهو في الثانية والثلاثين عن عمره

مد أن أنفق بضع سنين في حصن دولت آباد بالديكن وشاركه
حبسه هذا بعد قليل أبو الحسن قطب شاه سلطان غولكونده بعد
من سقطت بلاده بدورها في أيدي الدولة^(۱)

ذلك أن أورنگزيب كان قد استمد حقيقه على صاحب
غولكونده أمير حيدر آباد حين امتنع عن دفع الجزية التي تعهد
بها للدولة من قبل ، ونقض اتفاقه معها بالابتعاد عن مخالفة
أعدائها ، حتى اتخذ له وزيرين من الهنادكة هما مادانا وآلنا فكانا
على اتصال وثيق بشمبهورجي ، زعيم المرهتيا في الخنساء ،
بها هو آخر الأمر يعاون انتخاب بيجاپور في حربهم مع الدولة.

هالك زحف أورنگزيب على غولكونده ، وابنه أمظم في
حصاره بيجاپور . حتى إذا ما بلغه فتى الأهلين بها للوزيرين
لهندوكيين مدد من المضى في زحفه ، إلى حين . ليعاون إبه
أولا في حربه .

وعاد السلطان ، بعد سقوط بيجاپور ، إلى غولكونده من
جديد ، ليواجه بها مقاومة عنيفة عاون أصحابها عليها المرهتيا ،
فأحرقوا الزرع على عادتهم . وأخذ الجوع والوباء يفتك بجد
الدولة حتى تمكن أورنگزيب ، بالرشوة والخديعة ، من التسرّب

۱ - عالمگیری نامه ، ۹۴۶ .

آخر الأمر إلى داخل الحصن .

ولم يفتر تدفق الغزاة في عضد الوزير عبد الرازق الذي انطلق في حفنة قليلة من رجاله لا تزيد على اثني عشر نفراً يدفع بهم أعداءه عند باب الحصن في تهور وشجاعة مذهلة حتى أعاقته جراحه التي زادت على السبعين عن مواصلة النضال .

ونذب أورنگزيب لعلاج هذا الوزير طبيباً هندياً وآخر أوروبياً . وحين شفى من جراحه أراد السلطان أن يكرمه لشجاعته بإلحاقه وولديه ببعض المناصب ، فاعتذر له ممتناً بأنه لا يستطيع أن يخدم سلطاناً بعد مليكة أبي الحسن ، أكبر أورنگزيب فيه وفاءه وشمله بالكثير من الرعاية والإحسان (١) . وفي حصن غولكونده ومدينة حيدر آباد الدكنية استحوذ أورنگزيب على كوز كثيرة وأموال طائلة كانت تدرها على هذه البلاد أراضيها الخصبية وموانئها التي كانت تزدهم بالتجار الأوروبيين ومصانعهم التي كانوا يدفعون عنها للسلطان رسوماً باهظة سنوية .

شبهو جى : انتهى أورنگزيب من أرهاقته الإماراتين ليفرغ من بعد ذلك لحرب المرهتها . وكان أميرهم شبهو جى بن شيو اجى قد أثر أن

يلزم حصن سنجمشوار طالبا للسلامة : والسلطان منهلك في حربه مع جيرانه ، حتى وقع عليه مقرب خان قائد أورنگزيب ، وهو في تقاعسه منصرف إلى لهوه ، فأسره مع زوجاته وبناته وفريق من رجاله : ثم قتله وأعيانه وأمر فطُوفَ به وسهم في أغلب مدن الدكن عام ١١٠١ هـ / ١٦٩٠ م عظة وعبرة (١) .

وسقطت راجكره عاصمة المرهتا بأيدي الدولة بعد أشهر فلانل من أسر أميرهم ، وأحيط بأفراد أسرته جميعا إلا رامداس ، ليجتاح أورنگزيب من بعد ذلك الجنوب كله حتى يبلغ تنجوره بأقصاه .

بهذا صارت شبه القارة الهندية كلها في حوزة أورنگزيب إلا أماكن قليلة عند الساحلين الشرقي والغربي كانت بأيدي المستعمرين الأوربيين ، وإن لم يمكنه ترامي أطرافها ، وما يحمله له أغلب أهلها الهنادكة من كراهية وعداء ، من إحكام قبضته في الواقع عليها وتثبيت أقدامه بها . وهذا فضلا عما استنزفته حروبه بها من أموال طائلة حتى عجزت الدولة أواخر أيامه عن الوفاء بمقرارات الجند (٢) .

لقد أراد أورنكزيب أن يجعل من جنوب الهند إمارة تابعة له يجرى حكمها على غرار حكومة البنغال أو البنجاب ، فقضى هذه السنين الطويلة مقيما ، في الغالب ، هناك حتى نهاية عمره ، فلم يبالغ إلى تحقيق هدفه على الوجه الذى ابتغاه . ذلك أن قواده لم يكونوا من طراز أولئك الرجال الأشداء ذوى الجلد الذين ساروا مع جده الأكبر بابر ففتح بهم الهندستان وكسر بهم شوكة الراجپوتيين ، إذ كان كل واحد منهم يحرص أشد الحرص وهو فى حملات الدكن على توفير أسباب الرفاهية والأبهة لنفسه على أكمل وجه وكأنه لا يزال يقيم بالعاصمة فى قصره ومن حوله نسائه وجواريه . هذا كما كان الراجپوتيون بدورهم قد تخلوا عنه ، وهم الذين طالما عاونوا آباءه فى حروبهم من قبل . فلو كان قد أتبع لأورنكزيب رجال من أولئك وهؤلاء لاستطاع أغاب الظن ، القضاء التام على المرهتها فى يسر ، ولثبتت أقدامه فى الهند كلها ، ولجنّبت الدولة بالتالى الأخطار القاتلة التى تعرضت لها فيما بعد على أيدي المرهتها والسك^(١) .

هذا وقد حاول راجا رام داس أن يلم شعث المرهتها من جديد ، بعد أن كتبت له السلامة من الأسر ، فلم يحالفه التوفيق ،

حتى حاصرته قوات الدولة آخر الأمر في حصن ستارا إلى الجنوب من بونا . واستسلم أصحاب الحصن لأعدائهم بعد موت أميرهم ، وقد تزعمتهم من بعد ذلك تاربي أرمله هذا الراجا فقاتت عصاباتهم في عزم أسلافها وحنسكتهم . وحين سار أورنگزيب إلى أحمد آباد عام ۱۱۱۷ھ / ۱۷۰۵م مضوا في أثره يخربون أراضى الدكن حتى مشارف مالوه ، فبلغ ما هلك من السكان على أيديهم هناك ، وما قضى عليهم القحط ، بسبب أنجاس الأمطار قبل ذلك بسنوات قليلة ، بضعة ملايين .

لم ينقض عام على أورنگزيب بأحمد آباد حتى بلغ به المرض والشيخوخة مبلغه فأيقن بدنو أجله . هنالك فرّق أبنائه في أنحاء الدولة مخافة أن يقع بينهم ما وقع بينه وبين إخوته من قبل من تطاحن وقتن ، فبعث بأعظم إلى بيجاپور ، وبكام بخش ، أحب أبنائه إليه ، إلى مالوه .

وكان أورنگزيب منذ أول عهده على حذر تام من أبنائه حتى لم يتردد في إلقاء ابنه الأكبر سلطان في الحبس حتى مماته ، كما سجن ابنه معظم سنوات ثمانية حين بلغه خبر تفاوضه مع سلطان بيجاپور ، أثناء حرب الدكن ، دون تصريح منه . وفعل مثل

ذلك مع ابنه كام بخش وكان أقرب أولاده إليه . بل إنه لم يتردد كذلك في عقاب ابنته زيب النساء ، وكانت شاعرة موهوبة ، اعطفها على أخيها أكبر حتى وافاها أجلها في الحبس (١) .

وحين اشتد به الداء أوصى رجاله أن يقيموا له جنازة بسيطة عند وفاته ، ويسرعوا بدفنه في أقرب مقابر المسلمين ، ولا يزويدوا في ثمن كفنه على خمس رويات كان قد كسبها من صنع الطواقي وبيعها ، وأن يتصدقوا على الفقراء بثلاثمائة من الرويات كانت هي كل ما يملكه وما تبقى له من دخله من نسخة للقرآن الكريم وبيعه .

وفاضت روحه يوم جمعة ، على مناه ، في الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة عام ١١١٨ هـ / ١٧٠٧ م وهو في التسعين من عمره فووري التراب في مقبرة دولت آباد (٢)

شخصية أورنگزيب : وقف أورنگزيب عالمگير حياته كلها على إعلاء شأن السنة ونشر لواء الإسلام خفاقا عاليا ، ومجاهدة عبادة الأوثان والخارجين على إجماع أهل السنة

من أصحاب المذهب الشيعي وغيرهم . وقضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقى يحفظ القرآن ويصوم أغلب أيامه ، حتى كان لا يتردد ، وأعنف المعارك تدور من حوله ، في أن يزل عن دابته فيؤدى الصلاة في وقتها باطمئنان بالغ وخشوع وكأنه يقيمها بالمسجد الجامع أو في داره (١) .

وبلغ من ورعه وتجنبه للترف والمتع ، إلى جانب تحريمه التام للخمر والميسر ، أن أبعد الموسيقيين والمطربين عن بلاطه برغم براعته في العزف (٢) ، وخير الراقصات بين الزواج أو النفي في الأرض . كما طوى قلبه على الرحمة البالغة برعاياه حتى بعد كل البعد عن القسوة والقتل ، وكاد يستغنى عن اصطناع العقاب في محاكمة المجرمين إلاّ قطاع الطرق منهم (٣) هذا فضلا عما شُهر به من تجمل بالصبر وهدوء النفس في المحن ، والتواضع الشديد الذي أدى به إلى تهديد نائبه بالبنغال حين

١ — مرآة عالم ١٦١ .

٢ — يروى أن الموسيقيين حملوا عندئذ النعوش مولولين والبطان في طريقه إلى المسجد ، حين استفسر عن أمرهم أجابوه بأنهم في طريقهم لدفن الموسيقى ، طلب إليهم أن يحسنوا دفنها حتى لا تعود إلى الحياة ثانية .

بلغه أنه يتعالى عن الناس في مجلسه حتى اتخذ له ما يشبه العرش ليرتفع عليه (١) .

واقعد نشأ منذ شبابه على التمسك بالحكم والاضطلاع بالحرب ووقائعها ، فأصاب نجاحا كبيرا في حكم الدكن وحرابه ، كما ذاع صيته كذلك في ممالك بلخ وبدخشان مع الأوزبكي وغيرهم .

وأدت به رقابته لضميره في كافة ما كان يصدر عنه من أعمال أنه كان لا ينام إلاّ ساعات قليلة ، لينفق وقته كله في الإشراف على كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة بنفسه . ويسهر في دأب متواصل على مصالح رعاياه . ويبت في كل مسائلهم برأيه الخاص ، حتى كان وزراؤه في الغالب مجرد كُتّاب لتنفيذ أوامره .

وبلغ من حرصه على تحقيق العدل لرعاياه أنه أصدر أوامره المشددة لقضائه في كافة أنحاء البلاد بأن يتوافروا على دراسة قضايا الناس ومشاكلهم . مع سرعة الفصل فيها بالجلوس للقضاء خمسة أيام في كل أسبوع بدلا من يومين على الرسم السابق .

على أن غيابه الطويل بالجُزوب وهو يدير دفة المعارك هناك ،
قد أدى إلى تسرُّب الفساد إلى جهاز الحكم وسلوك أغلب العمال
طريق العنف مع الأهلين .

ولم يلبس أورنگزيب إلا بسيط الثياب ، ولم يكن يسمح
لأحد أبداً أن يغتاب غيره في حضرته . وأدى به ورعه وزهده
إلى أن كف يده عن بيت المال ، في الغالب ، فعاش على ما كان
يكتسبه من صنع الطواقي بنفسه ونسخه للقرآن الكريم بخطِّه
الشكست [الرِّقعة] والنسمة تعليق ؛ وكان له في كتابته ذوق فني
رفيع ، وكان يبعث ببعض هذه النسخ هدية منه إلى الحرمين
الشريفين . وقد كان من أمانة أن يحج إلى البيت الحرام لولا
ماخافه من اضطراب أمور الهند في غيبته ، فأخذ على عاتقه تيسير
سبل الحج لرعاياه .

ولم يشتغل أورنگزيب في حياته بغير علوم القرآن والسنة
في الغالب ، على تمكّنه من الآداب الفارسية وبراعته في التنظيم
الذي عدل عنه حذر الغواية .

وألف بأمره وإشرافه موسوعة مهمة تجمل أقوال أئمة
الفقه الحنفي في المذهب ، وهي المعروفة بالفتاوى الهندية

أو العالمگیریة (١) .

على أن أورنگزیب كان یرى اصطناع الخداع فی السیاسة امرأ واجباً ، وأنه لا ضیر علی الحاکم من نشر شبکة من العیون بین الناس لتأتیة بأخبارهم وتنبئه بأحوالهم . كذلك لم یسکن یرَ بدأ من أن یصطنع السلطان الرحمة والشفقة مع أعداء عقیدته الذین یناوتونه ، فمصف لذلك بالمرهتها والراجپوتیین والشیعة والسک عصفاً شدیداً حین وقعوا فی قبضته .

البریطانیون عند أورنگزیب : کان من أثر وقوف البریطانیین فی وجه شیواجی زعیم المرهتها ، حین أفدم علی نهب سوارت ، أن توثقت علاقاتهم بأورنگزیب الذی قابل موقفهم من عدوه بتخفیض الرسوم التی كانت تفرض علی وارداتهم .

وكان البریطانیون قد أفادوا ، من قبل ، من سخط شاهجهان علی البرتغالیین وتدمیره لمراکزهم عند هو جلی . فحصلوا علی إذن لهم منه بإقامة وكالة لهم هناك ، لتخضع من بعد ذلك كل وكالاتهم الهندیة لإشراف موحد مرکزہ فی سوارت .

١ — طبعت هذه الفتاوی بمصر عام ١١٨٢ هـ أى بعد ماضی قرن ونصف القرن علی وفاة أورنگزیب . وهي من المراجع الترعیة المهمة فی الأحوال الشخصیة .

وامتد نفوذهم التجارى من بعد ذلك إلى بمباى بالساحل الغربى ، حتى إذا ما عارضوا شايسته خان حاكم البنغال فيما فرضه عليهم من رسوم جديدة ، على خلاف اتفاقهم السابق مع شاهجهان فعمدوا إلى مناهضة الدولة ، دحرتهم قوات أورنگزيب عند كل مرآكزهم ، فضاغت منهم مصانعمهم عند هو جلى وسوليانام . وحرروا حرماناً تاماً من ممارستهم لنشاطهم التجارى فى أراضى الدولة من بعد ذلك على أن ما كانت تجبىه الدولة منهم من رسوم كثيرة ، أغرت أورنگزيب بالعمو عنهم ، فجاءوا من جديد ليقبوا لهم بأدى هو جلى محلة جديدة بالقرب من قرية صغيرة تدعى كلكتا . وماغدت هذه القرية تتسع فى تدرج سريع حتى أصبحت عاصمة الإمبراطورية الهندية البريطانية قبل أن ينتقل نائب الملك إلى دهلى الجديدة .

ووحّد البريطانيون من بعد ذلك جهودهم ونشاطهم التجارى عند الساحلين الشرقى والغربى ، فى شركة الهند الشرقية ، ودأبوا قرابة نصف قرن على التظاهر : فى حرص تام ، بالتباعد عن التدخل فى شؤون الدولة .

ولم يكن يحول بخاطر أورنگزيب عالمگير أنه بتسامحه مع هذه النصبه إنما يمهّد الطريق لأولئك الذين لم يتورعوا عن سلوك أخط السبيل وأدنتها ، حتى تم لهم استعمار شبه القارة الهندية كلها .

خلفاء أورنگزيب

يتهم بعض المؤرخين أورنگزيب عالمگير بأن عدوله عن سياسة سلفه العظيم جلال الدين أكبر في تقريب الهنادكة إليه وفتح باب مناصب الدولة الكبرى لهم قد أدى إلى شيوع الفتنة بينهم وجنوحهم إلى الثورات في مختلف أنحاء البلاد مما عجل بنهاية الدولة المغولية ، في حين يرى مؤرخون آخرون أن تقريب السلاطين السالفين للهنادكة وإصهارهم إليهم وحضهم المسلمين على الامتزاج بهم كان هو العادل الأول في زلزلة بناء هذه الدولة .

وفي هذين القولين متسع للبحث ، فأورنگزيب في تمسكه بتعاليم السنة وقتصره وظائف الدولة الكبرى على المسلمين لم يكن إلاّ ضريباً للمحمود الغزنوى ومحمد الغورى اللذين أرسيا قواعد الحكم الإسلامى بالهند . وسلاطين المغول ، وغديرهم من حكام المسلمين بالهند ، حين حضوا الناس على الإصهار إلى الهنادكة ومخالطتهم . إنما كانوا يبعون من وراء ذلك إلى تألف أفراد شعوبهم ،

وهو أمر عاون على ازدياد عدد المسلمين زيادة بالغة بالهند . حتى إن الغالبية الغالبة من المائة مليون مسلم في شبه القارة الهندية اليوم هي من أصول هندوكية .

والحجة الدالة على خطأ القول بأن اختلاط المسلمين بالهنداكة وإصهارهم اليهم أدى إلى ضياع دولتهم بالهند ، هي أن أورنكزيب نفسه أمته هندوكية خالصة . وهو الذي خضعت لراية المسلمين في عهده شبه القارة الهندية ، والذي عرف بتمسكه البالغ بشعائر الإسلام وسنته . وقد شهد ثقاة المؤرخين ، وفيهم من الهنداكة ، بحزمة وشجاعته وعلو همته وأصالته رأيه ، وقلوا بأن إلهندلم تعرف منذ أيام سكندر لودهي ، سميّ له في حب العدل والسهر على مصالح الناس . واثن كان هو آخر السلاطين المغول الكبار زمنا فهو يُعد من بين أعظمهم وأقدرهم على كل حال .

وغاية القول أن انهيار الدولة المغوية لا يرجع إلى سياسة أورنكزيب أو سياسة أسلافه نحو الهنداكة ، وإنما يُردُّ إلى ما كان عليه خلفاء أورنكزيب من الضعف حتى عجزوا عن إدارة دفة الحكم في بلادهم التي بلغ أبوهم برقتها إلى ما لم تبلغه ، حتى أيام أكبر ، من السعة وترامى الأطراف ، وتمكن بما أوتي من حزم

وقوة شكيمة ، من السيطرة على إدارتها سيطرة تامة ، اللهم إلا في أخريات أيامه حين خذلته الشيخوخة وأضناه المرض . هذا كما انصرف كثير من رجالهم بدورهم إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة فحسب ، حتى سعى فريق منهم إلى الاستقلال بما بأيديه من ولايات غير آية بالأخطار التي طفقت تهدد كيان الدولة في الداخل على أيدي المرتهتها والسك والراجپوتيين ، مما أدى إلى تيسير غزو الفرس والأفغان لها مرات متتابعة من بعد ذلك ، فزلزل بناء الدولة على أيديهم زلزالا شديدا مهد الأرض لأولئك المستعمرين الأوربيين الذين بلغوا ، بقصور السلاطين السابقين عن إدراك واياهم ، إلى تثبيت أقدامهم في أماكن عديدة بالشواطئ الهندية بما حصلوا عليه من امتيازات ورخص ، ثم انطلقوا من بعد ذلك يحصنون مواقعهم بجندهم المدرب والأسلحة الحديثة التي لم يكن لها عند الدولة المغولية نظير ، حتى أفلح البريطانيون منهم ، بالقوة حيننا ، وبالدهس والوقعة والغدر أغلب الأحيان ، في أن يضعوا أيديهم على شبه القارة الهندية كلها .

بهادر شاه :

لم يُجِدِ فتيلًا حرص أورنگزيب على أن لا تتكرر بين بنيه مأساته مع إخوته في تنازعهم على الملك . فهو حين فرّق

أبناءه في الأرض قبل وفاته ، ولم يعهد لأحد منهم بالملك من بعده .
حتى لا يتآمروا عليه في حياته فينتهي به الحال إلى ما انتهى إليه أبوه
شاهجهان من مصير أليم على يديه ، إنما أدى بإجرائه هذا إلى تأجيل
الفتنة إلى ما بعد انقضاء أجله فحسب ، دون اقتلاع أصولها .

فلم يكد يوسد الثرى حتى قامت الحروب بين أبنائه ، وقد هدف
كل واحد منهم إلى استخلاص عرش الهند لنفسه ، فنادى أعظم
بنفسه سلطانا بمالوه وكذلك فعل أخوه كام بخش بيديجاپور ، في حين
زحف شاه علم بهادر ، أكبر أبناء أورنگزيب من بشاور إلى البنجاب
حتى بلغ دهلي ، لينطلق إلى قتال أخويه من بعد ذلك فيقضى على أعظم
بعد أن بلغت قواته مشارف آكرا ، ويوقع كام بخش في أسره .
على مقربة من حيدر آباد الدكن بعد ذلك بعامين ، وقد رفض
الأسير في عناد أن يُعالج من جروحه حتى تضي بدوره (١) .

هنالك عهد بهادر شاه بالوزارة إلى بدخشي منعم خان الذي كان
له خير معين بلوغه العرش : ليواجه من بعد ذلك ثورات المرهتها
في الدكن والراجپوتيين في منازلهم ثم السك في البنجاب والجات
عند مشارف آكرا . وإلى جانب هؤلاء جميعا كان البريطانيون
قد أخذ خطرهم يتفاقم في أغلب مراكزهم وعند الشواطئ الشرقية

بخاصة ، وكان أغلب القادة قد بعث السأم والضجر في نفوسهم ،
حروب أورنكزيب السابقة الطويلة وبات الجند أنفسهم بسببها
في حالة من الإنهك الشديد الذي أدى إلى سريان الفوضى
في صفوفهم ، كما نتج عن اتساع رقعة الدولة ، وضعف
رقابتها على عمالها منذ أواخر عهد السلطان السابق ، أن
شرع فريق من الولاة بدوره يتقاعس عن شـد أزر الدولة
ومدّها بقواته في انتظار الفرصة المواتية للاستقلال بما بيده
من أرضين .

الراجپوتيون والسك : لم يمهل الراجپوتيون السلطان الجديد
وهو في حربه مع أخوته حتى انحدر أجيت سنغ بن جسوانت من
مكمنه بالجبال فائتلف وأمر سنغ صاحب اُداڤپور لينطلقا من
بعد ذلك إلى جدھپور فيطردا عمال الدولة منها ثم يعملان التخريب
في مساجدها ويتخذان منها معايد لأوثانهم ، وينذيقا المسلمين الخسف
والذل بأرضها .

وأُتيح لبھادرشاه ، بعد أن فرغ من أمر أخيه أعظم ، أن
يُلزم هاذين الأميرين طاعته من جديد ، ليعودا إلى سيرتهما
الأولى من البغى بعد قليل وهو في شغل عنهم بحربه مع ثاني إخوته
كام بخش بالدكن . حتى إذا ما عاد إليهما ثانية بعد القضاء على فتنة

الوراثه ، دفعه حسن تدبيره إلى مهادنة الراجپوتيين جميعا في اُدایبور وجدھپور وجایپور ، فاعترف لهم بالرسم الذي كان لأبائهم أيام جدّه أكبر ، كسبا المودتهم ، حتى ينصرف مطمئنا إلى حرب السّك الذين جنّحوا إلى الثورة في البنجاب من جديد (١) .

ذلك أن أحد البطھانيين الأفغان اغتال بالدكن كووند سنغ ، عاشر زعماء هذه الطائفة . الذي كان قد وقع في أسر أورنگزيب ثم التحق من بعد ذلك بخدمة بهادرشاه فسار معه في حرب كام بخش بالدكن . وحين بلغ خبر مقتله البنجاب من بعد ذلك انطلق خليفته بندا يشعل الحماس بين بني جلدته ويحرضهم على الانتقام لزعيمهم المقتول ، فسقط بهم على سرهند فقتل حاكمها لينتشر رجاله من بعد ذلك في البنجاب الشرقي فيشيعون فيه الخراب والدمار والقتل ، فلم ينج من سيوفهم الأطفال أو النساء والشيوخ . ولم يقنعوا بذلك كله حتى امتد طغيانهم إلى لاهور وكادوا يبلغون بفتنتهم مشارف دهلي . لولا أن سارع إليهم السلطان فردتهم قواته إلى تلال جامو ولم يمنع جند الدولة عن مطاردتهم وتشيت شلمهم إلا وفاة بهادرشاه بلاهور عام ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م

وهو في السبعين من عمره بعد أن حكم أربع سنوات وشهرين ساءت فيها أحوال الدولة المالية حتى اضطر القائمون على أمورها إلى اقتراض الأموال من بعض أمراءها لسد العجز في الخزانة .

وكان من حسن تدبير هذا السلطان حين أطلق سراح شاهو ، حفيد شيواجي ، أن ركن المرهتها في عهده إلى الهدوء حتى صحبه في حربته مع أخيه بالدكن ، نيا سندھيا . أحد كبار صدورهم .
ولئن كان المرهتها قد تفرقوا ، عقب موت أورنگزيب ، شيعا وأحزابا حتى ابتدوا عن تحقيق أهداف شيواجي وشمبوجي في إقامة دولة، ووحدة كبيرة لهم . فإنهم لم يعدلوا أبدا عما عرفوا به من الميل إلى التخريب والتدمير ما أتحت لهم الفرصة بذلك .
جهاندار :

تقاتل أبناء بهادر شاه الأربعة على العرش ، بعد موت أبيهم ، على المادة الغالبة عند الأمراء التيموريين بالهند .
ولقد كاد الحال يستقر بينهم ، بادی الأمر ، على أن يقتسموا ملك أبيهم فيما بينهم فيكون لجهانشاه الدكن ولرفيع الشأن الملتان ، رتنا، وكشمير ، على أن يقتسم جهاندار وعظيم الشأن بقية الأرض فيما بينهما . لولا أن تنازعوا من جديد على الأموال

ليباغ ذوالفقار خان بدائه إلى إثارة جهاندار ورفع الشان وجهان شاه مجتمعين، على أخيهام عظيم الشان .

واتسع نطاق الفتنة بين الإخوة جميعاً حتى سقط فيها ثلاثة منهم، ليرقى العرش من بعد ذلك جهاندار فينصرف إلى اللهو والمتعة، ويُبعد عن بلاطه الرجال المجرِّبين والعلماء، حتى زحف إليه محمد فرُّخ سير، ابن أخيه عظيم الشان، من پتنا، وكان قد استقل بها على أثر مقتل أبيه ثم مد سلطانه إلى البنغال، فالتف حوله عمال الدولة هناك لعدله وشجاعته، فأُنزل بقوات الدولة، على كثرتها، ضربات متلاحقة حتى دخل آگرا فانطلق منها إلى دهلي فوجد عمه بقلعتها، فأورده مورد الردي ولمّا يمض عليه في الحكم أحد عشر شهراً (١)

فرُّخ سير :

جلس فرُّخ سير على عرش دهلي في المحرم من عام ١١٢٤هـ / ١٧١٢م بعد أن طاف موكبه المدينة، والفيلة تتقدمه وعابها جُشتاعمه جهاندار ووزيره ذى الفقار، فاتخذ له وزيرين أخوين ينتميان إلى أشراف العرب هما السيد عبد الله خان والسيد علي خان، لينقسا من بعد ذلك على عبد الله مير جملة

معتمد الملك ما حباه به السلطان من نفوذ واسع حتى اتخذه مشيراً له وأطلق يده في تصريف شئون الدولة كلها ، فما زال يوقعان به عند السلطان حتى أبعده آخر الأمر إلى پتتا وانفردا بالأمر كله . وقد نجم عن تنافس الخصميين وما كانا يحكماه من التآمر والدس إلى هلاك كثير من الأنفس ظلماً (١) .

السكّ والمرهتا : ونزع السكّ عام ١١٢٦ هـ ١٧١٤ م إلى الفتنة من جديد ، وكان زعيمهم بندا قد وحد صفوفهم بعد أن أقاموا لهم معقلاً قويا بجودا سپور بالپنجاب ، ثم انطلق بهم إلى أراضى هذا الإقليم الشمالية فاتهبوها وسيطروا على كافة الأراضى الواقعة بين لا هور وسر هند . حتى بعث السلطان إليهم بقائده عبيد الصمد دِلر جنكغ نخاض معهم وقائع عنيفة ، فلم يفلح في إرغامهم على الخضوع والتسليم بعد أن ارتدوا إلى حصونهم إلاّ حين شاعت فيهم المجاعة بفعل الحصار المحكم الذى ضربه عليهم .

وسيق غورو پندا وألوف من أتباعه إلى العاصمة أسارى ، ليقتل منهم فى كل يوم بضع مئات حتى فنوا عن آخرهم . وما غدا زعيمهم أن لحق بهم بعد أن شهد ذبح ابنه ، أمام عينيه ، انتقاماً لمن

ذبحهم ورجاله من أبناء المسلمين في البنجاب (١) .
وكان من أثر هذا العقاب الرهيب أن ركن السك إلى
السلم بضع سنين .

هذا وكان قليج خان نظام الملك بهادر فتح جنك ، مؤسس
بيت النظام في حيدر آباد ، حين ولاه السلطان شئون الدكن قد
جد في كبح جماح المرهتها الذين انطلقوا يفرضون على التجار
والسكان ربع المكوس المقررة عليهم نظير عدم تعرض عصاباتهم
لهم . حتى إذا ما استدعى هذا الأمير إلى البلاط ليحل محله
هناك الوزير حسين على خان بعد أن غضب السلطان عليه ، أدى
بهذا الأخير انصرافه إلى مشاحناته وخلافه مع السلطان إلى مهادنة
المرهتها على أن يجعل لهم أكثر من ثلث خراج الدكن كله .
وضاق فرخ سیر آخر الأمر ذرعا بنفوذ وزيره الآخر
عبدالله خان ، فدبر هو وبعضُ رجاله خطتهم على الخلاص منه ، لكن
عبدالله أفسد تدبيرهم بحذره ، حتى قدم أخوه العاصمة في قوة من المرهتها
فأطبقوا جميعا على السلطان في قصره ووأقموه في أسرهم ثم سملوا أعينيه ،
وقضوا عليه شقا بعد ذلك بقليل بعد أن حكم ست سنوات وبضعة أشهر

رفيع الدرجات :

هنالك أجلس الوزيران على عرش دهلي أبا البركات
رفيع الدرجات في حين نادى خصوصهم بنيكوسير ، أحد أحفاد
أورنگزيب ، أميراً عليهم بآگرا .

ووافي رفيع الدرجات أجله بعد أشهر ستة من حكمه قضاها
على فراش المرض ، ليخلفه رفيع الدولة شاهجهان الثاني فيسير سيرته
في الاستسلام في كل شيء إلى وزيريه والخضوع التام لأمهما .
وقد قوى من نفوذهما استعادتهما لآگرا ووقوع أميرها
نيكوسير في أسرها .

محمد شاه : قضى شاهجهان الثاني بدوره بعد حكم لم يبلغ شهوراً
ثلاثة ، فأتى الوزير عبيدالله خان بابنه محمد روشن أختر وأجلسه
على العرش في ذى القعدة من عام ١١٣١ هـ / ١٧١٩ م باسم
محمد شاه ليحكم من بعد ذلك تسعاً وعشرين عاماً ويشهد
تفكيك الدولة وانهارها على يديه .

احتال السلطان الجديد بدوره على التخلص من استبداد وزيريه
الأخوين به ، حتى إذا ماتم له القضاء عليها ، استدعى إليه أصاف
جاه نظام الملك فاتخذه وزيراً له . لكن سلوك العصبة العابثة ، التي
غدا السلطان يتقاد بالبلاط لمشورتها ، ما لبث أن دفعه إلى ترك العاصمة

بعد قليل إلى الدكن حيث أمكن له أن يثبت أقدامه بإمارة حيدرآباد
الحالية بعد أن هزم قوات الدولة التي وفدت لقتاله ، حتى أقره
محمد شاه آخر الأمر عليها وأطلق يده في شئون الدكن (١) .

ولم يكن نظام حيدرآباد هو أول أمير استقل بإمارته
استقلالاً فعلياً لا ينال منه اعترافه الاسمي بسيادة السلطان .
إذ الواقع أن نفوذ الدولة وسيطرتها على كثير من ولاياتها كان
قد غدا ، بعد وفاة أورنگزيب بوضع سنين ، يأخذ طريقه إلى
التلاشي . فقد استقل كذلك بما بأيديه من أرضين مرشد قلى خان
نائب السلطان على البنغال وأوريسه وبهار ، أغنى أقاليم الهند ،
فتوارث أولاده ملكه من بعده ، وحذا حذوه كذلك سعادت خان
وأبناؤه بإقليم أوده .

ولئن عمد نظام الملك في إمارته الجديدة إلى إجراء الخطبة
وضرب السكة باسمه ، فقد ظل سنين كثيرة على ولائه للدولة
فساندها في كثير من المواقف بإخلاص .

وهكذا زال كل سلطان للدولة على الأراضى التي تقع إلى
الجنوب من نهر نربدا بقيام إمارة حيدرآباد الدكنية، ومن حولها
المرهتها الذين توصلوا التمكن نفوذهم وأقدامهم بما أقرته الدولة لهم من

نصيب في خراج الدكن، ضمنوا به مورداً كبيراً لهم .
المرهتها : أدى فتور همة شاهو أمير المرهتها إلى انفراط عقد
دولتهم، فراح كل زعيم من كبارهم يعمل لحسابه الخاص، وقد نبذوا
جميعاً الحرص على وحدة الدولة التي عمل لها شيهوجى وشيواجى
من قبل وتجردوا للسلب والنهب والتخريب ، وسيلتهم السابقة
لهدفهم وغايتهم من قبل .

وامتد نفوذ عصاباتهم إلى البحر ، فقاد قبطانهم تولاجى
قراصنتهم عند الشواطىء الشرقية والمبار ، فظل البريطانيون
يرهبونهم هناك حتى تم لهم القضاء على كل نشاط بحرى لهم في
الرابع الأول من القرن الثامن عشر الميلادى (١١) .

لقد كان على المرهتها أن يمسكوا بعصاباتهم عن إثارة
الاضطرابات بجنوب الهند نظير ما ترصده الدولة لهم من نصيب
في خراج الدكن . حتى إذا ما عادوا إلى سيرتهم الأولى من البغى
والعدوان ، فحاول نظام حيدر آباد أن يقتحم قصبتهم القديمة بونا
بقواته ، ردّ عنها رداً عنيفاً، وشرع أصحابها يطاردون حتى تعرضت
حاضرته نفسها لخطر هجومهم عليها ، فلم يجد آخر الأمر مندوحة

من خطب ودالپيشواى ^(١) وزراءهم الأقبوياء الذين كان ييدهم المقاليد الفعلية لإدارة الدولة ، فهادنهم على ألاّ يتعرض لهم إذا ما ساروا إلى أراضى الدولة فى الشمال بعيداً عن أملاكه ، وفى خاطره أنه بخطته هذه سيدفعهم إلى مناهضة الراجپوتيين أعدائه وأعداء الدولة على السواء .

ولو كان المرهتہا قد اتلفوا مع هؤلاء الراجپوتيين على الدولة بدلا من اجتياح أراضيهٖم ؛ مغيرين ، طلبا للغنم الذى صار كل غايتهم فى حروبهم فى الغالب ، لكفلوا لأنفسهم نفوذاً أوسع مدىً ، ومغانم أضخم قدرأ بالهند دون شبهة .

على أنهم لم يكادو يبلغون مالوہ ثم يظهرون من بعد ذلك عند مشارف دهلى ، حتى استنجد محمد شاه بنظام الملك ، الذى طمع بخروجه إلى حربهم فى أن يقضى على خطرهم المتزايد ؛ حتى إذا مادُحرت قوات السلطان ^١ وأمير حيدر آباد بجمعة عند بهوبال ، نشر باجى راو الزعيم المرهتہى نفوذه وسلطانه على كافة الأراضى التى تمتد فيما بين نربدا وسنبهل بما فيها مالوہ .

الغزوة الفارسية :

أقبلت على الهند كارثة مروّعة في ركاب نادرشاه، صاحب فارس، كانت أشد وطأة على الدولة وأبعد أثراً من الغزوة التيمورية الذي تعرضت له البلاد قبل ذلك بثلاثة قرون ونصف القرن.

ذلك أن هذا العاهل القدير، وكان من أسرة تركمانية رقيقة الحال في خراسان، توصل بجده وطموحه ودهائه إلى الجلوس على عرش الصفويين بإيران، ليتجه من بعد ذلك إلى توسيع ملكه حتى دانت له كافة الأراضي الواقعة فيما بين بحر الخزر وقندهار. وما لبث بعد ذلك أن استحوذ على إقليم كابل، وكان لا يزال بأيدي أصحاب دهلي، ثم انحدر إلى البنجاب فنشر الخراب والدمار فيه كله، بعد أن دخل لاهور في شوال من عام ١١٥١ هـ / ١٧٣٩ م.

ولقد أصمت حكومة دهلي أذنيها حين استغاث بها عاملها على البنجاب لدى مقدم نادرشاه إلى أراضيه (١)، فلم تنتبه من غفلتها إلا بعد أن كان الفرس قد توغلوا في البنجاب واقتحموا قصبته. ومع هذا فقد

أضاع السلطان المغولى ورجاله كثيرًا من الوقت فى نقاش عقيم غلبوا فيه أحقادهم على مصلحة الدولة، حتى انتهوا إلى استبعاد إسناد قيادة الحملة إلى نظام الملك أمير حيدر آباد الذى كان قد قدم لنجدة السلطان ببعض قواته، حذر الشائعات التى زعموها بتواطئه مع شاه الفرس (١). واستنجد السلطان كذلك بالراجپوتيين والمرهتا؛ فأما الأولون فلم يعيروا دعوته التفاتًا، وأما الآخرون فقد آثروا أن ينصرفوا إلى تأمين حدودهم، فأقاموا لهم خطوطًا دفاعية حصينة على طول نهر زربدا وكنوا من ورائها.

والتقى الغزاة بالمدافعين عند كرنال على حدود البنجاب فى معركة لم تستغرق سوى ساعات ثلاثة منى فيها السلطان المغولى بهزيمة منكرة استسلم على أثرها لنادر شاه، ليدخل من بعد ذلك جند فارس مدينة دهلى فيعملون فيها السلب والنهب والتدمير ويقتلون من أهلها ما يزيد على العشرين ألف نسمة.

ولم يرجع نادر شاه عن الهند إلا بعد أن اغتصب عرش الطاووس لنفسه، وأرغم محمد شاه، نظير إعادته إلى عرشه، على التنازل له عن أرض كثيرة بالبنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند؛ مع تعويضات مالية طائلة ومزيد من الجواهر

والأحجار الكريمة ، جعلته يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان فارس لسنوات ثلاثة^(١) . ولم ينس نادرشاه بدوره أن يسلك في ركابه قسراً فريقاً من مهرة النقاشين ورجال المعمار^(٢) على غرار ما فعل محمود الغزنوى وتيمور من قبل .

وبضم نادرشاه بلاد الأفغان وقسماً كبيراً من البنجاب إلى بلاده حُرمت سلطنة دهلي من حدودها الطبيعية التي كانت تحمى سهولها، ومُنْع عنها موارد كثيرة كان مصدرها هذه الأقاليم الغنية، وانكسرت بالتالى إلى إمارة صغيرة لم يعد لها قبيل بمواجهة المرهتا والسك الذين استشرى خطرهم وأخذوا يعيشون في الأرض فساداً .

والواقع أن غزو نادرشاه كان أخطر على الدولة الإسلامية بالهند من الغزو التيمورى وأبعد أثراً وأوخم عاقبة . ذلك أن الدولة الإسلامية، برغم تفككها عقب تحريبات تيمور، استطاعت على كل حال أن تستعيد سيرتها الأولى من القوة فى أعقاب إماراتها وأقاليمها الكبرى، إذ لم يكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها نظير المرهتا والسك، على الخصوص، الذين

Dunbar 301 — ١

٢ — سير المتأخرين ٧١٦ — ٧٢٠

كانوا للدولة المغولية بالمرصاد ، ومن ورأيهم المستعمرون الأوربيون ، وعلى رأسهم البريطانيون ، عند شواطئها يعدون العدة لا ابتلاع أراضيها كلها .

الغزو الأفغانى :

ظل البنجاب بأيدي الفرس اثني عشر عاما حتى دخله عليهم أحمد - د أبدالى الدراني ، شاه الأفغان ، الذى نجح بعد قتله لنا درشاه فى أن يوحد قبائل الأفغان بزعامته ويمد سلطانه حتى سيحون وشواطئ قزوين لينحدر من بعد ذلك إلى سهل الهند . وأذلح محمد شاه سلطان الهند فى رد الأفغان وأميرهم عن بلاده أول مرة عام ١١٦٠ هـ / ١٧٤٨ م ، حتى إذا ما وافاه أجله فى مستهل العام التالى ، خلفه ابنه أحمد شاه ليواجه ثورة قبائل أفغانية أخرى ، هى الروهيلاحدى بطون يوسفزى ، عند قنوج والدوآب ، فلم يتح لوزيره صفدار جنك نائبا أوده القضاء على فتنهم إلا بعد أن استعان بالقائد المرهتبهى هولكر وكان إذ ذاك بمالوه ^(١) . وقد مهد السلطان المغولى باستعانته بالمرهتها إلى انتشار نفوذ هذه الطائفة حتى بلغ البنغال بعد أن شمل مالوه والگجرات .

وانتهت غزوات أحمد أبداً إلى المتكررة على الهند مع اشتغال الدولة ، في ضعفها ، بقتن الروهيلا المتعاقبة ، إلى ضياع البنجاب واستيلاء الأفغان عليه .

عالمسكير الثاني :

ما غدا الوزير غازي الدين نظام الملك أن ائتمر بالسلطان أحمد شاه لما كان من عدائه هو وأمه له ، فعزله وأجلس مكانه محمد بن جهاندار باسم عالمسكير الثاني (١) .

ونجم عن خلاف هذا الوزير صاحب حيدر آباد مع زعيم الروهيلا نجيب الدولة ، أن بعث هذا الأخير إلى أحمد أبداً إلى شاه الأفغان يحرضه على الزحف إلى دهلي نفسها ، فاقتحمها برجاله عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م وأنزل بها وبأهلها أضراراً فادحة ، ثم عاد إلى بلاده بعد أن ألقى بمقاليده الأمور فيها إلى نجيب الدولة ونصب ابنه الأصغر تيمور شاه نائباً له بالبنجاب .

ولم يكن نظام الملك ليرضى بغيره يده عن تصريف الأمور في دهلي ، فما إن فشل في اقتحام أوده والله آباد ، وكان أصحابهما على صلة وثيقة بنجيب الدولة ، حتى راح يستعين بالمرهتاء ، فحرضهم على مهاجمة قوات الشاه الأفغانى في البنجاب ونجيب الدولة

في العاصمة وما حولها .
وأفلاح القائد آدينه بك خان في أن يطرد قوات أحمد أبدالي من
الپنجاب بمعونة المرهتها ويستخلص لنفسه من بعد ذلك لاهور
وتتا والملتان التي خلفه السك عليها فيما بعد . ولم يكنف غازي الدين
نظام الملك بطرد نجيب الدولة من العاصمة التي باتت تحت رحمة
المرهتها وقادتهم ، حتى أوفد رجاله فقتلوا عالمگیر الثاني وهو
بحسن شاهجهان ^(١) .

على أن نجيب الدولة مالث بمعاونة حليفه شجاع الدولة بن
صفدار جنك أمير أوده ، أن دفع المرهتها عن منازل الروهيلا ،
تم استنجد من بعد ذلك بالشاه الأفغانى لتخلصه من
نظام الملك وحلفائه الذين لم يكن له قبيل بالقضاء التام عليه ، حتى
لبي أحمد أبدالي نداءه ونجح في طرد المرهتها من پنجاب والشمال
الهندي كله .

دخِر المرهتها عند پانی پُت : على أن عصابات الدكن
هذه ماليت أن جمعت جموعها عقب انصرام فصل الأمطار فصار
لها ثلاثمائة ألف من الجند ومعها ثلاثمائة من مدافع الميدان ^(٢) الثقيلة

١ — عبرتاه ٢٤١ - ٢٤٣

٢ — فرحة الناظرين : ١٧٠

زحف بها أمرؤها، وسواس راو وسداشيوبها وسنديا، إلى دهلي ثم
جاوزوها ليلتقوا من بعد ذلك بقوات الشاه الدراني عند پاني پت .
ولم يكن شاه الأفغان بدوره في قوة تزيد على الثمانين ألف
مقاتل، ومدافعها لا تبلغ العشرين، ولم يكن رجاله على دراية بطرائق
الحرب الحديثة التي أتبح لفريق من جند المرهتا التدريب عليها بأيدي
الفرنسيين بمستعمراتهم الدكنية : فأفادوا منها كثيراً في حروبهم .
ونجح الأفغان آخر الأمر عام ١١٧٤ هـ / ١٧٦١ م في قطع
المؤن عن أعدائهم لينخوضوا معهم من بعد ذلك معركة عنيفة
هدت من كيانهم وضععت من نفوذهم بالهند . وبلغ من وقع في
الأسر من رجالهم مائتي ألف وفيهم قائدهم سنديا الذي قُتل لوقته .
ولم يقو زعيمهم الپيشوا بلاجي راو على تحمل هذه الصدمة حين
بلغته أنباؤها، وهو في طريقه بالإمدادات عبر نربدا : فارتد إلى بونا
حيث قضى نحبه هناك بعد شهر ستة (١) .

البريطانيون في البنغال وبهار : لم يكن المنتصر في پاني پت
هذه المرة هو الذي قدّر له أن يمسك بزمام الأمور في الهند
كلها كما قدر لظهير الدين بابر حين قضى على السلطان إبراهيم
اللودهي ولجلال الدين أكبر حين هزم الأمير الهندوکی هيمون

وجنوده من قبل ، فقد اضطر أحمد أبدالي شاه الأفغان ، بعد انتصاره الحاسم هناك ، إلى أن يعود إلى بلاده حين ثار عليه جنده لتأخر مرتباتهم وانتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة فيهم بالهند ، ليميل ثقل الحدثان من بعد ذلك إلى ناحية الشرق حيث كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد غدت توطن أقدامها في البنغال وتحكم من خططها في الجنوب الهندي حتى تم لها القضاء على نفوذ الفرنسيين هناك ولمّا يكن قد مضى بعد أسبوع واحد على انتهاء معركة پاني پت ، لتباغ من بعد ذلك بالتدريج إلى وضع يدها على شبه القارة الهندية كلها وتضمها في قرن واحد من الزمان إلى أملاك التاج البريطاني .

ولقد وقعت أحداث پاني پت هذه وعرش دهلي خال بعد مقتل صاحبه عالمكير الثاني وفرار ابنه على جوهر من وجه غازي الدين نظام الملك ، حيث لاذ بجلال الدين حيدر شجاع الملك نواب (١) أوده في جلال آباد .

موقعة پلاسى : عن لعلی جوهر بن عالمكير الثاني وهو في أوده أن يغزو البنغال ، وكان البريطانيون قد بسطوا نفوذهم عليه بعد

١ — كلمة نواب هذه تقابل لفظ راجا أو أمير ، فهي من ألقاب التتريف ، ولا يستلزم أن يكون صاحبها من أرباب المناسب .

أن تم لهم إخراج أميره سراج الدولة منه . وكان هذا الأمير قد
انزع كلكتا من أيديهم فلم يبلغوا إلى استردادها منه إلا بعد أن استمال
كلايف؛ مدير شركتهم القائد جعفر خان إليه برشوة قدرها ثلاثة ملايين
من الروبيات^(١) ضموا بها النصر على الأمير المغولي ومعه سراج
الدولة في معركة پلاسى ، في شوال من عام ١١٧٠ هـ / ١٧٥٧ م ،
تلك المعركة التي تعد أولى المعارك الحاسمة بين المستعمرين والدولة
في الهند (٢)

وكوفيء جعفر خان على خيانتة هذه بتنصيبه حاكما على
البنغال تحت وصاية الشركة البريطانية .

وما عند الأمير المغولي أن باع بنتا في مائة ألف من الجند ومعه
محمد قولي خان نائب ولاية الله آباد فالتقى مع ميران خان بن مير جعفر
وأحلافه البريطانيين في حرب كاد يتم النصر فيها لجند الدولة
لولا ما نجح من نقص مؤنه من انسحاب جملة من الأمراء من
صفوفه ، فمنهم من آب إلى دياره ومنهم من استجاب لإغراء
الأعداء فانضم إلى قواتهم ، حتى اضطر الأمير إلى مهادة خصمه

بعد ما نزلت به الهزيمة (١) .

شاه علم :

في يتنا بلغ الأمير على جوهر خبر وفاة أبيه
فنادى بنفسه سلطانا على الهند باسم شاه علم واتخذ شجاع الدولة
وزيراً له ثم آب إلى الله آباد فأقام بها .

وضاق البريطانيون ذرعاً آخر الأمر بجعفر خان وخذاعه ، حتى
إذا ما كشفوا عن توأطئه مع الهولنديين حين حاولوا إنزال بعض
قواتهم إلى البر ليحموا بها مصالحهم التجارية في شرق الهند ،
خلعوه بحجة تقدمه في السن وربطوا له معاشاً ثم أقاموا مكانه
زوج ابنته الأمير على قاسم .

وما لبث حاكم البنغال الجديد أن رفض بدوره أن يسير على
هوى المستعمرين ، حتى عارضهم في رفع المكوس جملة عن
بضائعهم ، وكان الإيعاء في الأصل وفقاً على ما يصل منها برسم

١ — كان الأمير المفولي قد جعل من كلاب ، مبعوث الشركة البريطانية وقائد قواتها .
بعد معركة بلاسي ، فأنداً خمسة آلاف من الفرسان ، حين طلب إليه الانضمام إلى قواته
في محاربة ميرجعفر بالبنغال ، بوصفه من قواده ، اعتذره بتعاقبه مع أمير البنغال
على رسم البريطانيين في الدهاء والحداع الاستعماري . Dunbar 345 .
ومُ ترد قوات البريطانيين في هذه الواقعة على أربعمائة وخمسين رجلاً مع ألفين
وخمسمائة من أهل الهند ، لكن أسلحتها الحديثة وتحسن تدريبها ودهائها كفل لها
النصر بطبيعة الحال .

أعضاء جاليتهم الخاص، حتى وضع يده عنوة على يتناو ما بهما من مصانع لهم.
موقعة بِكُنسر : حين قدمت قوات المستعمرين من كلكتا
فأطبقت على يتنا، اتخذ على قاسم، بعد هزيمة، سيده إلى نواب أوده
فلاذبه. وقد أوقع بهما البريطانيون عند بكسر أواخر عام ١١٧٧هـ /
١٧٦٤ م ثم دخلوا الله آباد وليكنو وچُنار (١) .

وفي هذه الواقعة استسلم للبريطانيين شاه علم فتنازلوا له عن الله آباد
وما حولها وضموا له معاشا سنويا قدره مليونان وستمائة ألف من
الروبيات على أن يطلق أيديهم في جمع الخراج بالبنغال وبهار
وأوريسه (٢)، وبعبارة أصح: على أن يعترف لهم في الواقع
بسلطانهم على هذه الأقاليم. كذلك ردوا لشجاع الدولة أغلب
أراضيه على خمس ملايين من الروبيات يدفعها لهم .

المرهتاه في دهلي: لبث شاه علم بقميم في الله آباد على وعود متكررة من
البريطانيين بتيسير عودته إلى دهلي، وليكنهم لم يوفوا له بشيء منها أبداً .
هذا؛ وكان أحمد شاه أبدالي قبل أن يعود إلى بلاده بعد
انتصاره في پاني پت قد اعترف بعلم شاه سلطانا على الهند، على أن
يعهد بالوزارة إلى نظام الملك وبشئون المال والخراج إلى نجيب الدولة،

١ — حديقة الأذليم ؟ .

وفي خاطره أن هذا الوضع سيكفل إقرار أمور الدولة هناك .
على أن نجيب الدولة تأتي له إبعاد خطر المرهتها ونظام الملك عنه ،
لينفرد من بعد ذلك سنوات تسعاً بشئون الحكم في دهلي والسلطان في
منفاه بالشرق . وتمكن هذا الزعيم الأفغانى خلال ذلك من القضاء على
فتنة السكك ، على كثرة عددهم بالبنجاب ، لكن تهديد الجات له وزعيمهم
سورج مل ثم ابنه جواهر سنغ من بعده أدى به إلى التفكير في
الاستعانة بالمرهتها لدفع خطرهم عنه .

ونجم عن وفاة نجيب الدولة تخرج الحال في العاصمة ، حتى بات
الناس يتوقعون سقوطها في أيدي المرهتها أو السكك بين يوم
وآخر . هنالك حزم شاه علم أمره فاتفق مع المرهتها على أن يبادروا
بدخول المدينة باسمه فيسلموها له من بعد ذلك على أربعة ملايين
من الروبيات يدفعها لهم في أوقات مرسومة . وبهذه الخطة
انقذ السلطان على الأقل سكان المدينة من تعرضهم لمذابج السكك
لو كانوا قد أتبع لهم الاستيلاء عليها .^(١)

وصادفت خطة شاه علم هذه قدراً كبيراً من التوفيق والنجاح
ليكتشف - من بعد ذلك ببضع سنين - أنه لم يتخلص من أيدي

١ - حافظ المرهتها دواما على تقاليدهم حتى في أيام تفككهم فلم يقرروا قتل
السكان الآمنين على ما أشرنا إليه من قبل .

البريطانيين ويفر منهم إلا ليقع في براثن المرهتها .
فقد قدر أن يفيد من عون المرهتها له ، دون خطر كبير
عليه منهم . بعد أن كُسر شوكتهم في پانی پت ، فيحقق لنفسه بذلك
الاستقلال الذى ينشده بعيداً عن البريطانيين ونفوذهم . وهو
بعدُ في مقامه الجديد سيصير له من دخل الأراضى التابعة لدهلى
ما يعوضه عما كان يدفعه البريطانيون له ، ثم منعه عنه فيما بعد .
وهكذا سار شاه علم إلى دهلى فدخلها في سبتمبر عام ١٨٥١ هـ /
١٧٧٢ م برغم معارضة أغلب أتباعه الذين كانوا يؤثرون البقاء
بإقليم الله آباد أرغد عيشاً وآمن مقاما . وقد وجد في وزيره الفارسى
ميرز انجف خان ذوالفقار الدولة خير معين ، حازم وناصح أمين طوال
الإثني عشر عاماً التى قضاهما فى منصبه حتى وفاته . فقد دفع هذا الوزير
عن الدولة خطر السك بعد أن هزمهم واسترد منهم آگرا ، كما كسر
شوكة الروهिला الأفغان بتحالفه مع البريطانيين وشجاع الدولة نواب
أوده عليهم ، حتى أصبحت الدولة تمارس نفوذها ممارسة تامة فيما
بين سناج وسنبهل . كما استردت قدراً من مهابتها السابقة التى غابت
عنها سنين طويلة من قبل .

وقضى نجف خان ليودى القحط الشديد الذى نزل بمنطقة دهلى
من بعد ذلك عام ١٧٨٢ م فأهلك ما يقرب من نصف السكان ، إلى

اضطراب اقتصاديات الدولة، حتى عجزت عن الاتفاق على الجيش القوي الذي أنشأه ذلك الوزير الحازم، فذاد به عن أراضيها غويلا، فانصرف عنه كثير من الأمراء والقادة إلى بلادهم.

وأدى تنافس رجال الدولة فيما بينهم إلى استنجد خلفه الوزير أفراسياب بمادهوجي سندهيا زعيم المرهتها، بعد أن أخفق السلطان في الاتفاق مع البريطانيين على مساعدتهم له وفق شروطه، ليجمع هذا الزعيم المرهتي من بعد ذلك مقاليد السلطة كلها في يده بوصفه نائبا للسلطان، ويجعل من همت بهادر أحد رجاله وكيلا مطلقا بالدولة وتعرض سندهيا لعدة ضربات في الراجپوتانا والدواب، كما اقتحم دهلي في غيبته غلام قادر خليفة نجيب الدولة على الروهيلا منتصف عام ١٢٠٢ هـ ١٧٨٧ م وقبض على شاه علم وسمل عينيه ثم نادى بابنه بدار بنخت مكانه (١).

وتم للزعيم المرهتي آخر الأمر على كل حال تثبيت أقدامه في المنطقة كلها من جديد بفضل ضباطه الفرنسيين الذين آزروا ابنه دوات راو من بعده كذلك حتى دفع البريطانيين عن بلاده، ليقبلوا من جديد عام ١٨٠٣ م يقودهم قائدهم ولسلي فيجتاحوا أراضي المرهتها كلها ويقوضوا سلطانهم ويدخلوا دهلي.

الأحتلال البريطاني

طرْد المنافسين :

أخذت بعوث البريطانيين التجارية تفد إلى الهند منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يثبط من عزيمة رجالها ما بذله البرتغاليون من جهود متواصلة عند سلاطين الدولة المغولية ليحولوا دون منافستهم لهم بهذه البلاد . وما لبث هؤلاء البريطانيون ، بما اشتهر عنهم من الدهاء وسعة الحيلة ، أن صرحت الدولة لهم بإقامة وكالات تجارية (١) عند سورات، في الغرب وهو جلي في الشرق ، ثم ما زالوا يتقربون من بعد ذلك إلى سلاطين الهند حتى عاونوهم في حربهم للبرتغاليين عند الشواطئ الشرقية ، كما دفعوا المرهتها كذلك عن بعض الموانئ الهندية

١ — كان التجار الأنجليز يمانون كثيراً من المشقة في إخراج العملة الفضية من بلادهم ليدفعوا ثمن التوابل التي كانوا يشترونها من جزر الهند ، حتى امتدوا إلى إقباء تجار البهار على منسوجات الهند ، فسعوا بدورهم إلى إقامة وكالات تبيع لهم بالهند . هذا؛ كما كانوا يجلبون كذلك إلى الهند من بلادهم أدوات الترف فيحصلوا نظيرها على ما يبتغون من منتجات هذه البلاد بتقديرهم .

الغربية ؛ ونال البريطانيون، إثر كل عون قدموه للسلطين، مزيداً من الامتيازات حتى بلغوا من الثراء والقوة واتساع النفوذ ما يمكنهم من شراء بمباى نفسها من البرتغاليين وتوسيع رقعة أراضيهم عند كلكتا ومد نفوذهم إلى مدراس وما يليها جنوباً .

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ما كسروا شوكة البرتغاليين وأحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت أقدامهم عند بعض شواطئ الهند

وكان الفرنسيون قد بلغوا، بتدبير دو بليكس ، مدير الشركة الفرنسية الهندية، ودهائه ، إلى مزيد من النفوذ في الدكن وجنوب الهند . فقد استطاع هذا الداهية الفرنسي أن يدرّب بعض جنود إمارة حيدر آباد الدكنية وفريقاً من قوات جنوب الهند على أساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم الفعالي لكافة الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر كرشنا والموجّه لدفة الحكم فيها من وراء ستار .

وحين نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ م وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيون بأوروبا ، بادر دو بليكس بالهند إلى اجتياح مدراس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية ؛ وما لبث البريطانيون أن استردوا

مرا كزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب ، إذ أفلجوا ، بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية ، في حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس ، وبذا خلا لهم الجور ، حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم إلا ميناء پُندشيري وبعض أماكن أخرى صغيرة متفرقة بالهند

واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية الفذة ، فانطلقوا يخضعون هذه البلاد الواسعة بجند من أبنائها وأموال من أموال أهلها .

وما لبث هؤلاء المستعمرون أن ثبتوا أقدامهم بالبنغال وأوده على أثرائتصارهم الحاسم في معركة بِلَاسِي وبِكسر ، وأبرهوا عام ١٧٦٦ م معاهدة مع نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض أحد منهما للعدوان .

سلطان ميسور : هدف اتفاق البريطانيين مع نظام حيدرآباد في الواقع إلى الحد من أطماع حيدر على أمير ميسور عند الجنوب الغربي من الهند . واضطر هذا الأمير بدوره إلى قبول مهادنة الشركة البريطانية آخر الأمر عام ١٧٦٨ م وذلك بضغط من قواتها وقوات النظام . غير أن صاحب ميسور هذا ما لبث أن استولى عام ١١٩٥ هـ / ١٧٨٠ م على كرناثيا كلها عند شاطئ

كورومانديل . وخلفه ابنه تيبو فاشتبك في حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات . وما إن هادنوه عام ١٧٨٤ م ، حتى عقد العزم على أن يبدأ بضرب المرهبا ونظام حيدر آباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله ، وفي حسابه أن فرنسا سوف تستجيب لاستجداه بها . غير أن رؤسله عادوا من باريس وليس في جمعيتهم سوى عبارات التشجيع والإغراء (١) .

على أن أعداده ما لبثوا أن اجتمعوا عليه آخر الامر فاضروه في حاضرتهم سرنغابتم عام ١٧٩٢ م ، يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية ، حتى أرغموه على مهادنتهم وقبوله التنازل لهم عن نصف أراضيها .

وقوت انتصارات نابليون بونابرت بأوروبامن عزيمته تيبو ، وأصاب الفرنسيون بدورهم قدرا جديدا من التوفيق بالهند كذلك ، فاسترجعوا بعض نفوذهم في حيدر آباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلعوا بتنظيم جيوش هاتين الإماراتين وتدريبها . على أن القائد البريطاني ولزلي توصل بدهائه إلى القضاء على النفوذ الفرنسي من جديد واسترجع أميرها إلى حظيرة الشركة .

حتى إذا ما وجد من تبيد الإصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين في جيشه وتحالفه مع فرنسا ، سار إليه من مدراس فاقتم عليه حاضرتة في قتال عنيف سقط فيه السلطان الميسوري وهو يقاتل .
وبهذا قضى البريطانيون على آخر أمير مسلم قوى وقف في وجههم بالهند في إصرار وإيمان وعناد .

وأُتيح للبريطانيين بالتدريج بسط نفوذهم على أهم مراكز الجنوب ، وعملوا على تأمين طريقهم إلى الهند فوضعوا أيديهم على جزيرة سيلان عام ١٧٩٧ م بعد أن كان الهولنديون يرابطون في بعض شواطئها ، كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد أن تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، تلك الحملة التي كان نابليون يبغي بها الوصول إلى الهند وإخراجهم منها ، وأجبطوا في الغالب كل خطط للفرنسيين والروس بغوا من ورائها عزلهم عن الهند وانتزاعها من أيديهم .

حرب المرهتيا : أفاد البريطانيون من شيوع الانقسام بين المرهتيا فاشترؤا زعماءهم في ناجبور والكجرات بالرشاوى ، ليتفرغوا من بعد ذلك إلى بيتي سنديا وهو لكر ، أقوى طوائفهم ، فاجتاح هستنيج أقوى حصون سنديا في گواليار

عام ١٧٨٠ م وأنزل به هزيمة شديدة ركن من بعدها المرهتها عموماً إلى السلام وهاذنوا أعداءهم .

هذا ؛ وكان قد تم لدهو جى سنديا بسط نفوذه على دهلى ، على ما بيناه من قبل ، وهزم الراجپوتين ، كما مد نفوذه على كافة أراضى المرهتها القديمة حتى بونا عاصمتهم القديمة ، ليخلفه من بعد ذلك ابنه دولت راو عام ١٧٩٤م على هذه الأراضى كلها .

وكان أن دعى الپيشوا باجى راو البريطانيين إلى شد أزره بأزاء خصومه فى بونا ، فقد موا من فورهم إليه ودخلوا معه المدينة ليعقدوا معه عام ١٨٠٣ م معاهدة بَسْمِينِى التى أعترف لهم فيها بسيادتهم .

وحين ثار زعماء سنديا وبهونسلا على هذا الدخلى الأجنبى . خاضوا مع البريطانيين غمار معارك عنيفة عند آساي انتهت بهزيمتهم وخضوعهم لشروط الشركة البريطانىة ودخول البريطانيين دهلى وضياع أملاك سنديا عند الشمال والشرق من جمنه ، وانتقالها وكافة الأراضى الواقعة بين السكنج وجمنه وإلى الغرب منها إلى أيدي المستعمرين .

وكان أن ترك البريطانيون بعض الأراضى بأيدي المرهتها فعانى الراجپوتيون على الخصوص كثيراً من الأذى على أيديهم وكان فى حسابهم أن أصحاب الشركة سوف يحمونهم من شرورهم .

وحين استشرى خطر عصابات الهندارى المرهتية فى إقليم بهار بصفة خاصة ، جرّدت الشركة كل جيوشها لتجهز عليها جميعا ، حتى استسلم لها كل زعمائها عام ١٨١٧ م فسهجت لفريق من عمّارهم بلزوم بعض إمارات فى مالوه والسكجرات . وقد سارع الراجپوتيون بدورهم إلى التحالف عندئذ مع البريطانيين فلم يخوضوا معهم حربا جماعية أبدا (١) .

حرب الأفغان : كان من أثر هزيمة الروسيا لفارس عام ١٨٢٨ م أن عظم نفوذها فى تلك البلاد حتى حملت حكومتها على التعاون معها لمُد نفوذها كذلك إلى أفغانستان (٢) باب الهند إلى سهول الپنجاب والسكنج .

وحين تبين لبيرنز مبعوث الهند البريطانى بكابل حرج موقف دوست محمد شاه الأفغان بأزاء نشاط مبعوث الروس الداھية فينسكو فثش حتى اضطر إلى مصانعتة برغم ميله للزوم الحياد التام ،

Dunba 438 -- ١

٢ — اطلاق « بلاد الأفغان » على الإقليم الذى يعرف بهذه التسمية اليوم ، هو من اصطلاح العصور الحديثة ، ومن باب تعميم الجزء على الكل ، فنازل الأفغان هم إلى الجنوب من طريق كابل — بشاوره . أما سكان كابل وغزنيه ولفغان فيهم خليط من عناصر العرب والفرس والترك . Ikkal Ali Shah. Afghanistan.

تتقد أوكلاند مدير الشركة الهندية العزم على الزحف إلى أفغانستان
وفى صحبته أمـيرها السابق الشاه شجاع الملك الذى كان
قد طرده دوست محمد فلجأ إلى رنجيت سنغ أمير البنجاب .

وكان هذا الأخير قد باع بقومه السك إلى انتزاع هذا الإقليم
من الأفغان ، ثم آثر أن يهادن البريطانيين حين دخلوا دهلى وهدوا
نفوذهم إلى مشارف سـتاج .

وتم للبريطانيين إجلاس شجاع الملك على عرش كابل من
جديد حتى يضمنوا بذلك القضاء على دسائس الروس وإبعاد
نفوذهم عن حدود الهند .

على أن الأهلىن ما لبثوا أن ثاروا عليهم فى العاصمة ثورة عارمة
أرغمهم على التسلىم بهودة دوست محمد إلى مقامه القدىم وإخلاء
المدينة من قواتهم ، لتنزل بهم من بعد ذلك كارثة بشعة وهم
يتراجعون بين تلوج الطريق وضربات رجال القبائل على الجانبىن ،
فلم ينج من حملتهم التى كانت تضم عشرين ألف رجل إلا شخص
واحد هو الطىيب العسكرى برىدون (١) الذى كتب له أن
يباغ جلال آباد حيث كانت تنزل حامية عسكرية بها .

ورجع البريطانىون من جديدا إلى أفغانستان فى حملة انتقامية

قدمت من قندهار و جلال آباد فوجدت الأهاليين في كابل قد قتلوا
شجاع الملك ، ونادوا بابنه فتح جنك مكانه .

على أن إرادة الأهاليين كانت أقوى من عنف الغزاة وأسلحتهم ،
فما لبث البريطانيون أن اُرغموا على الرجوع ثانية عن أفغانستان
بعد أن عاهدوا أميرها دوست محمد عام ١٨٤٣ م على احترام حدوده .
وبقى شاه الأفغان محافظا على عهده مع البريطانيين محافظة
تامة حتى بَعُد كل البعد عن المشاركة في ثورة التحرير التي نشبت
بالهند عام ١٨٥٧ م بزعامة فريق من المسلمين وكادت تنتهي إلى
طرد المستعمرين منها .

وقد باءت بالفشل كل المحاولات التي بذها البريطانيون لطى
بلاد الأفغان تحت نفوذهم . ولم يكن مصير الحملات التي قادها
اللورد روبرتس عامي ١٨٧٨ ، ١٨٧٩ م فدخل بها كابل بأحسن
حظا من حملات أوكلاند سالفة الذكر . فعلمت أبناء القبائل الأفغانية ،
من الأفريدي والمحسودي والوزيرى ، ببسالتهم وضراوتهم في
القتال ، البريطانيين كيف يحترمون مشيئة الأحرار الذين رفضوا
على الدوام كل ما كان يعرض عليهم من مغريات مادية لقبول
المستعمرين ببلادهم (١) .

إخضاع السِّكِّ والبلوخ : تذرع البريطانيون بحروبهم الأفغانية لإخضاع السند بلاد البلوخ لسلطانهم ، كما انتهزوا كذلك فرصة إعتداه السِّكِّ على بعض مناطقهم بعد موت أميرهم رنجيت سنغ ، فما زالوا يطاردونهم حتى أنزلوا بهم هزيمة قاصمة بالگجرات عام ١٨٤٩ م (١) ضموا من بعدها كشمير والپنجاب كله إليهم ، وجرّدوا قوات هذه الطائفة من أسلحتها وصرّفوا رجالها للعمل في المزارع .

وكان السِّكِّ والغوركها أبناء نيپال ، التي لم يخضع المستعمرون إلا بعضها ، خير محاربين اعتمد عليهم البريطانيون في كل الحروب التي خاضوها دفاعا عن امبراطوريتهم أو لالتهم أراضٍ جديدة .
وبتدخل البريطانيين على الدوام فيما كان يقع بين الأمراء من منازعات ، بالدهس والوقيعسة ، أفلحوا آخر الأمر في أن يضموا إليهم الإمارات الهندية التي لم يستولوا عليها بقوة السلاح .

وبات الأمراء الذين بادروا إلى مخالفة هؤلاء المستعمرين من أول الأمر ، خُفِّضت عليهم إماراتهم ، معدودين من أتباع

بريطانيا ، ومُنعوا من ممارسة أى نشاط سياسى أو إدارى دون مشورة مستشاريهم البريطانيين الذين كانوا فى الواقع أصحاب السلطان المطلق فى هذه الأراضى .

وفُرض على أمثال هؤلاء الأمراء أموال كثيرة يدفعونها للشركة نظير حمايتها لهم ودفاعها عن أراضيهم ، وحين كان يعجز أحدهم عن الدفع أو يتوقف ، كانت الشركة تبادر بالاستيلاء على أراضيه لتفرض على سكان إمارته ما تُلزم به غيرهم فى أملاكها من ضرائب الأرض الباهظة ، حتى اضطر الكثيرون منهم إلى بيع أولادهم لسداد ما كانوا يُلزمون به ، فعانى الملايين من أهل الهند أفضع ضروب القسوة والطغيان وعاشوا فى شقاء لم تعرفه الإنسانية فى أحلك عصورها (١) .

خاتمة سلاطين الدولة المغولية :

لم يقرر غزو نادرشاه الفرس ولا غزوات أحمد أبدالى ، شاه الأفغان المتكرر للهند مصير الدولة المغولية بقدر ما قررتة معركة بـكـنـسـر عام ١٧٦٥م ببهار . فطُويت بانتصار البريطانيين فيها على شاه علم السلطان التيمورى صنحة الحكم الإسلامى فى الهند .

ولم يكن البريطانيون ليتركوا شاه علم ينزح من مقامه بالله آباد ، حيث كان يعيش على المال الذي ربطوه له ، إلى كنف المرهتبا بدهلى إلاّ ليضيقوا الخناق عليه وعلى حلفائه من بعد ذلك ، وقد باتوا على يقين ، تام من قرب وقوع شبه القارة الهندية كلها بأيديهم وخلاصها لهم بعد أن تم لهم هناك القضاء على نفوذ الفرنسيين أخطر منافسيهم وأقواهم ، وما تكشف لهم عن عجز قوات الهند الكثيرة على الوقوف أمام قواتهم ، على قلة عددها ، لحسن تدريب رجالها وما بأيديها من أسلحة حديثة لا تعرف الهند لها نظيرا . حتى واجهوا . وعدادهم مع حلفائهم من الوطنيين خمسة آلاف رجل ، عشرة أضعافهم في معركة بيكسسر سالفة الذكر ، فانتصروا عليهم انتصاراً حاسماً لم يكافهم أكثر من عشرين قتيلاً وبعض الجرحى .

ولئن كان شاه علم يذكر للمرهتبا أهم أعانوه على العودة إلى دهلى ونظروا إليه في الغالب نظرتهم إلى أحد حلفائهم حتى سارعوا إلى إنقاذه من بين برائن الثائر الروهيلى غلام قادر ، في حين أعرض كورنوالث مدير الشركة البريطانية عن نجده في محنته مع هذا الزعيم الأفغانى ، وضيق عليه البريطانيون ، من قبل ، في الله آباد بعد أن هزموه في بيكسسر ، فإنه على كل

حال كان يداعبه الأمل في أن تنتهى الحرب بين المرهتها والبريطانيين ، إلى إنهاك قواهما معا ، حتى يخرج المنتصر منهما وهو أميل إلى سلوك طريق المودة معه . وعلى هذا الرأى حرص كل الحرص على دوام اتصاله بالفريقين المتحاربين وإعلان تأييده لكل واحد منهما على حدة في نفس الوقت .

على أن البريطانيين ما لبثوا حين دخل قاندهم ولسلى مدينة دهلي عام ١٨٠٣ م أن انفردوا بالأمر كله فيها ، فلم يلتفتوا إلى السلطان إلا ليرتبوا له معاشا لم يزد على ما كانوا قد أجرّوه عليه في الله آباد من قبل .

أكبر شاه الثانى :

لم يكن للسلطان وأعضاء أسرته ما يقلقهم في ظل الحكم البريطانى إلاّ ضالة مارتب لهم من مال أصبح لابنى بنفقاتهم (١) ، وإن وجد بنجرائن شاه علم بعد وفاته ما يزيد على المليون من الروبيات كان قد أدرها .

و حين فضى شاه علم قبيل أواخر عام ١٨٠٦ م بعد أن جلس على العرش خمسة وأربعين عاما ، خلفه ثانى أبنائه أكبر شاه الثانى ، ليقتضى حياةً يغلب عليها الخمول والضعف حتى عدل اللورد هاستنجز ،

حين خلف واسلى على إدارة الشركة الهندية ، عن تصدير أوامر شركته ونشراتها بإرادة السلطان ، ورفع عن خاتمه كذلك الرسم التقليدى الذى يصفه بأنه خادم السلطان المخالص ؛ بل لقد رفض فى لقائه له أن يخضع للدراسم التى لم يكن الحكام البريطانيون من قبله يجردون غضاضة فى ممارستها . ولم يكتف بذلك حتى حرّض نواب أوده على أن ينادى بنفسه سلطاناً (١) ، واحتضن رام موهان رو صاحب جمعية براهما سماج الذى راح يدعو مُجِرداً إلى القضاء على بيت التيموريين فى الهند (٢) .

بهادر شاه الثانى:

وخلف أكبر الثانى ابنه بهادر شاه الثانى عام ١٨٣٧ م ليعيش بدوره على الرزق الذى كان يجريه البريطانيون على أبيه ، من قبل ، بعيداً عن كل نشاط سياسى أو مشاركة فى الحكم ، فلم يكن يلقى باله إلاّ معارضة المستعمرين له فى اختياره لولى عهده وعدم استجابتهم لشكواه من ضآلة معاشه الذى كان يراه لا يكتفى

Dunbar. 431 — ١

٢ — راح هذا الزعيم ، بتأثير حركات الإصلاح الدينى السابقة فى الغالب ، يدعو إلى توحيد ديانات الهند فى دين واحد يعبد إلهاً واحداً هو براهما ، دوت تسمدد فى كلمة أو الطبقات أو الزوجات ، وينكر كل المادات الهندية القبيحة كالساتي وزواج الأطفال وغيرها .

لحفظ مظاهر الأبهة اللاتقة بأمر تيمورى .
وبقيام الثورة الوطنية الكبرى ، التى يعرفها البريطانيون
بثورة السپاهى أو العصيان ، عام ١٨٥٧ م انتهت أيام
بهادرشاه على عرش الهند ، وطُويت صفحة السلاطين البابين
أبناء تيمورلنگك بالهند كماها .
الثورة الوطنية :

هذه الثورة العارمة التى كادت تقضى على كل نفوذ
للبريطانيين فى الهند كلها ، والتى كان معها عسف الشركة البريطانية
واستنزافها لثروات البلاد وإفقار أراضها الخصبة ، لاسيما فى
الشمال ، نشبت فى وقت واحد بالبنغال ودهلى وجونپور والبنجاب .
أما أخطر أدوارها فقد بدأ بالبنغال حيث الجيش الذى كان
يعتمد عليه هؤلاء المستعمرون فى حفظ النظام بالهند ، وكان
قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل فيهم عشرون ألفا من
البريطانيين . وقد بنى الثائرون خطتهم على أن يسارع البريطانيون
عندئذ إلى استدعاء كل قواتهم المنتشرة فى الهند إلى البنغال
فيخلو لهم الجو بذلك ويشتوا أقدامهم ويجمعوا شملهم من جديد ،
فلا يتمكن المستعمرون منهم بعد ذلك أبدا .
وعرف المتزعمون للثورة كيف يثيرون نائرة جنود البنغال ،

يُكأن أغلبهم من الراجپوتين والبراهمة ، حين انطلقوا يلقون في
وعدهم أن الشركة تعزم تسييرهم إلى خارج الهند لحرب بورما ،
الامر الذي يتنافى وعقائدهم التي تعد كل من يغادر موطنه خارجا
على طبقته منبوذاً . كما نبههم كذلك إلى معالجة البريطانيين لأسلحتهم
وعجالاتهم بشحم الخنزير ودهن البقر المقدس ، ودسهم هذه
الدهون فيما يقدمونه لهم من الطعام ، بل إنهم كذلك قد عقدوا العزم
على حملهم قسراً على اعتناق النصرانية بأيدي مبشريهم الذين
جلبوهم لتحقيق هذا الغرض ، وهام يفتلون في وجوههم باب
الترقية حتى إلى أصغر رتب القيادة في الجيش ، وهو ما لم يمنعه
عليهم أحد من السلاطين المسلمين من قبل .

وانطلق المسلمون في دهلي ، يقودون الثورة ، بزعامة بعض أبناء
السلطان وفريق من الزعماء الأفغان المحليين ومعهم حامية ميروت
الشمالية التي انضمت إلى صفوفهم ، وفي خطتهم أن يُخرجوا
المستعمرين من بلادهم ويُعيدوا للمسلمين سابق سلطانهم بالهند .
وما غدا المرهتا في جونپور أن نزعوا بدورهم إلى العصيان
بزعيمهم أميرهم نانا صاحب الذي كان وفريق من رجاله قد حددت
إقامتهم هناك ، كما انطلقت الشائعات في الوقت نفسه بزحف
الروس والفرس والأفغان لشد أزر الثوار ، حتى أُصيب

البريطانيون في بدء الثورة بخسائر كثيرة وهزائم متكررة في أماكن عديدة (١) .

على أن المستعمرين ما لبثوا أن أقرروا الأمور في البنجاب بهمة قائدهم لورنس وحسن تديره، لينطلقوا من بعد ذلك ومعهم حُلُفاء من السك، والغوركها وقوات نظام حيدر آباد فيقضوا على الثوار بكل مكان في قسوة بالغة وعنف، ويقصفوا بمدافعهم دهلي، ثم يدفعوا بالسلطان المغولي الشيخ، وهو في الثانية والثمانين من عمره، إلى محاكمة صورية أدانوه فيها بدعوى وقوفه وراء ولده محمد بنحنت خان وبرزوا مغول في تزعمهما للثوار، ومسئوليته عن مقتل تسع وأربعين من البريطانيين بدهلي، وثورته على الحكومة البريطانية بوصفه أحد رعاياها، وإعلانه الحرب عليها ومناذاته بنفسه ساطانا على الهند .

هذا؛ والثابت المعروف أن أحدا من السلاطين المغول، منذ أن صار شاه علم في قبضة الشركة الهندية، لم يقبل الاعتراف بالحماية البريطانية أبداً، كما أن بهادرشاه نفسه لم يكن له أى مشاركة في هذه الثورة حتى اعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال، وأنه ليس له جيش أو قوة يقدهمها لهم، ولم يكن له بالتالى علاقة بلمصمة

صغيرة وُجدت أثناء الثورة على حائط المسجد الجامع وبها نداء منسوب إلى شاه الفرس يدعو فيها المسلمين إلى تناسي خلافاتهم وتوحيد صفوفهم حتى يُقبل لتجدتهم (١)

قضى البريطانيون في هذه المحاكمة عام ١٨٥٨ م على السلطان المسن بهادرشاه بنفيه مع أفراد أسرته إلى رانچون ، وأعلنوا من بعد ذلك ضم شبه القارة الهندية كلها إلى امبراطوريتهم لتمارس الحكومة البريطانية حكمها بنفسها حكما مباشرا . وعوضت الشركة الهندية عن إبعادها عن شئون الحكم بمبالغ طائلة وتعميمات سخية جعلت دينا على الهند ، هي وكل النفقات التي أنفقتها بريطانيا في حروبها الأفغانية وحروب بورما بدعوى تأمين حدود الهند والمحافظة على سلامتها .

وراح الحكام البريطانيون في الهند يذيعون بدورهم على الدنيا ما يبذلونه من جهود للنهوض بهذه البلاد وترقيتها ، ومنها إنشاء الطرق الحديدية وتوسيع رقعة الأرض الزراعية ونشر الحضارة الأوروبية . ولم يكن هدفهم من وراء ذلك كله في الغالب

١ — Spear pp 200, 222, 28

هذا وقد أتى بعض الباحثين البريطانيين بعد مضي ستين عاما على هذه الثورة يبرى السلطان الشيخ من كل ما نسب إليه ، ويدل على أن الشركة هي التي ثارت قانونا على السلطان وليس هو عليها .

الإتنظيم ابتزاز ثروات هذه الأرض الواسعة الغنية ، حتى كانت منتجياتها تنقلها في كل عام أكثر من عشرة آلاف سفينة ، معظمها بريطانية ، لتبيعها بريطانيا في أسواقها بخمسة أضعاف أثمانها أو يزيد ، فلا يعود من هذا الربح الوفير على أصحابه الأصليين ، سوى القليل ، وهم الذين دُفع بجباهيرهم ليزرعوا الأرض لاسادتهم على كفاف من العيش .

وأقام البريطانيون من جهاز حكمهم بالهند طبقة جديدة تُضاف إلى طبقات الهند وتعلوها جميعا ، حتى حرّموا على أهلها دهرا طويلا بحاستهم أو مطاعمتهم أو مزاملتهم في سفر أو سمر .
قيام دولة باكستان :

نفي البريطانيون بهادر شاه الثاني ، آخر السلاطين البابريين : من الهند بوصفه الزعيم الروحي لأهلها من المسلمين الذين رفضوا في الغالب الاعتراف بسلطانهم وأصر زعماءهم وأبناء الطبقة المستنيرة منهم على معاداتهم وتأليب أهل هذه البلاد جميعا عليهم ، حتى أعلن اللورد ألتيرو حاكم الهند البريطاني ، في صراحة نامة ، أن العنصر الإسلامي في الهند هو عدو بريطانيا الأصيل وأن السياسة البريطانية في الهند يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها لتستعين بهم في القضاء على الخطر الذي يهدد

بريطانيا في هذه البلاد (١) .

وعلى هذا المبدأ بطش البريطانيون بالمسلمين الذين قادوا الثورة الوطنية (العصيان) أكثر مما بطشوا بغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى الذين شاركوا فيها ، فأقصوهم إقصاءً شاملاً عن كل وظائف الدولة التي كانوا يشغلون عدداً كبيراً منها ، وجهدوا في تفويض كل أوضاعهم الاقتصادية والثقافية . ثم اصطنعوا أبناء الطبقات الهندوكية المتوسطة في الوظائف الصغيرة فلا يتخطونها أبداً إلى المناصب الكبرى التي كانت جميعها ، في السلاطين المدنيين والعسكري ، وقفوا على المستعمرين .

حتى إذا ما أصدروا قوانين التملك الزراعي ، الذي نظم للأوروبيين حقوق امتلاك الأراضي الكثيرة والضياع الواسعة بالهند ، صارت أغلب الأراضي التي كان المسلمون يمارسون زراعتها ، بمقتضى هذا القانون ، ملكاً لجباة الضرائب من الهنادكة .

١ - بلغ من عداة هذا الحاكم البريطاني للمسلمين أنه أمر بترغ بعض بوابات زاجا بقرته حين دخل البريطانيون أفغانستان بزعم أنها أجزاء من مملكة سومرات حليها محمود الغزنوي معه من الهند بعد أن خرب مصل الهنادكة ، هذا أوائل القرن الخامس الهجري . وحين حمل أنهبوا هذه البوابات إلى الهند ، تقرباً منه إلى الهنادكة وتذكيراً لهم بعدوة المسلمين ، اكتشفوا هناك أن هذه الأبنية هي من صنع سبكتكين أبي محمود الذي

وانقلاب زراعهم الأصليون الذين صودرت أراضيهم إلى الأجراء عندئذ
ولم يكف هؤلاء المستعمرون بهذا كله بل طفقوا يذفون
تاريخ الحكيم الإسلامي بالهند ويظهرون سلاطين المسلمين
وعمالهم بمظهر الطغاة . ثم انطلقوا من بعد ذلك يدعون الهنداكة
إلى إحياء ماضيهم القديم قصد إثارتهم بذلك على مواطنيهم من
المسلمين ؛ لينجأى ذلك ، كله فيما بعد ، عن مذابح رهية متكررة بينهم
وخلافات عميقة متواصلة شغلتهم جميعا حينما طويلا من الدهر
عن مناوئة الحكيم البريطاني بالهند .

بعث اضطهاد البريطانيين المسلمين فى الهند شعورا قويا
فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم من جديد ورفع معنوياتهم
وإصلاح حالهم ، حتى نهض السيد أحمد خان ، فى أوائل النصف الثانى
من القرن التاسع عشر الميلادى ، يفصح عن هذا الشعور
إفصاحا عمليا ، فرسم لقومه المنهج الذى يبلغ بهم إلى تحقيق
نهضتهم ؛ فنبههم إلى أن نفورهم من البريطانيين لا يعنى التزام
العزلة والتخاف عن المشاركة فى ركب الحياة الهندية ، وأن
الإطلاع على المدينة الحديثة وتلومها واقتباس الصالح منها
واجب على المسلمين لا يتعارض أبداً مع التفقه فى أمور دينهم

والتمسك بآداب الإسلام وتقاليده (١) . ثم اتجه من بعد ذلك إلى البريطانيين يصارحهم بتبعاتهم ويؤكد لهم عدول المسلمين عن عدائهم لهم ، حتى يخفف من حدة اضطهادهم لهم . إذ كانوا قد أبعدهم إبعاداً شاملاً عن كل وظائف الدولة وطفقوا يغلزون أبواب الرزق في وجوههم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً — وبقيدهم الدليل على أن عسف شركتهم البريطانية وسوء إدارتها هو الذى أدى إلى ثورة الوطنيين عام ١٨٥٧ م

ولم يأبه السيد لاتهام بعض الرجعيين له بمهالاة المستعمرين والمروق من الدين ، فشم عن ساعد الجد في حزم وعزم وانطلق ، يعمم إصلاحاته في أغلب نواحي الحياة الإسلامية ويدعو قومه إلى الاعتراف من علوم الغرب . وراح في مجاته « تهذيب الأخلاق ، ينقد أحوال المسلمين ويتقصى الأسباب التى أدت إلى زوال مجد القديم ، ويعرض لكثير من الموضوعات العلمية والسياسية والاجتماعية التى يجب على المسلمين الإحاطة بأهدافها والاستغلال بها والمشاركة فيها . ودل من خلال أبحاثه هذه على مرونة اللغة

١ — كان مما احتج به في هذا الشأن أن المسلمين حين شرعوا ينشئون حضارتهم الكبرى لم يترددوا في دراسة كتب اليونان وسواهم من غير أهل الملة . فلا حرج على المسلمين بهذا من دراسة كتب الغرب وعنونه بل هو واجب عليهم : حاضر العالم الإسلامى ٢٧١ - ٢٧٢ .

الأوردوية، لغة المسلمين وأغلب أهل الهند، وصلاحيتهما التامة لمسيرة المدنية الحديثة. وكان من أعظم أعماله الخالدة إنشاء كلية عليشگر، بشمال الهند، التي تحولت من بعد ذلك إلى جامعة عقب عودته من زيارته لبريطانيا عام ١٨٧٥ م، وفيها قامت الدراسات الغربية والدراسات الإسلامية جنباً إلى جنب على أرقى منهج جامعي إذ ذاك (١) بجهود السيد أحمد خان ظهر من بين المسلمين طائفة من نبغاء المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين حملوا الرسالة من بعده (٢)، واتسع المجال لتقبل فيض من المؤلفات الأوروبية النافعة إلى الأوردوية، فضلاً عن إحياء التراث الإسلامي الهندي.

وإن كان السيد أحمد خان قد أوقف حياته على النهضة بالمجتمع الإسلامي وسعى إلى حمايته حين نادى بضرورة تمثيل المسلمين في المجالس الهندية التشريعية بنواب مستقلين منهم؛ حتى لا تطغى طائفة الاغابية على طائفة الأقلية في هذه البلاد التي تعد فيها العقائد أساس حياتهم السياسية والاجتماعية؛ وجهر بأن المسلمين والهنداكة أمتان مختلفتان تمام الاختلاف في العقيدة

١ - ٩٠ - ٥٥٦ - Dunbar

٢ - من أمثال هؤلاء السيد أمير علي وخذائش محمد وإقبال محمد علي وأخوه شوكت علي . وفيهم من أخرج للناس باللغات الأوردوية كتباً قيمة عرفهم فيها بروح الإسلام وحقيقته وحضارته ومدنيته تعريفًا بيانا .

والنقايد وكل شيء ، فإن تلاميذه الذين حملوا رسالته من بعدد ما غدوا أن أعلنوا أن فترة محاسنة البريطانيين ، التي فرضها رائدهم من قبل . قد استوفت أجلها ، وأن واجب المسلمين غدا يفرض عليهم أن ينتزعوا حقوقهم من أيدي المستعمرين وكل من يقف في سبيلهم ، حتى أفصح المفكر الملمهم محمد إقبال ، وهو من أبناء جامعة عليكر ، عن وجوب قيام وطن خاص بالمسلمين وخدمهم بالهند ؛ ورسم حدود هذا الوطن على الأساس الذي تقوم عليه دولة باكستان اليوم في الغالب .

ولم تكن معارضة الهنادكة لقيام دولة خاصة بالمسلمين في الهند إلا لخوفهم ، فيما ظنوا في الغالب ، من أن ينقلبوا إلى مصدر متاعب لهم من جديد حين يشتد ساعدهم ويستعيدوا بعض ماضيهم من القوة ، في حين كان البريطانيون يرون مبدئيا أن كل انقسام بين شعوب الهند فيه تحقيق لمصالحهم العليا على قاعدة الإستعمار المعروفة « فرّق تسد » .

وما لبث المسلمون آخر الأمر أن بلغوا بجهود زعيمهم محمد علي جنه ، ومن ورائه الرابطة الإسلامية ، إلى تحقيق قيام دولة لهم ، بعد أن أصرروا على رفض جميع عروض المؤتمر الهندي ، الذي كان يتزعمه غاندى ، ودستور ١٩٣٥ ، حتى لا تضعح حقوق

أقليتهم الكبيرة في تيار الغالبية الهندوكية ، وحتى لا يكون لأحد وصاية عليهم (١) . فأعلنوا مولد باكستان في ٤ أغسطس ١٩٤٧ على حدود لا ترضيهم في الغالب ، قبلوها ليضعوا بذلك حداً للمذابح الكثيرة التي سقطت فيها من المسلمين أكثر مما سقط من الهنادكة . وهي تضم كراچی ، مركز حكومتها ، وإقليم بشاور والحدود ، والسند والبنجاب في الغرب ، وأغاب البنغال في الشرق .

وبباكستان (٢) اليوم قرابة ستين مليوناً من المسلمين يعيش إلى جانبهم عشرون مليوناً من أصحاب المذاهب الهندية الأخرى . ولا يزال ما ينوف على أربعين مليوناً من المسلمين يعيشون في الجمهورية الهندية .

حضارة الدولة المغولية

أقبل المسلمون ، منذ فجر الاسلام ، على الاستفادة من حضارة لغرس واليونان بعد أن اطّاعوا عليها ، فلما دخلوا الهند وتوغلوا في أراضيها واستقروا بها ومعهم ثقافتهم المزدهرة ، اشتاقوا كذلك إلى التعرف على ما عند الهنود من ثقافة ومدنية سمعوا الكثير عنها ووقفوا على قدر منها في بلادهم .

ونشأ عن امتزاج حضارة الحاكمين بحضارة المحكومين القديمة ومدنيتهم حضارة ثالثة ، اشتملت على عناصر هاتين الحضارتين ، هي ما تعرف باسم الحضارة الإسلامية الهندية التي بدت في أكل صورها في عهد الدولة المغولية التي أقامها السلطان التيمورى ظهير الدين محمد بابر وخلفاؤه ، فظلت تحكم هناك قرابة ثلاثة قرون .

جمع هؤلاء السلاطين البابريون في أشخاصهم كثيراً من الصفات المتناقضة التي ورثوها عن أبيهم الأكبر تيمور لنگك ، فكان فيهم وحشية وتسامح ، وجبروت وحيلهم . كانوا يقيمون

من هامات المقهورين على هيئة الأهرامات والمنائر، ولا يجدون في ذلك حرجاً، ثم يشيدون، إلى جانب أكاداس القتلى، منشآت الحضارة والمدنية وبيالغون في حبهم وبذلهم للآداب والعلوم والفنون والمشتغلين بها؛ بل إنهم ليسعون إلى العلماء يشاركونهم الدرس ويدعونهم من أقصى الأرض إلى بلادهم. وعلى هذه الخطة وفد إلى بلاط الهند صفوة من علماء العرب والفرس والترك ليساهموا بجهودهم في بناء الحضارة الإسلامية الهندية هناك.

وأدى التسامح الذي اشتهر به سلاطين الدولة المغولية (١)، إلى العمل على تقريب سكان الهند إليهم في الغالب، حتى أصهروا إليهم، وتبعهم رجالهم في ذلك، وفتحوا لهم أبواب المناصب في الدولة. فساعد ذلك كله على نشر الإسلام بالهند حتى كانت غالبية المائة مليون مسالم الغالبة بشبه القارة الهندية اليوم من أصول هندوكية خالصة.

وإذا كان بابر مؤسس هذه الدولة لم يطل به الأجل بعد

١ — يجمع المؤرخون على بعد سلاطين الدولة المغولية عن التعصب الديني، فأرس

الأهلون في عهدهم طغوسهم الدينية بجرية تامة في الغالب.

إقراره للأمر في الهندستان ، وإذا كان ابنه هما يون قد امضى عمره في صراع متواصل من أجل عرشه ، فإن جلال الدين أكبر ثالث السلاطين - هو أول من أفصح عن التسامح المطلق وجهر بالتآلف فنأدى بأن الهند للهنود من أهلها مسلمين وهنادكة - وهو الذى بلغ كذلك بالدولة المغولية ذروة المجد والرقى . فقد نهض بالفنون والعلوم والآداب نهضة شاملة ، وزين الهند بكثير من المنشآت الفخمة وأرسى جهاز الحكم على نظم لا تمت شعبه وأذاعت شهرته ، وقلده فيها الذين حكموا من بعده .

نظام الحكم : كانت السلطات جميعها فى الدولة ، من عسكرية ومدنية ودينية ، فى قبضة السلطان ، على الرسم الغالب فى تلك العصور ، وفى البلاد الإسلامية على الخصوص ، وكان هواه هو دستوره وتشريعـه . فطالما كان الجالس على العرش من أولى العزم والقوة ، كان التماسك يعم الدولة الإسلامية كلها فى الهند ، وإلا فإن حكام الولايات كانوا يسعون إلى إعلان إستقلالهم وتأسيس إمارات لهم من فورهم ما أتاحت لهم الفرصة بذلك . وعلى هذا القياس ازدهرت الدولة المغولية أما ازدهار عندما كان على رأسها رجال أقوياء كبار ، وسقطت عندما خلت من مثلهم .

أما الوزراء والولاة والقادة والأمراء فكانوا صنائع للسلطان في الغالب ، يرفع من قدرهم ويخفض كيف يشاء، ويهيم من أراضى الدولة التي هي جميعها بداهة ملكه ، حين يشاء وبقدر ما يشاء ، ويستردها كذلك على مشيئته .

هذا ؛ وكانت أراضى الدولة على ضريين ، منها ما يُقطع للقادة والأمراء على أن ينفقوا من دخلها على جندهم الذين يساهمون بهم في حروب الدولة ، ويدفعوا نصيباً آخر معلوماً من المال كذلك إلى بيت المال في كل عام ، ومنها ما يستأجره الملتزمون على بدل سنوى يؤدونه . وكان هؤلاء جميعاً ذوى سلطان مطلق على الأهلين بمناطقهم في الغالب .

وعدّل أكبر نظام الإقطاع هذا إلى تقسيم البلاد إلى ولايات عليها نواب وعمال له ، على النظام الذى بينناه في موضعه سالفاً ، وأنشأ جيشاً قوياً مدرباً يتبعه رأساً وتقوم الدولة بدفع رواتب أفراد قواته من خزائنها (١) . ونهج خلفاؤه نهجه في الغالب حتى جاء أورنگزيب عالمگير فرجع إلى النظام الأول .

وأدى اهتمام الحكام المغوليين والسوريين (١) بالوقوف
تسريع على كل ما يجرى في مختلف أنحاء بلادهم الواسعة، إلى تنظيم
شئون البريد تنظيماً محكماً، وتمهيد الطرق والإكثار منها وتزويدها
بعلامات يهتدى بها السعاة والمسافرون. وأقاموا على هذه الطرق
منازل كثيرة انزول الناس والدواب، وأباحوها جميعاً للمسلمين
والهنداكدة. وأدى قيام هذه المحطات إلى تجمع صغار التجار عندها
ورواج أحوالهم بالتالى.

وقد أعجب بهذه الطرق الرحالة الفرنسى تافرنيه، الذى ساح
بالهند فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى، وصرح بأنهم
كانت خيراً من طرق فرنسا وإيطاليا إذذاك وأكثر أمناً (٢).

وعنى هؤلاء السلاطين جميعاً كذلك بإقامة العدل بين
رعاياهم وانتشار الأمن فى ربوع بلادهم، وألزموا التجار
والصيارفة بمراعاة الأمانة، وراقبوا سلوك عمالهم مراقبة دقيقة
فى الغالب، فلم يترددوا فى أن ينزلوا بهم أشد العقاب حين كانوا
يتحققون من ظلمهم للأهلين أو اعتدائهم على أملاكهم أو
أموالهم.

١ — السوريون هم آل شير شاه وأولاده .

٢ — حضرات الهند ٤٢٨

المجتمع : إن مؤرّخي الهند عامة لم يعنوا في الغالب إلا بحياة الحكام والسلاطين وأعمالهم وفتوحاتهم ، وما يتصل بذلك من حياة الولاة والقواد وأعمالهم ، فلم يلتفتوا ، إلا في النادر ، إلى الكتابة عن شعوب هذه البلاد وأحوالها الاجتماعية في شيء من التفصيل يُذكر ، اللهم إلا قلة يسيرة من المسلمين وفيهم أبو الفضل ابن المبارك ، مؤرخ أكبر ووزيره ، الذي تعد تدويناته من المصادر المهمة التي وصلتنا في هذا الباب ، هي وما كتبه فريق من الأوربيين من التجار والمبشرين الذين وفدوا على تلك البلاد في العصر الوسيط وما تلاه .

والمجتمع المغولي في الهند كان ، كما قلنا من قبل ، مجتمعا إقطاعيا خالصا رأسه السلطان الذي كان يضمن في العادة على بلاطه من ضروب الأبهة والعظمة ما خلب لب الذين أتيح لهم الإطلاع عليها وأدهش وصفه كل من سمع بها ، ففي بلاطه كان يتجلى بهاء الدولة ومجدها ورواؤها ، ومنه تشع علامات المدنية وتنبثق آلاء الثقافة ، وفيه تروج أنواع المعارف ، وعنده وفي كنفه يعيش رجال العلوم والآداب والفنون .

- ومن بعده يأتي الأمراء ورجال الدولة الذين كانوا على دين سلطانهم في الغالب في البذخ والترف والإسراف ، حتى كانت

بصورهم تزدهم بالجوارى والغلمان وتتختم بكل طريق أو فريد
من الأثاث والمتاع ، وتفيض موائدهم بأطيب الطعام ، وإلى
جانبا أكدا من الفاكهة المنوعة النادرة ، المستوردة من
غارى وسمرقند ، والأنبذة والأشربة الفاخرة التي لم يلتفت
إلى تحريمها أحد من سلاطين المغول تحريماً جدياً بالهند إلا
أورنگزيب .

ولعل استيقان هؤلاء الأعيان من مصادرة السلطان لأموالهم
، وأملاكهم بعد موتهم ، على العادة الغالبة إذ ذاك ، أو حتى وهم على
قيد الحياة حين يبلغ بعض الوشاة إلى الإيقاع بهم عنده ، كان ذلك
يدفعهم في الغالب إلى إنفاق أموالهم في مثل هذه الوجوه في
إسراف بالغ .

وكان التجار بدورهم يحرصون ، ولا سيما في المناطق البعيدة
عن العاصمة ، على إخفاء أموالهم عادة فلا يصادرها حكاهم حين
تشتد حاجتهم إلى المال أو يدفعهم جشعهم إلى طلبها .

هذا ؛ وكان أوسط الناس وأصحاب الحرف والصناعات يعيشون
في الغالب عيشة تتراوح بين الميسرة والمعسرة . أما أبناء الطبقات
الدنيا وأصحاب الحرف الدنيئة ، ومعهم خدم الأمراء والحكام
وآجراؤهم ، فكانوا في شظف من العيش والذل مقيم ، لا ينالون

الإلّ وجبات إغذائية قليلة هزيلة وأجور ضئيلة، حتى كادت الأمانة تنعدم بينهم بدافع من حاجتهم إلى سد رمقهم وإجابة مطالب ذويهم . ومع هذا فيقول بعض المؤرخين المحدثين بأن حالتهم برغم ذلك كله كانت أفضل بكثير منها في العصور الحديثة (١) .

وكانت طبقات الشعب هذه ، ومعها الزراع وأجراء الأرض ، هم أتعس الناس حظا وأشدّهم بؤسا حين تجتاح الهند المجاعات بسبب انحباس الأمطار الموسمية وما ينجم عنها من شح الأوقات وانتشار الأوبئة الفتاكة .

وقد التفت أكبر ، وأولاده من بعده في الغالب ، إلتفاتا جديا إلى العناية بأمر هذه الطبقات والعمل على تحسين أحوالها ومد يد العون لها عند حدوث المجاعات والقحط (٢) .

الصناعات : كذلك كان أكبر هو أول من عنى بأمر الصناعات الهندية ونهض بها ، فكان عنده ، كما يروى مؤرخه أبو الفضل ، مائة مصنع للنسيج والأسلحة والصباغة ، كل واحد منها كالمدينة في اتساعه (٣) . ومنها ما كان يُعبد للسلطان في كل عام

١ — Muslim Rule. 673

٢ — Eb. 546

٣ — آيين أكبرى - آيين ٩

ألف حُلَّة ليخلع أغلبها على رجاله .

وكانت أهم مراكز الصناعة المغولية هي في لاهور و آكرا
وفتچبور وأحدآباد ودكا . وكثير منها كان من المنسوجات الفاخرة
والسجاد يصدر إلى الخارج .

كذلك كانت الهند تصدر الصوف والنيلة والتوابل، وتقايض
عليه في موانئها بالكماليات الشرقية والغربية التي اقتضتها حياة
البنخ والإسراف التي كان يحياها حكامها ، والتي كان من مساوئها
دخول الطباق إلى هذه البلاد في مستهل القرن السابع عشر الميلادي
تزرعه في أرضها من بعد ذلك .

العمارة : أدى كلف الباريين البالغ بالحضارة والمدنية إلى أن
التفتوا إلى تعمير مدنهم وشغفوا بالعمارة شغفا بالغاً ، حتى ظهر في
عهدهم طراز معماري ، هو مزيج من فنون المسلمين في الغالب وبعض
الفنون الهندوكية ، فشاع في العالم باسم الطراز المغولي ، ويتميز
بالقباب البصلية الشكل والترصيع بالحجارة الكريمة والمينا والخزف ،
والأقواس الحادة ، والأبواب الفخمة التي تعلوها نصف قبة .

لقد انتقد ظهير الدين بابر أبنية الهند منذ دخلها انتقاداً شديداً
وأظهر امتعاضه من عمارتها . ولم يمنعه اشتغاله بحروبه المتواصلة

في هذه البلاد من إقامته لكثير من المنشآت على الطراز التيمورى الذى عرفه في موطنه الأول ببلاد ماوراء النهر وصادفه في مواضع كثيرة بخراسان وكابل ، حتى ليذكر في سيرته أنه كان يستخدم ٦٨٠ من النحاتين في بناء قصوره ، بخلاف ١٤٩١ آخرين كانوا يعملون في منشآته الأخرى من الخزانات والمساجد بأجرا ويسانه ودهولپور وگواليار (١) . ولم يبق من منشآته الكثيرة هذه إلا مسجد كابل باغ في پانى پت والمسجد الجامع في سنهبل ، ليجيء من بعده حفيدة أكبر فيزين الهندستان بعدة منشآت نفمة جاءت عمارتها آية في الإعجاز الفنى . وقد بقى منها حتى اليوم ضريح همايون وبعض قصوره في فتجپور سيكرى ثم بلند دروازه (البوابة الكبيرة) التى أقامها تذكارا لفتوحاته الدكنية التى تعد بارفعاها الذى يبلغ ١٧٦ قدما وحينئذها مثلا لروعة العمارة الهندية كلها . ويقوم غير بعيد منها ذلك المسجد الجامع ، الذى جاكى به فى تصميمه البيت الحرام ، ثم حصن آجرا الذى استغرق بناؤه سنوات ثمانية .

ومما يذكر فى هـذا الصدد أن أكبر لم يغفل فى عهده عن مراقبة أسعار مواد البناء حرصا منه على تيسير الحياة لشعبه .

وما أذاع صيت العمارة المغولية في الخافقين هو « تاج محل » ، ذلك المغزى البديع الذى شيدته شاهجهان لزوجته ، أرجُمند بانو ممتاز محل ، فقام مثلاً على الروعة فى البناء وفى الوفاء ، حتى رجَّح بعض المؤرخين ، خطأ ، استعانة شاهجهان فى إقامته بالفنانين الإيطاليين ، كما نسبوا إلى بابر من قبل استخدامه لتلاميذ سنان معمارى العثمانيين ، المشهور .

والثابت المعروف أن هذا البناء ، الذى يُعد بحق من روائع الفن المعمارى المعدودة ، هو فى تصميمه وتنفيذه إسلامى خالص . ومن منشآت شاهجهان الخالدة مدينة دهلى الجديدة ، التى عُرفت فى عهده باسم شاهجهانآباد ، التى خططها على أحسن نمط فى عصره وأقام بها عدة تصورات فخمة له ولأمرائه ، وخص التجار وأصحاب الحرف والصناعات والفنانين من نقاشين وغيرهم ، كل فريق منهم بمحلته ، ليهرؤوا من بعد ذلك بمنتجاتهم ورؤاء مدينتهم أنظار الأوربيين الذين زاروها إذ ذاك (١) .

ونالت آ كرا بدورها كذلك الكثير من عناية السلطان حتى أشاد الرحالة الألمانى مندلسو بنظافة طرقها الممهدة وجمال

أبديتها وإتساع رقعتها ، وأحصى بها إذ ذاك سبعين مسجداً
وثمانمائة حماماً (١) .

وبموت شاهجهان ، وارتقاء ابنه الصوفي أورنگزيب
عالمگیر العرش من بعده وضعف خلفائه ، فتر اهتمام الدولة
بالتعمير والبناء .

وقلد الأمراء المسلمون ، في مختلف الإمارات الهندية ،
طراز العمارة المغولية ، فظهرت أمثلة منها رائعة في بيجانپور
وغولكوند و أحمدنكر و برار و بيدار وتخطتها إلى نيپال ، بسفوح
الهمالايا ، التي لم يدخلها المسلمون ، فضلاً عن إمارة قيايا نگر
بأقصى الجنوب .

النقش : كان طبيعياً أن يستتبع شغف سلاطين الدولة المغولية
بالعمارة شغفهم كذلك بفن النقش والعناية به ، وأخذت مدرسته
عندهم طابعها المغولي الخاص بها حتى أفرد لها أرباب الفنون باباً
خاصاً بها وتحدثوا في أسفار كاملة عنها (٢) .

Lane-Poole 333. 5 ... ١

L. Binyon. The Court Painters of the Grand — ٢

Moghul. Oxford 1921.

فهذا جدّهم أكبر قد جلب معه إلى الهند جملة من روائع النقوش التي كانت في حوزة الاسرة التيمورية ، ومن بينها لوحات لبهزاد مصور السلطان حسين بيقرا ، الذي يصفه عمدا الفناين بأنه رفائيل الشرق (٢) ، كما استصحب همايون معه في عودته من المنفى إلى الهند النقاشيين المشهورين سيد علي تبريزي وخواجه عبد الصمد ، ليحجىء ابنه أكبر من بعد ذلك فيقرر أن التصوير نوع من العبادة ، وأن للفنان ، فيما يبذره ، طريقته الخاصة للإقرار بوحداية الخالق المبدع ، فهو حين يصور الكائنات وينقش أطرافها وملامحها على لوحته لا بُد وأن ينصرف بذهنه إلى التفكير في إبداع خالقها الذي نفخ فيها بما يعجز هو عن تصويره وإبرازه .

وهو بعد ذلك يقيم ببلاطه معرضاً للنقوش في كل أسبوع ويجيز المجيدين من أصحابها تشجيعاً لهم ، بل إنه ليستهوى نوابغ النقاشيين من خارج الهند بالمنح والعطايا ليفدوا إليه ، كما يمد تشجيعه وعناية إلى فناني الهنادكة ويحضهم على التعمق في تفهم

١ — لهذا النقاش لوحات عدة بأشهر متاحف الفنون وهو يتأثر في قهوشه بمذهب التصوفية الفارسية ، فهو بذلك من مدرسة الرهزية .

فنونهم القديمة ودراستها ، فمکان من نوابغهم ببلاطه دسوانت
وبساوت وسنولک وتراشندو حکنات ، إلى جانب عبد الصمد
ومیر سید علی وفرخ بگک ومحمد نادر وأستاذ منصور .

وقد عهد أكبر إلى نقاشیه بتصویر وقائع چنگیز نامه، وظفر
نامه ، وراز نامه ، وهی جمعاً من مؤلفات المسلمین ، ثم المهامهارتا
والراماينا . ملحمتی الهنادکه اللتين كان قد أمر بنقلهما وبعض كتب
هندوكیة أخرى إلى الفارسیة ، فزُينت كلها بنقوش تصور
حوادثها (۱) . وقد تأثر بعض هؤلاء النقاشین بالفنون
الأوربية التي كان البرتغالیون قد جلبوا معهم إلى الهند بعض
نماذج منها .

وورث جهانگیر عن أبيه كثيراً من أحاسیسه الفنية حتی كان
فی مقدوره أن یعترف فی یسر علی مقومات كل فنان وخصائصه
حتى حين شارك غیره ، فی نقش واحد (۲) .

وبلغ الفنانون والنقاشون فی عهد أورنگزیب بفن الخط
وزخارف الكتب مرتبة الأجر — از الفنی الرائع ، وساهم السلطان
نفسه معهم بنصب ملحوظ فی نسخه للقرآن الکریم فی

۱ — یداونی نان ۳۲۰ ، ۳۳۶

۲ — واقعات جهانگیری ۳۵۹ ، ۳۰

إبداع مشهور .

وتخلف عن فنانى الدولة المغولية لوحات كثيرة سجلت كثيراً من مظاهر الحياة فى البلاط وفى المجتمع الهندى ، بل وفى البيئة الهندية كلها بأشجارها وأزهارها وطيورها وفولها ، تجدها اليوم هى وزخارفهم قد أزدانت بها متاحف العالم الكبرى :

حدائق المغول : يتمثل كلف سلاطين الدولة المغولية بالجمال ، وحبهم للطبيعة ومباهجها ، فى حدائقهم التى أقاموها فى مواضع كثيرة بالهند حتى ذاع صيتها وأقبل الأورويون فى إيطاليا وبلاد الإنجليز ، على الخصوص ، يحتذون نمطها ويزينوا بها كثيراً من مدنهم . فهذا بابر نراه فى مواطن كثيرة بسيرته لا يفتأ يتغنى بما أبدعته الطبيعة من آلائها . حتى إذا ما دخل الهند فشاهد حدائقها لأول وهلة ، انتقدها انتقاداً شديداً لسوء تنسيقها وخلوها من الماء يجرى فى جداولها بين الخنازل ، فأين هى من مغانى فرغانه وكابل ، . وما غدا أن أنشأ بالهندستان عدداً من البساتين والمنتزهات ما حاكى بهارياض مواطنه ، فكان من بينها جارباغ السكابلى بظاهر آگرا الذى جعله على نمط نظيره بكابل وجلب إليه كثيراً من النباتات والأشجار التى لم تكن

الهند تعرفها من قبل (١) .

وورث عنه حفيده شامجها ن شغفة بالنباتات والحداائق
والأشجار وكافه بدراسها تفصيلا (٢) . كما اسهوت مغاني كشمير ،
بفتنتها، الأمراء الباربين جميعا فكانوا يسارعون إليها في كل صيف
طلبا للانتجاع والمنعة، حتى أقاموا على غرارها بلاهور: قصة البنغال،
شالمار أخرى حاكوا به نظيرتها في التبت بأشجارها وجداولها
وشلا لاها ومدرجاتها .

وما زال الشعراء حتى اليوم يتغنون في الفارسية والأوردوية
بمفاتيح هذه الرياض وجمالها .

الموسيقى . هذا؛ والمطلع على موسيقى الهند اليوم لا يستطيع أن
يغفل أمر المؤثرات الإسلامية التي عملت فيها، سواء في ناحية
الأصوات أو ناحية الآلات

ومن المشهور كذلك أن سلاطين المغول كانوا على ولع شديد
بالعزف والغناء ، باستثناء أورنگزيب عالمكير الذي سرخ
الموسيقين والشعراء من بلاطه . فهذا بار قد روى عنه تأليفه
لبعض الأصوات ، في حين كان ابنه همايون يعقد ندوة موسيقية

١ - بارنامه ٣٨٠ ب

٢ - واقعات جهانگیری ٣٠٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٨ ، ٣٧٠

ببلاطه في يومى الإثنين والأربعاء من كل أسبوع : أما أكبر فقد استقدم إلى بلاطه مشاهير الموسيقيين، رجالاً ونساءً . من كشمير وإيران . ولا يزال مثنوى مطربه ميان تانس بگواليار مزاراً بقصده موسيقوا الهند حتى اليوم .

وفي إقبالنامه جهانگیرى، لمعتمد خان، تفصيل لنشاط لموسيقيين ببلاط جهانگیر، وقد كلف هذا السلطان نفسه بالموسيقى حتى ألّف فيها أصواتاً كثيرة .

وفي عهد الدولة المغولية أدخل إلى الهند كثير من الآلات الموسيقية، مثل الرباب والسرود والدلرنبى والطاروس، وجميعها فارسية الأصل (١)، كما ألّف، كثير من الأسفار فى هذا الفن تَزَخَّرَ بها مكتبة فيضى بآگرا اليوم، ولا يزال إلى وقتنا هذا الألحان المغولية رواج بالهند .

الحركة الفكرية لم يُبَدِّ سلاطين الدولة المغولية رعاة للحركة
المكبرية فى الهند وحماة للعلوم والآداب فحسب، بل كان منهم من ساهم بقلمه فيها وأخرج للناس كتباً قيّمة. فمن ذلك السيرة الفذة التى أنشأها

بأبر عن نفسه فافصحت عن إحاطته الواسعة بالتاريخ وتقويم البلدان وكثير من العلوم العقلية والنقلية . وتمتكته التمام من الآداب العربية والفارسية والتركية . كذلك كتبت ابنته كُلمبَدُنُ بيسگيم ، همايوننامه التي تعد مرجعا وثيقا في تاريخ ثانی سلاطين المغول . وشغف مثلها بالآداب كثيرات من نساء البيت المغولي ، أشهرهن زيب النساء ابنة عالمگیر التي كانت تقرر الشعر باللسانين العربي والفارسي في رقة وعذوبة أودعتها ديوانها المشهور « ديوان مخفي » .

هذا؛ وكان همايون يحرص في أسفاره على الإلتفات له مكتبته الخاصة ، وكان يميل بمخاطبة إلى المصنفات الجغرافية والفلكية . ولم يكن جوهر صاحب تذكرة الواقعات إلا تابعا من أتباعه ومقدم شرابه (١) .

وصادفت سوق الثقافة والحياة الفكرية رواجاً منقطع النظير عند أكبر ، أعظم ملك عرفته الهند ، حتى أوقف المؤرخ عبد القادر بداوني المجلد الثالث من كتابه، منتخب التواريخ، على ذكر رجالها والمشتغلين بها في عهده . فكان من أعلامهم ملا داود صاحب تاريخ أُلْفِي وأبو الفضل بن المبارك صاحب أكبرنامه

١ - كان لابر كذلك مكتبة قيمة عليها قيم يدعي عبد الله كتابدار .

آيين أكبرى - والكتاب الأول يستعرض فيه تاريخ الدولة المغولية منذ نشأتها ، في حين يتحدث في الكتاب الثانى عن رسوم هذه الدولة وتقاليدها ونظم الحكم فيها ومظاهر المدنية عندها - ثم أخوه أبو الفيض فيضى الشاعر الطبيب الرياضى ، ونظام الدين أحمد صاحب طبقات أكبرى ، ومحمد عبد الباقى صاحب آثار رحيمى ، ومحمد قاسم هندوشاه صاحب تاريخ فرشته. وأغلب هذه الكتب قد نشرتها المطابع ونُقل بعضها إلى لغات كثيرة ، وجميعها قد صُنِف بالفارسية التى كان لها ولآدابها رواج عظيم ، ومركزٌ ممتازٌ بالهند أيام الحكم الإسلامى بعامة وفى عهد الدولة المغولية بخاصة ، حتى أُقبل كثير من الهنادكة على دراستها واشتهر نفر من براهمة كشمير بإجادة النظم بها .

وبلغ من تقدير أكبر للعلماء أن استبد به الحزن حين بلغه خبر مقتل وزيره ومؤرخه أبى الفضل ، حتى ودّ لو كان هو المقتول مكانه ، فنوايغ العلماء - على حد قوله - لا يجود بهم الزمان إلاّ فى القليل النادر بخلاف الملوك وإن صلحوا .

ولأكبر يدين الهنادكة يبعث آدابهم السنسكرىتية وإحيائها من جديد ، وظهور طبقة ممتازة من كتّابهم وشعرائهم . وبفضل نظراته المتساحمة وتشجيعه أُقبل فريق من المسلمين أنفسهم على

الاشتغال بتلك الآداب ، حتى نظم الشعر بالسنسكريتية الوزير
عبد الرحيم خانخانا الذي نقل ببرنامج من الجغتائية إلى الفارسية
على ما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وفي عهد جهانگیر كتب معتمد خان تاريخه المعروف بإقبالنامه
جهانگیری ، وكامر خان مآثر جهانگیری ، والشيخ نور الحق
زبدة التواريخ ، كما ألف في عهد شاهجهان ، بادشاهنامه ،
لعبد الحميد لاهوري ثم لامين قزويني ، وشاهجهاننامه لعنايت خان
وعمل صالح لمحمد صالح .

هذا ؛ كما كتب داراشكوه بن شاهجهان بعض كتب في التصوف
المقارن مثل « مجمع البحرين » ، وترجم لجمهور من أهل التصوف في
كتابه « سفينة الأولياء » . ودفعه شغفه بالاطلاع على فلسفة الهند
القديمة وعقائدها إلى أن عهد إلى بعض المترجمين بأن ينقلوا إلى
الفارسية قدرًا من كتبها مثل اليوپانيشاد وبهجتادجيتا
ويوجا ما شيست .

حتى إذا بلغنا عصر أورانگزیب وجدنا عنده من المؤرخين
محمد هاشم المعروف بخاني خان صاحب منتخب اللباب وبتنزي راي ختري
صاحب خلاصة التواريخ ، ثم محمد مستعد خان صاحب مآثر عالمگیر
ومحمد كاظم صاحب عالمگیر نامه . وأشهر ما كتبت في عهد

هذا السلطان هو الموسوعة الفقهية الكبرى، المعروفة بالفتاوى الهندية أو العالمگیریة، التي عهد بتأليفها إلى فريق من خيرة علمائه ، وبذل لهم في سناء ، فأجملوا فيها الفقه الحنفي كله إجمالاً شاملاً . ولم يمض على الفراغ من تأليفها أكثر من قرن ونصف القرن حتى طبعت في القاهرة ونُشرت، وذلك قبيل منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، مما يدل على قيام الروابط الثقافية الوثيقة بين الشعوب الإسلامية برغم بعد الشقة بينها . وما أصابها من انحلال وضعف في ذلك القرن . ويُعد هذا الكتاب من أهم المراجع التي اعتمد عليها المصلحون في السنين الأخيرة لإصلاح قوانين الأحوال الشخصية بمصر .

اللغة الأوردوية : كان من أجلى مظاهر التجاوب القوى بين الثقافتين الهندية والإسلامية وآدابهما ، تطور اللغة الأوردوية ، أوسع لغات شبه القارة الهندية انتشاراً، والتي تنعد من يجا من لغات الحاكين والمحكومين ، أى من الفارسية أساساً ، وماتسرب إليها من ألعاظ عربية كثيرة ومصطلحات اللهجات المحلية الهندية (١) .

١ — اللهجات الهندية هي في الغالب خليط من اللغات الدراورية والآرية بما فيها السنسكريتية . وقد بقيت السنسكريتية الأدبية الخالصة وقفا على أبناء الطبقات الهندية العليا منذ أن وضع «منو» المزم نظام الطبقات فمزلت نفسها بذلك في الغالب عن عامة الناس .

فلقد بدأت ألفاظ كثير من لغات الفاتحين تتسرب إلى لهجات الهند منذ أن غزا محمود الغزنوي هذه البلاد واستقر خلفاؤه من بعده بها، كما عدت ألفاظ وعبارات هندية بدوردا تجرى على لسان المسلمين: في الهند، حتى تمكن فريق منهم من آداب البلاد المفتوحة تمكننا يئناً ظهرت أمثله عند خسرو الدهلوي الذي كان ينظم الشعر بالفارسية. والبهاشا، لهجة دهلي، على الأوزان السنسكريتية، في القرن الرابع عشر الميلادي.

حتى إذا ما أخذ الهنداكة يُقبلون على تعلم الفارسية منذ أيام اللوردهيين طمعاً في الالتحاق بالدواوين، وجاء سلاطين المغول يفتحون لهم الأبواب إلى المناصب ويعتون بالتهنئة بالآداب الفارسية والسنسكريتية على السواء، ازداد تقرب اللغتين من بعضهما واختلاطهما، ليظهر من أثر هذا المزج لهجة ثالثة في عهد شاهجهان في القرن السابع عشر الميلادي، وقد بدأ عليها معالم النضج والاستقلال واضحة، وقد عُرِفَت باسم «زبان أردو» أي لغة سوق المعسكر، بدهلي، حيث كان لها رواج ملحوظ.

وبقيت هذه اللغة الجديدة في الغالب تساهم في النشاط الأدبي بنصيب محدود لا تبلغ فيه بعض مقام الفارسية، حتى تم للبريطانيين استعمار الهند فعملوا على اقتلاع الفارسية من هذه

البلاد - بوصفها لسان المفكرين المسلمين الذين جروا على مناهضتهم - حتى تزعموا آخر الأمر ثورة التحرير الهندية ضدّهم في منتصف القرن التاسع عشر - فبدلوا جهوداً كبيرة لتنظيم أصول الأوردوية ونحوها. وطبعوا كتبها، حتى عمت الهند على حدّثة عهداها وازدهرت آدابها. ولا تزال للمطارحات الشعرية الأوردوية بالهند كلها سوق رائجة حتى اليوم.

وكانت الأوردوية هي لسان الزعماء المسلمين من أمثال السيد أحمد خان وإقبال وخلفائهما الذين نصبوا أنفسهم للتهنئة بالمسلمين في الهند والدفاع عن حقوقهم بازاء عدااء البريطانيين المرير لهم. وعالج بها نفر من كتاب المسلمين والهنادكة كثيراً من الموضوعات الحديثة والقديمة فبرهنوا بذلك على مرونتها وصلاحتها كل الصلاحية في العصور الحديثة (١). وهي اليوم لغة باكستان الأولى ومن أكثر اللغات تداولاً بجمهورية الهند.

كان من أثر الإسلام البالغ بالهند، فضلاً، عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالمساواة بين الناس جميعاً، أن برز طائفة من المصلحين الهنادكة ينادون بإنكار عبادة الأوثان

من دون الله الواحد القهار^(١)، كما أنكروا كذلك نظام الطبقات
والوظائف الدينية وزواج الأطفال وعادة الساتى، وأباحوا زواج
الأرامل وسمحوا لغير الهنود باعتراف دينهم .
ولم تكن دعوات نانك صاحب ديانة السك، وكبير صاحب
مذهب بهكتى ، ورام موهن صاحب « برهما سماج » وتعظيمهم
جميعاً للأنبياء والمرسلين إلا صدق لتعاليم الإسلام الذى كان
بالهند ديناً وحكماً ومدنية .

٩ - ديانات الهند القديمة كانت تقول أصلاً بالتهجيد فى الفاناب (البيرونى : ذكره
ما للهند من مقولة . . . ص ١٣) وإن لم يبدو عندها بالمظهر الراسخ المؤكد عند
المسلمين ، حتى انحرف بها سادتها من بعد ذلك فباعدوا ما بينها وبين مبادئها الأولى .

ملحق بالكتاب عن :

الترک والمغول

سلاطين الدولة المغولية، الذين حكموا الهند قرابة قرون ثلاثة. فشهدت هذه البلاد على عهدهم أعظم نهضة وحضارة عرفتها في تاريخها ، تمتزج في عروقهم دماء الترك والمغول . فأبوهم ظهير الدين محمد بابر ، فاتح الهندستان ومؤسس هذه الدولة ، ينتهي نسبه من ناحية أبيه إلى الخاقان التركي تيمورلنك ويمتد عرقه من ناحية أمه إلى خان المغول الأعظم چنكيز .

والمغول والترك كلاهما قد سبق إلى غزو شبه القارة الهندية ، وكان لهما شأن خطير ودور هام في تاريخ آسيا الوسطى بعامة ، وبلاد الشرق الإسلامي بخاصة ، مما يقتضى أن نتحدث عنهم وعن تاريخهم في قدر من الإجمال .

فكم من مدن إسلامية زاهرة انتهت برابرة الترك والمغول ثم دمروها ، وكم من حصون وقلاع أفنوا حامياتها ذبحاً ، ثم لم يتركوها حتى سوّوا أبنيتها بالأرض ، وكم من ألوف كثيرة من السكان المسلمين نهبوا متاعهم ثم ساقوهم في الغالب إلى حتوفهم ، وناهيك بالعدد الوفير من أصحاب الجيرف الذين

كانوا يسوقونهم معهم من بعد ذلك للعمل عندهم .
على أن هؤلاء المخربين، حين دخلوا في دين الله أفواجا وتمكن
تصالحهم بالحضارذ والثقافة الإسلامية ، ما غدوا أن انقلبوا في
الغالب إلى حُماة للعلوم والفنون والآداب ، وإن لم يتخلوا أبداً
عن ميلهم إلى سفك الدماء وإعمال السلب والنهب . فكنت تراهم
في الغالب يكدسون هامات ضحاياهم على هيئة المنائر والأهرامات
ثم ينصرفون من بعد ذلك إلى تعمير المنشآت النافعة الكثيرة .
ويزيدون المال والتشجيع للعلماء والأدباء وأرباب الفنون ، حتى
كان منهم من شارك أهل المعرفة نشاطهم ودروسهم ، لتشهد من
بعد ذلك على أيديهم جملة من المدن ، التي خربها أجدادهم من قبل ،
بهضة ثقافية وحضارية فذة (١) .

إن سلسلة الجبال الآسيوية الرئيسية العظمى التي تمتد من
الصين شرقاً إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط غرباً ، والتي
تبلغ غايتها من الإرتفاع في منطقة التبت ، وبجبال الهملايا التي
تُعرف بسقف الدنيا على وجه التحديد ، هي في تشعبها
وتفرعاتها : كانت تُعد بحق ، في القديم ، حاجزاً بين الشعوب

المتحضرة والقبائل التي لا تزال بأسيا على البداوة في الغالب . فما من شعب سكن إلى الجنوب من هذه الجبال إلا وكان له في التاريخ دور هام وفي الحضارة والثقافة نتاج قوى وسهم كبير . ولدينا في الهند القديمة وعلومها وفلسفتها ، وفارس وما كان لها من ملك عتيق وماض تليد ، ما يؤيد هذه الدعوى ويقوم دليلاً عليها .

وفي حين كانت الأراضي الواقعة إلى الجنوب من سلسلة الجبال الآسيوية تعج بالمدن الكبيرة والوديان الخصبة ، كانت المناطق الواقعة إلى ما وراءها شمالاً - باستثناء الصين وبلاد ما وراء النهر وماحول نهري سيحون وجيحون - ما تزال تتجول في أغلب مناطقها بمجموعات عديدة من قبائل البدو ، ثروتها قطاعان الأنعام ، ومدنها وديارها صفوف من الخيام ، ودستورها العرف القبلي البدائي المتوارث .

وعرفت هذه المناطق الشمالية عند القدماء باسم بلاد السيث ثم أطلق عليها أهل الصين من بعد ذلك اسم بلاد التتار .

وظل لفظ التتار يُطلق على كافة القبائل التي تجاور الصين وتقتن الأقاليم الممتدة في أواسط آسيا إلى الجنوب الشرقي من أوربا حتى ظهور چنگيز خان في القرن الثاني عشر

الميلادى (۱) . وبرغم اشتهاى أمر المغول من بعد چنگيز خان ، فقد ظل صيت التتار القديم غالباً ، وصار اسمهم سارياً على المغول أنفسهم فى بعض بلاد أواسط آسيا وفى سوريا ومصر (۲) .

هذا ؛ وقد شك كثير من المؤرخين سكان هذه المناطق الشمالية فى عروق ثلاثة هى : العرق المنشورى أو المنغورى أو المنشوى ، ثم العرق المنغولى أو المغولى (۳) ، ثم العرق التركى .

أما المنشورىون فهم أغاب سكان الصين ، وإلى الغرب منهم منازل المغول ، ثم مواطن الأتراك الذين يحاورون الصينيين فى بعض المناطق .

۱ — التار عند الصينيين هم الفرباء والشعوب البعيدة والنور من الجماعات غير المتمدينة والاصوص . انظر : هارولد لامب : جنكيز خان ص ۲۴ .
ثم المقدمة الإنجليزية لترجمة تاريخ رشيدى لكانتها H . Elias p 83
۲ — تاريخ الكامل لابن الأثير مجلد ۱۲ — المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء . م ۳ ، ۴

هذا واهل تعريف المغول بالتتار ، وقد كانوا فى مبدىء أمرهم على بدائة وتأخر تام ، إنما هو من إطلاق التجار المسلمين تقلا عن جيرانهم من الصينيين والأتراك .
۳ — تقصد بالعرق هنا الجنس . هذا ؛ والتسمية الصحيحة الواجبة هى منغول لا مغول ، واللفظ الأخير هو خطأ مشهور شائع .

وإلى الجنسيتين الأخيرين ينتمى سلاطين الدولة المغولية وكثير
من القادة والجند الذين دخلوا معهم الهند واستقروا بها .

منازل التُّرك :

جاء إسم التُّرك صراحة ، أول مرة ، في نقوش أورخون التي
اكتشفتها الأثريون في منتصف القرن الماضي ، والتي يرجع تاريخها
إلى القرن الثامن الميلادي . وتذكر هذه النقوش أن سلطان الأتراك
كان في القرن السادس الميلادي يمتد بين حدود الصين وحدود إيران
وبينظة ، وكانت قبائلهم تنتشر في هذه المنطقة كلها (١) .

وأدى اختلاط الأتراك بجيرانهم من أمم العالم القديم
العريقة في المدنية إلى وصول قدر غير قليل من حضارات هذه الأمم
إليهم ، وناهيك بما أتاحه هذا الجوار من تسجيل للكثير
من رسوم الترك ووقائعهم التي أغفلت الصين جارتهم الأولى
ذكر أغلبها ، فلم يسكن حديثها عنهم ليعدو ذكر قبائلهم .

ومما ترويه أخبار الصينيين القدماء أن قبائل « هونج نو ،
كانت تجاور بلادهم قبل ميلاد المسيح بعدة قرون . حتى إذا

١ — ويؤكد الأستاذ بارتولد كذلك أن هؤلاء الأتراك هم أحفاد الهون

Barthold-Donskies : Hist. des Turcs d'Asie centrale .
pp 6,16

ما أشد خطرهما وتفاقم عداؤهما ، عمدت أسرة تسن الحاكمة إلى بناء سور الصين العظيم لحماية بلادهم منهم ، فولوا وجوههم من بعد ذلك صوب الغرب ونزلوا في ولاية كانسوه إلى جوارتل على هيئة الخوذة ، وهي « دوركاي » بالصينية ، ندسبوا إليها (١) .

وتم لهذه القبائل التركية في القرن الثاني قبل الميلاد، السيطرة على مناطق متسعة الأرجاء في أواسط آسيا (٢) ، فكان الأويغور ينتشرون فيما بين نهرتانو والنهر الأصفر ، وتيان شان والتاريم ، كما كانت مضارب القرغيز في منطقة نينى سى، ومنازل القسراق والتوكوى فى التماى ؛ والياقوت عند الجنوب من سيبريا ، فى حين انتشرت قبائل تركية أخرى حول بحيرة بيكال وبحيرة بلكاشر وعند سيحون وجيجون حتى بحر الخزر .

ومناطق الأتراك هذه ، فضلا عن ترامى رقعتها ، كان يتخللها

١ — هذه التسمية التى أوردتها باركر (Engl. Hist Rev. 1898)
٤٦٦-431 p) يجب أن تقابل بالجنزى وما جاء من أشارات لترك عند
عيرودوت ، وما ذكره الأستاذ بلوشيه من اشتقاق اسمهم من كلمة تورى الواردة
فى الأبتاق القديمة JRAS 1915 p 305-8
٢ . Czaplicka, M. The Turks of Central Asia p 61 .

سحراوات كثيرة متشعبة ، حتى لتبدو المناطق الزراعية بها أشبه بالواحات في مواععها ، مما أحال استمرار قيام دولة معمرة بها تعتمد على الزراعة ويتيسر لها في نفس الوقت إحكام الرقابة على قبائل البدو التي ظلت أبداً مصدر تهديد دائم لأى أرض تُزرع أو مدن تقوم في هذه النواحي .

ويُستثنى من هذا التعميم بلاد ما وراء النهر التي تُعرف أيضاً باسم بخارى الكبرى . فهي برغم وقوعها إلى الشمال من سلسلة الجبال الآسيوية ، قد يَسَّرت لها طبيعة أرضها ، وما بها من مجار للياه عديدة ، مقومات الحضر ، فازدهرت في الغالب ما أفلح حكامُها في ضبط أهورها ورد غائلة كل عدوان خارجي عنها .

وعن طريق هذه البلاد ، التي تُعد باب آسيا الوسطى والجنوبية . نفذ الأتراك والمغول إلى العالم المتحضّر وأفلحوا في إحداث تغييرات كثيرة خطيرة به .

وقبائل « هونج نو » ، هذه التي تشتهر أيضاً باسم الهون ، ندفت مـوجاتها مرات عدة على بلاد ما وراء النهر وفارس والهند ، كما عبرت الفولجا إلى الدانوب ، واكتسحت ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وأنزلت ، بقيادة أتيل ، هزات

عنيقة بأوروبا كما هو معروف مشهور^(١) .
ونتج عن اختلاط هؤلاء الأتراك بالفرس ، جيرانهم
بأواسط آسيا ، أن نفذت إليهم ثقافة الساسانيين وحضارتهم ،
وهم الذين كانوا يسيطرون على كافة مسالك التجارة ودروبها في
العالم القديم .

وبزغ نجم الأويغور من بين الأتراك في القرن الثامن
الميلادي ، فحكموا في أواسط آسيا ومنغوليا الحالية مكان الترك
أوغوز والغز ، الذين اضطروا بدورهم إلى النزوح غربا ، ليتألق
نجمهم في القرن الرابع الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي ،
فيشمل نفوذهم من بعد ذلك بلاد التركستان وقشغر ، ويرثون جزءاً
من مملكة السامانيين ببلاد ما وراء النهر ، ويُعرفون في التاريخ باسم
القره خانيين ، وكانت عاصمتهم أرقند إلى الشرق من فرغانه .

وإلى جانب هؤلاء كانت منازل القبچاق الترك تمتد حتى
القوقاز ، وقد نشأت بينهم وبين بلاد خوارزم الإسلامية علاقات قوية .
وغزا القرغيز عام ٨٤٠ م منازل الأويغور الذي آثروا

١ — يرجح بعض المؤرخين أن الهون لم يكونوا في زحفهم أتراكاً خالصاً إذ كان معهم
كثير من المغول Degiugnes. Hist. Gen. des Huns Vol I p 212
وأهل المؤلف يقيس في هذا على ما كان في جيوش جنسكيز وأبنائه من الأتراك .

الهجرة إلى حوض التاريم والواحات القريبة منه على معايشة هؤلاء الذين كانوا على درجة كبيرة من التأخر ، وطفقوا هناك يمارسون التجارة والزراعة (١) .

واتجه القره ختاي ، وهم مغول في الغالب ، صوب الغرب بدورهم ، بعد أن طردتهم أسرة كين الصينية في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من منازلهم بالصين الشمالية و صحراء جوبي ، فأقبحموا منغوليا على القرغيز ، ودخلوا إقليم خيطان وهزموا خان قشغر القره خاني والساطان سنجر السليجوقي ، وصالحوا أتسز شاه خوارزم على جزية قدرها ثلاثون ألف درهم يؤديها اليهم في كل عام (٢) ، وبلغوا بانخ بعد أن بسطوا سلطانهم على التركستان وبلاد ما وراء النهر كلها .

واتن أدى زحف القره ختاي إلى فتح أبواب منغوليا للمهجرات من المغول ، فقد لبثت القبائل التركية ، وغالبية من الأويغور والغز وبتونهما ، هي صاحبة النفوذ فيما بين منغوليا وبحر الخزر ، والأويغور هم أغلب الأتراك الذين وجددهم الغزاة

١ — Grousset, R. L'Empire Mongol. p 11

٢ — جرى القره ختاي أو الكورخانيون في تقدير الجزية وفق النظم الصينية .
فرضوا على كل بناء ديناراً واحداً . Barthold-Donskies p 98

المسلمون من العرب ببلاد ماوراء النهر حين دخولها أو اخر
القرن الأول الهجرى .

حضارة الترك وإسلامهم :

تجمع كافة المصادر على أن الاويغور كانوا أرقى قبائل الترك قاطبة .
وقد اجتمعت لهم مقومات الدولة بعد أن ارتقت الزراعة عندهم
واتسعت رقعتها ؛ واستقرت حياتهم في كثير من المدن التي
أقاموها ، حتى بعثوا بسفرائهم إلى خارج بلادهم وعقدوا
المعاهدات مع غيرهم من الدول . وبلغ ارتقاء الوعي
القومى عندهم إلى أن ثاروا على بعض حكامهم لإمعانهم في تقايد
الصينيين أعدائهم .

وآثر هؤلاء الأويغور في الغالب حضارة الصغد على
حضارة الصين ، فاتخذ ملوكهم لأنفسهم لقب « شاد » مقابل لقب
« شاه » الفارسى ، وأستخدموا أبجدية تُرَد إلى أصول صُغدية ،
فكانت بذلك تتلاقى مع الأبجدية الفارسية الساسانية في النسب ،
وكتبوا بها قبل تدوين نقوش أورخون بزمن طويل (١) .
وانتشرت الكتابة الأويغورية بين شعوب آسيا الوسطى

انتشاراً واسعاً (١) بعد سقوط دولتهم (٢) ؛ إذ لبشوا ، برغم
أفول نجمهم السياسى ، كدولة ، يلعبون ، كأفراد ، دورا سياسيا
وثقافيا كبيراً عند دول الترك والمغول . فقاموا على تنشئة أولاد
چنگيز خان واضطلعوا بالعمل فى دواوينهم ، وأرخوا لهم كما
أرخوا لتيمور لنگك من بعد .

واستخدم خوانين فارس من المغول ، الأويغورية . فى تراسلهم
مع بعض أمراء أوروبا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكتبوا
بها إلى باباروما وفيليب ملك فرنسا وإدوارد ملك إنجلترا لغرض
قيام حلف بينهم لحرب المماليك المصريين (٣) .

وما تزال بدار الكتب الأهلية بمدينة قيننا نماذج من هذه
الكتابة ، كما كان بحاضرة الأتراك العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى
من هم على دراية تامة بهذه اللغة التى تُعد الأساس الذى قامت عليه

١ — فى بلاد الأوينور هذه عرف العرب المسلمون ورق الكتابة لأول مرة ،
يلطعوا العالم القديم عليه بدورهم من بعد ذلك . وكانت الصينيون كذلك يستخدمونه
منذ زمن طويل .

Grousset. R. Hist de l'extreme Orient. T11 p 407 — ٢

Czaplicka p z7 — ٣

الجغرافية لغة الترك التقليدية (١) .

هذا ؛ وكانت الديانات السائدة في الأوساط التركية ، قبل اعتناقهم الإسلام ، هي الشامانية التي تقضى بعبادة الأسلاف وتعترف بالإله العظيم ، ولكنها لا تؤدي له الصلوات ، وإنما تقوم بها الآلهة الشَّـمَّرُ اتقاءً لخطرها ، ثم البوذية الهندية والزرادشتية الفارسية التي كان لها نفوذ راجح ببلاد الصَّغْد في الغالب .

وجاور المسلمون قبائل الترك ببلاد أواسط آسيا ابتداء من أواخر القرن الأول الهجري ، وكان الإسلام قد اكتسح مراكز الزرادشتية ببلاد فارس

وظفقت قوافل التجار المسلمين تتوغل في مسالك آسيا الوسطى حتى بلغت الصين شرقاً وحوض الفولجا غرباً ، فكان هؤلاء التجار من أنشط الوسطاء في نشر تعاليم الدين الإسلامي .
وغنى عن البيان أن المسلمين لم يلبجأوا عموماً إلى العنف لحمل الناس على الدخول في ملتهم ، كما كانوا يكفلون لغيرهم في الغالب ممارسة عقائدهم في حرية تامة كذلك ، حتى رأينا

١ - تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ١٠٠ ، ١٠١ - ولا تزال هذه اللغة

قائمة كذلك في التركستان الروسية .

المعتصم العباسي يتشدد في عقاب بعض المسلمين الذين اعتدوا على بعض معايد للفرس ببلاد الصغد (١) .

وإثن غدا الإسلام ينتشر ببلاد ما وراء النهر منذ أيام قتيبة ابن مسلم أواخر القرن الأول الهجري ، فإن إسلام الترك الجماعي لم يبدأ في صورة واضحة إلا أيام السامانيين في القرن الرابع الهجري ، فأسلم خان قشغر ، ساتوك بغراخان أمير القره خانيين ، وتسمى باسم هرون بن سليمان ، ودخل معه في دين الله أهل بلاده (٢) وفريق كبير من سكان التركستان الشرقية وإقليم خيطان .

كذلك اعتنق السلاجقة - وهم من عُز الخزر - الإسلام في القرن الرابع الهجري . وكانوا يُشتهرون بتمسكهم الشديد بتعاليم وهدمهم على نصره أهل السنة . وقد شمل سلطانهم بلاد ما وراء النهر وفارس والقوقاز ، ونفذت عروق منهم ومن جيرانهم إلى آسيا الصغرى فقصوا على الدواة البيزنطية الشرقية بها (٣) .

١ — تاريخ الحضارة الإسلامية لبارتولد ص ٨٦

٢ — تاريخ رشيدى ص ٢٨٦

٣ — الأتراك العثمانيون هم كذلك من الفرز «الأوغوز» ، والتفرغز هم أيضا من الفرز «توقوز أوغوز» قبائل الفرزالتسع . هذا وتخلط بعض المصادر العربية بين الأويغور والأوغوز وتعتبرهم قبيلة واحدة ، وإن كانوا جميعا من الترك .

ومهد انتشار الإسلام حتى الفولجا وتكاثر جموع الأتراك عند بحر آرال وما حوله ، لقيام الدولة الخوارزمية التي صار لها شأن كبير في القرنين الخامس والسادس الهجري . وروج من أحوالها أن بلادها كانت من أبواب التجارة المهمة التي تصل ما بين أواسط آسيا والأقاليم الإسلامية المتحضرة . وكان الخوارزميون يعقدون آمالا كثيرة لمد نفوذهم حتى حدود الصين ، ومعهم حلفاؤهم من القبچاق الذين أسلموا على أيديهم بدورهم في القرن الخامس الهجري ، لولا ظهور چنگيزخان

ونفذت الثقافة الإسلامية إلى الشعوب التركية بأواسط آسيا ، على أيدي شيوخ الفرس المسلمين في الغالب ، فنقلوا عنهم كثيراً من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية إلى لغتهم . وما غدوا أن شغفوا بالآداب الفارسية شغفاً كبيراً حتى ازدحت قصور حكامهم بشعرائها وكتّابها ، وكادت العربية لا تجد لها سوقاً رائجة إلاّ عند بعض المشتغلين بعلوم القرآن والسنة .

المغول في مواظبتهم :

فيما كانت العناصر التركية توثق من علاقتهما

وصلاتها - بالعالم الإسلامي لتبلغ من بعد ذلك بنفوذها وسطوتها إلى إقامة دول قوية لها امتسعة الرقعة عظيمة الثراء ، كانت قبائل المغول ، عند كريلين وخنجان وفي مناطق الأنون وتولا بمايلي أطراف الصين غربا ، تعيش عيشة بدائية صرفة ، في مجموعات من الخيام الحقيبة المتناثرة بين السهول والغابات ، لا يدري العالم المتحضر من أمرها شيئا مذكوراً حتى ظهور جنكيز خان في القرن الثالث عشر الميلادي .

ولم تهتم الصين ، جارتهم الكبرى نفسها ، بأمر هذه القبائل التي كانت تعرفها باسم منغ وا / ومنغكوتاتا ، حتى رأى أحد أباطرة أسرة كين ، التي كانت تحكم بالصين الشمالية في القرن الثاني عشر الميلادي ، أن يستعين بهم وبالقره ختاي في القضاء على بعض أعدائه من القبائل التي كانت تنزل حول بحيرة بُوِير نور .

وعلا شأن قتي من المغول يدعى تيموجين في هذه المعارك وذاع صيته حتى اختارته قبيلته خاناً عليها ، فلقب بجنكيز ، وأحيا اسم المغول من جديد بأن أعلن نفسه خليفة للباطل المغولي الأسطوري قَتَلِقُ خان الذي كان يُمسك بالرجل فيشطره شطرين كما يُسكسر عود من تصب ، والذي كان يبني بيوت في العراء

صيف شتاء، لا يأبه بالزمهرير ولا يخشى الثلوج، حتى كانت لفحات
اللهب لا تعدو عنده لسع بعوضة (١) .

واعترز خلفاء چنگيز ورهطه بهذه التسمية ، التي كانت في
أول أمرها من صنع جيرانهم (٢) حتى رأينا رجال البلاط ،
المغولي يحدرون الرحالة الأوروي جون ريبرك ، حين زار بلادهم في
منتصف القرن الثالث عشر، من أن يتحدث عن أميرهم حفيد الخان
الأكبر بأنه تتسرى؛ بل عليه أن يذكره بوصفه ملك المغول .
ولم تمض سنوات قليلة على بدء القرن الثالث عشر الميلادي

Howorth, H. History of the Mongols 1 p 44 — ١

Barthold, W. Turkestan p 382. — ٢

٣ — برغم النفاذ فريق من كتاب الفرس إلى التفرقة بين المغول والأتراك —
حتى قبل ظهور دراسات الأجناس — فوصفوا الأولين بالقيح وتفنوا بجمال الآخرين ،
فقد اختلط الأمر على بعض من المؤرخين المسلمين بفعل الجوار في البيئة فعدوهم عرفا
واحداً . وساعد على هذا الخطأ ، أن المسلمين الأوائل كانوا يطلقون اسم بلاد
الترك على كافة المناطق التي تقع بين آخر حدودهم ، عند بلاد ما وراء
النهر ، والصين .

وبرغم تقرير مؤرخي الأتراك المحدثين بالتفرقة بين المنصرين ، فان دعاة
التورانية من العثمانيين في القرن العشرين كانوا يقولون بأن الأتراك والمغول جنس
واحد ينتمي إلى الأصل التوراني ، فيتنفون بمدأج جنكيز ولا ينكرون من أعماله
شيئا ، فما خبره ودمره هو عندهم دون ما يتخلف عن الحروب الحديثة بكثير :
«تعليقات الأمير شكيب أرسلان على كتاب حاضر العالم الإسلامي م ١ ص ١٥٩»

حتى انطوت قبائل المغول، والأتراك، في صحراء جوبي، تحت راية الخان الجديد لیتجه بها من بعد ذلك إلى الصين فيقضى على أسرة سى هاى، فى إقليم كانسو، وأسرة كين، فى الصين الشمالية ويدخل بكين، ثم يستدير من هناك لیبلیغ منغولیا، فمکان أرسلان خان، أمير القراق هناك أول حاکم مسلم یستسلم له .

وما غدا أن أقبل علیه فريق من زعماء الترك فى أواسط آسيا یخطبون وده، وفیهم نفر من القیچاق، حلفاء شاه خوارزم وأصحابه، ومعهم فريق من التجار المسلمين الذين عاونوا الخان المغولى، فیا بعد، على فتح كثير من البلاد الاسلامیة وتنظیم شئونها .

وحدث أن انتهب عامل شاه خوارزم على اترار بالتركستان قافلة قادمة من بلاد المغول وقتل رجالها، وكانوا جميعا من المسلمين، ظنا منه أنهم من عیون الخان المغولى، لتنتطلق الحرب بذلك فیجتاح المغول^(١) بلاد ما وراء النهر كلها وینخرنوا جرجان وبنجاری وسمرقند أعظم مدنها تخريباً تاماً ویفنون

١ - كانت قوات المغول تضم جنوداً كثيراً من الترك . بل إن كثيراً من الأتراك ومن أسرى المسلمين وأغلب من عاشر المغول واختلط بهم، كانوا یدعون نسبتهم للمغول جراً للمغانم .

حامياتها بعد أن استسلمت إليهم بخداهم ، ثم يسوقوا الأهلين أمامهم قسراً ليسكونوا لهم من سهام أعدائهم ذرءاً .

ولم يواف چنگيز خان أجله عام ١٢٢٧م حتى كان له . إلى جانب حوارزم وبلاد ما وراء النهر ، خراسان وأجزاء من بلاد فارس والهند ثم آذربيجان وأرض كبيرة في الجنوب الروسي ، لينطاق أبناؤه من بعده فيتوغلوا في كوريا والصين وإيران ، ويبلغ قوادهم القسارة الأوروبية فينفذوا فيها حتى البحر الأدرياتي وأبواب ثينياً ، ويفر من أمامهم ملوك بولنده والمجر ، وتقضى سهامهم على دوق روسيا ودوق سيانيزيا وفرسانه التوتونيين .

ولولا أن اضطروا للعودة إلى بلادهم على أثر ما بلغهم من موت أوكتاي بن چنگيز خان المغول الأعظم في قراقورم ، ونشوب الفتن بالصين ، لأوقعوا بأوروبا من الخراب نظير ما أحلوه ببلاد الشرق الاسلامي التي صادقتهم ، إذ قضاوا على قواتها العسكرية ودمروا أهم مراكز الثقافة بها . ولقد كادوا يأتون على تراث المسلمين الفكري كله . الذي قام على رعايته الخلفاء وزاد في كنوزه الصفوة من العلماء جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، لولا أن تصدى لهم المصريون عند عين جالوت بفلسطين فيما

بعد ، فأنزلوا بهم أول هزيمة قاصمة عرفوها ووردوهم على أعقابهم^(١) .
وإذ كان توجي خان . الإبن الأكبر لچنگيز ، قد مات في
حياة أبيه ، فقد خلفه ابنه باتوخان على البلاد التي كان يتولاها
عند سهول القبچاق والأقاليم الواقعة فيما بين بخارى آرال والخزر ،
وعند وادي الدون والبحر الأسود ، هذا في حين عقد لأوگتاي ،
أصغر أبناء چنگيز ، زعامة المغول في قراقورم .

أما چغتاي ، ثاني الأبناء ، فقد صار له بلاد ما وراء النهر
وخوارزم وخراسان والتركستان ومغولستان . وهي مناطق
يتباين سكانها في أجناسهم ، من ترك ومغول وپرس وعرب ،
كما تتباين طبيعتها كذلك ، ففيها صحراوات واسعة جرداء
وبجوارها مراعي وسهول فسيحة خصبة نشأت بها مدن كثيرة
وقامت بها حضارات .

وكان چغتاي يُعد في حياة أبيه أفدر فقيه في الياسا^(٢) . حتى منعه

١ — عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م — كان يقود المصريين سلطانهم المظفر
قطز . وعلق المؤرخ أبو الفدا على هذا الواقعة « م ٣ ص ٢٠٥ » فيقول « . . .
وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد
يئست من الصرة على التنازل لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم ما قصدوا
إقليماً إلا فتحوه ولا عكراً إلا هزموه » .

٢ — أصلها دزاساق . فذكرها الفرس والعرب « ياسا » ترخيما . وهي =

قومه من المشاركة في الحروب بعد وفاة خاتمهم الأعظم . وبوصفه أكبر أبناء جنكيز ، الذين بقوا على قيد الحياة وأقدرهم ، عهدوا إليه كذلك برأسه مجلس الأمراء المغولي لتثبيت أو كتمان أصغر أبناء جنكيز على مقام أبيه وزعامته في قراقورم .

واتخذ الأمير چغتاي من المائق في الوادي الأعلى لنهر إल्ली قسبة لما سكة دون بخارى أو سمرقند أعظم مدائن بلاده ، إذ كان حولها تنزل قبائله وعشائره التي كان يعتمد عليها في حروبه ؛ وكان رجالها بدورهم يفضلون حياة السهول والوديان الفسيحة على سكنى المدن ومخالطة أهلها الذين كانوا يرون فيهم وفي أهل الزراعة أجناسا منحلة وعبيدا للأرض .

وأطلق اسم هذا الأمير ، دون أبناء جنكيز جميعا ، على بلاده وعلى أهلها ، فعُرفت هذه المناطق جميعها باسم بلاد چغتاي ، وعُرف الأتراك فيها بخاصة ، وكانوا غالبية كبيرة بها ، باسم الأتراك الچغتائيين .

== دستور المغول الذى دونه له الايفور أصحاب ديوانه . وهى منقوشة من القوانين للموضوعة على إرادة جنكيز وأنقع العادات القبلية ؛ ومما تدعو إليه : الاعتقاد بالله واحد والطاعة التامة للغان الأعظم :

تاريخ جهان كشا لعلامك الجوينى ص ٧٧ وما بعدها .

وبرغم بقاء چغتاي على دين آبائه وكرهية قومه عموما للمسلمين ، فقد اتخذ منهم وزراء ومستشارين ، وبُنيت في عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ما وراء النهر وغيرها كذلك (١) .

ووافقت چغتاي وأخاه أوغتاي المنية عام ١٢٤١ م وابن أخيهما ، باتوخان ، يتوغل إذ ذاك في أوروبا مع نفر من أبنائهم ، لیتسع نطاق المذابح والفتن بين أمراء المغول من بعد ذلك ، ويظل أمرها متصلا حقبة من الزمن كانت بمثابة الهدنة للعالم الإسلامي وأوروبا ، حتى قبض على زمام الأمور هولاء كوبر بن تولى خان فعاود السير بقافلة التخریب المغولية من جديد . فعبّر بلاد ما وراء النهر إلى فارس حتى بلغ العراق ودمّر بغداد حاضرة الخلافة العباسية تدميراً ، وقتل الخليفة العباسي نفسه شر قتلة ، ولولا

١ — كانت المغول في الغالب على الشامانية والبوذية حتى اختلطوا بالترك وغيرهم من المذاهب في فتوحاتهم فأسلم فريق كبير منهم . وكان أول من أسلم من أمرائهم هو برکه خان حفيد باتو خان وزعيم القبيلة الذهبية وذلك في القرن السابع الهجري ، وتبعه أحمد تكودري الإيلخاني حفيد هولاء كوبر بن فارس ، حتى جاء غازات خان وأخوه ألباتو محمد خدابنده فانخذوا الإسلام ديناً رسمياً لدولتهما . أما الجفتائيون فلم يبدأوا إسلامهم الجماعي إلا في القرن الثامن الهجري .

توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام من ١٨٩٠ وما بعدها : بازبولد : تاريخ الحضارة الإسلامية . ص ٨٩ وما بعدها

صد المصريين له بأرض فلسطين ، كما هو معروف مشهور ، لقضى
على تراث المسلمين كله وخرّبت ديارهم جميعا في الغالب .
وبموت هولانكو بدأ نجم المغول في الأفول التام . وأتاحت
الإضطرابات ، التي غدت تعم أملاكهم ، الفرصة لكثير من
الأقاليم لتتسلخ عن سلطانهم .

وما لبث الأتراك ببلاد ما وراء النهر ، وكانوا غالبية
كبيرة ، أن استعادوا كثيراً من نفوذهم القديم حتى غدا تنصيب
أمرائهم من الچغتائين يجرى على هواهم .

ولم يعد الأمراء المغول ، من بيت چغتاي ، من النفوذ والسلطان
إلا في قشغر ویرقند و آلاطاغ ومغولستان ، وبقى خواندينهم
يحكمون هناك حتى اقتحم الأوزبگك أغلب منازلهم فيما بعد .

تيمور لنگك وخلفاؤه :

كان ظهور تيمور لنگك ببلاد ما وراء النهر في النصف الثاني
من القرن الثامن الهجرى بداية تحول جديد في تاريخ آسيا
الوسطى ، إذ انتقلت مقاليد الأمور هناك من أيدي المغول
الچنگيزيين إلى أيدي الأتراك الچغتائين ، حتى انتهى الحال بحفيد هذا
الخان التركي ، ظهير الدين محمد بابر . إلى بسط سلطانه على الهندستان .

وقد والى أبناؤه من بعده فتوحاتهم هناك، على ما بينناه، حتى أظلمت
رايتهم شبه القارة الهندية كلها.

ولقد وصل تيمور في شبابه بجده وذكائه وشجاعته إلى أن
استوزره الأمير الجغتائي إلياس بن تغلق تيمور صاحب سمرقند
إذ ذاك، فما عدا الوزير أن انقلب على أميره، حتى اتخذ، كانه على
عرش سمرقند عام ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م، بعد أن استولى على بلخ ونشر
سلطانه على القسم الغربي من بلاد چغتاي، وإن ترك لأمراء المغول
به بعض امتيازاتهم وحفظ عليهم مراسم الأمانة (١).

وتملكته شهوة الفتوح، فضم إلى مملكته مغولستان
وخوارزم، كما اقتحم حدود الهند فبلغ دهلي التي أستعصت على
المغول من قبل، فلم يرجع عنها حتى دمّرها وساق معه كثيراً
من أهلها أسارى، وفيهم خير أصحاب الحرف والمهن ليقيموا
له دسائره ببلادهم.

كذلك استولى على فارس ثم نفذ من العراق إلى بلاد الكرج
والشام، ولم يرجع عن آسيا الصغرى حتى أوقع في أسره بايزيد

١ - ما تذكره بعض المراجع من نسبة تيمور إلى المغول هو من وضع بعض
كتاب الاليفور الذين ذهبوا إلى حد جمع أسلاف جنكيز وتيمور عند جد معين، أرادوا
بذلك أن يصفوا على تيمور عراقية النسب تقرباً منه وتعلقاً.

سلطان العثمانيين (١). وإن هي إلاّ بضع سنين من بعد ذلك حتى كانت بنوده تحفّق فيما بين موسكو والكنج .

هذا ؛ وكان تيمور، على جهله بالقراءة والكتابة، حفيّاً وأولاده بأهل العلم وأصحاب الآداب والمعارف، حتى بلغت عاصمتهم سمرقند مركزاً فذاً بين مراكز الثقافة الإسلامية .

وما غدت هذه المدينة ، التي تأتق الخاقان التركي في تجمليها بمشآته الكثيرة الفخمة ، والتي شق إليها طرقاً برية جديدة تصلها بفارس والهند ، أن انقلبت إلى سوق للتجارة هامة ومركز من أهم مراكز الإتصال بين الصين وبلاد آسيا الوسطى وإيران وآسيا الصغرى ، تُعرض بها صنوف السلع وتُهج بمختلف الأجناس .

ومات تيمور عام ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م في إحدى حرابه مع جيوش الصين عند اترار ، فاقسم ملكه من بعده ولداه جلال الدين شاهرخ ومعين الدين ميرانشاه . حتى إذا ما قتل الأوزبك (٢) ثأني الأميرين التيموريين واستولوا على أجزاء من بلاده : طفق

١ - تذكر بعض الكتب الحديثة أن تيمور قد حمل غريمه في قفص ، وهو خطأ تاريخي نتج عن سوء فهم بعض الكتاب لدلول هذا اللفظ في التركية ، فهو يطلق أيضاً على الموادج والأكبات التي لها نوافذ تتغلها أسياج من حديد .

Hammer : Hist de l'Empire Ottoman T. 11 p 96-121

٢ - الأوزبك نسبة إلى أوزبك خان حفيد جنكيز من فرع توشي خان .

الأول يصطنع الحيلة معهم حتى أبعدهم عندهم عنه ، ليعيد أغلب بلاد أبيه إلى حظيره من جديد فيما عدا الشام وجنوب فارس (١). وخلف ألغ بگك أباه شاهرخ عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م ، فدخل في منازعات وحروب متواصلة مع أهل بيته من الأمراء ، ولم يقف الأمر عند ضياع الكثير من أراضيه حتى قضى عليه ابنه عبد اللطيف ميرزا بنفسه ليقتل هو بدوره بعد قليل .

ولئن خبت عند ألغ بگك ملكته الحربية فقد تلاً عنه نور المعرفة ، حتى هدته بصيرته إلى أن يقيم مدرسته الجامعتين في سمرقند وبخارى ، التي كتب على أبوابها ، طاب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة (٢) ،

وأدى اشتغال هذا الأمير بالعلم وشغفه به إلى أن وفد إليه كثير من علماء فارس وطلبته ، فكان يشاركهم في الدرس بنفسه ويدرس معهم حركات الكواكب في مرصده الكبير الذي أقامه بسمرقند . وقد نُظمت باسمه جداول للهيئة كانت آخر كلمة لها العلم في وقته .

١ - تاريخ عمومي لإيران لعباس إقبال ص ٢٣٢ - ٢٤١ .

٢ - ١ - تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٨ - ١٠٩ .

ب . - 3 . p 181 - Barthold-Donskies .

وبرغم اعتزاز هذا الأمير بتركته فقد كان شديد التعاق بكل ما يُرجى فيه رقيّ الإنسانية والفكر البشري عامة .
وجلس على عرش سمرقند من بعده الأمير التيمورى أبوسعيد ميرزا ، بعون من الأوزبگك ، ليقيم له من بعد ذلك ملكا واسعا ضم أجزاء من السند وخراسان وسيستان وامتدّ إلى العراق . حتى إذا ماهزم التركان فافتحم أذربيجان . لينحدر منها إلى العراق ، استطاع أوزون حسن زعيم التركان أن يتسلل إلى جبال أذربيجان فيقطع عنه الإمدادات ، لتنفشى المجاعة في الجيش من بعد ذلك وينفرط عقد الجند وينتهى الأمر بالسلطان أبى سعيد نفسه إلى الوقوع فى الأسر ، ثم القتل .

وترك أبوسعيد عشرة من الأولاد ، ولكن لم يخلفه فى ملكه الواسع ، الذى كان يمتد من العراق إلى السند ، سوى أربعة منهم . فولى أحمد ميرزا إقليم سمرقند وبخارى ، وولى ألغ بگك إقليم كابل وغزنه ، وولى محمود ميرزا استراباد وهرات ، ليغتصبها منه ابن عمه السلطان حسين بيقرا . فيستقر من بعد ذلك فى الصاغانيان وبدخشان (١) .

أما رابع هؤلاء الأربعة فهو عمر شيخ ميرزا الذى ولى إمارة

فرغانه ، فأدى به طموحه إلى أن يدخل مع جيرانه من المغول
أصهاره والأتراك إخوته ، في حروب متواصلة ابتغاء توسيع رقعة
ملكه ، ليضى عام ١٨٩٩ هـ ، على أثر سقوطه من أعلى حصن له ،
فيجمل عيه خصوماته من بعده ابنه الصبي ظهير الدين
محمد بابر الذى قبض له أن يقيم أعظم دولة عرفتها شبه القارة الهندية
في تاريخها .

البيته في بلاد ما وراء النهر .

في بلاد ما وراء النهر ورث ظهير الدين محمد بابر الملك عن
آبائه صيبا وقضى بها سنين غير قصيرة في كفاح متواصل قبل
أن يولى وجهه قبيل المشرق : لينتهى به المطاف والسعى من بعد
ذلك إلى إرساء أسس الدولة المغولية في الهند .

وعن طريق هذا الإقليم ، أعنى أرض سيحون وجيحون ،
نفذ الأتراك والمغول إلى بلاد العالم الإسلامى ليغيثوا وجه
التاريخ بها في الغالب .

توسط جبال أسفرا ، المتفرعة من السلسلة الآسيوية
العظمى ، هذا الإقليم فيقع إلى الجنوب منها وادى جيحون وإلى
الشمال منها وادى سيحون

وأهم أقاليم جيحون الجنوبية هي بدخشان وبلخ وخورزوم .
وتتعدد بلخ أقدم هذه الأقاليم الثلاثة وأعرقها ، وتُعرف
عاصمتها ، التي تحمل اسم الإقليم كذلك ، عند مؤرخي العرب
باسم « أم البلاد » ، وبظاهرها كان يقوم معبد النوبهار الذي
اضطلع آل برمك بالخدمة فيه (١) .

هذا ؛ كما تشتهر خوارزم بقيام أسرة حاكمة قوية
لعبت دوراً مهماً في تاريخ هذه المنطقة في القرنين السادس
والسابع الهجري ، وهي الأسرة الخوارزمية .

أما بدخشان فهي مفتاح الطريق إلى الهند .
والقسم الشمالي من وادي جيحون جبلي في الغالب تكسوفته
الثلوج شهوراً عدة في السنة . وبه أقاليم خُتْلان وحِصار ، الذي
يعرف أيضاً باسم چغانيان أو الصاغانيان . ثم ولاية كَش مسقط
رأس تيمور .

وإلى الشمال من كِش وإلى الشرق من صحراء خوارزم يقع
وادي الصغد المعروف بخصب أراضيه ووفرة مغانيه . وتقوم
به المدينتان المشهورتان سمرقند وبخارى .

وسمرقند هي التي اتخذ منها تيمور وأولاده حاضرة

لملكهم ، وبها عرف المسلمون صناعة الورق لأول مرة . أما بخارى فقد اتخذها السامانيون قاعدة لهم ، وبني بها مُسلم بن قُتيبة ، من قبل ، أول مسجد بالمنطقة كلها .

وتُعد المدينتان من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في القديم على كل حال .

والأقاليم التي تقع في حوض سيحون هي في أهميتها دون سابقتها بكثير .

وأهم هذه الأقاليم ولاية فرغانة التي تعرف أيضا باسم خُجند ، وإلى الشرق منها تقع قشغر ، كما تقع طشقند عند حدودها الشمالية الغربية ، في حين ينحصر إقليم أشروسنة بين فرغانة والصاغانيان .

هذا ؛ وكانت أرض التركستان تمتد إلى الشمال من فرغانة وطشقند فيما بين سيرام رافد سيحون وبحر آرال . وقد اتخذ منها الأوزبك ، أيام زعيمهم شيباني خان ، قاعدة لغاراتهم الكثيرة على جيرانهم .

وإذا ما نظرنا إلى وجه الأرض بإقليم بلاد ما وراء النهر ، وجدنا الخصب يتوفر في أغلب فرغانة وخوارزم وبلخ

وبدخشان وكش والصاغانيان (١). وفيما عدا ذلك فقد كان الجذب يغلب على أرضه .

لذلك كانت الحياة هناك في الغالب متنقلة من محطة حيث الجذب والصحراء ، مستقرة راقية حيث الخصب والتماء الذي يهد عادة لقيام المدن والدول .

وأول من سكن هذا الإقليم ، فيما يرجح كثير من المؤرخين ، عناصر تركية من السيث والتورانيين الذين كانوا مصدر تهديد دائم لبلاد فارس (٢) . وظلت موجاتهم لا تنحسر عن هذه البلاد منذ غارات الهون على أواسط آسيا في القرون السابقة للميلاد حتى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي

ولم يمنع وفود السيث والهون بلاد فارس من مدّ نفوذها في هذا الإقليم حتى اتخذ بعض ملوكها من مدينة بلخ قسبة لهم ، ونزح إليه كثير من الفرس فمارسوا الزراعة بوديانه الخسبة ، كما لاذ به جمهرة من سراتهم حين اقتحم العرب المسلمون بلادهم عليهم

١ — معجم البلدان لياقوت الحموي ص ٣٧٠ — ٣٧٢

٢ — مما يجتج به بعض الباحثين في ذلك هو شيوع لفظ « قند » في أسماء المدن هناك كسمرقند وأزقند وطشقند الخ ، وهو تركي قديم بمعنى مدينة .

Barthold. Turkestan pp 96,97.

في القرن الأول الهجري .

وما غدا العرب أن طووا أغلب هذه البلاد تحت رايتهم بعد قليل ، فإذا بفريق من أبناءها من فرس وترك يصيبوا بالدولة الإسلامية حظا وافرا فيبلغوا أرقى المناصب بها ^(١) .

ولم تكف العناصر الفارسية الإسلامية ، حين عظم نفوذهم في الدولة الإسلامية ، بإقامة دول لهم شبه مستقلة في أجزاء من هذا الإقليم ، حتى راحت تعمل لإحياء تراث الفرس القديم والنهضة بالآداب الفارسية من جديد .

وكان السامانيون ، الذين عمرت دولتهم في القرنين الثالث والرابع الهجري ، هم أصحاب اليد الطولى في هذا الميدان ، ليأتي سلاطين الترك ، من بعدهم ، من الغزنويين والسلاجقة وغيرهم ، فيسيرون على نهجهم في العناية بالثقافة الفارسية ويزيدون عليه ^(٢) ، فلم يمس إلا قليل حتى استردت الفارسية مناطق انتشارها القديم ببلاد ما وراء النهر ، لتسرب من بعد ذلك إلى مجتمعات الهندستان كذلك

١ - كانت بلغ من أكثر الأقاليم القديمة مساهمة في بناء الحضارة الإسلامية ، ومنها خرج البرامكة ، وزراء العباسيين ، وكثير من العلماء الكبار . تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٣ .

٢ - المصدر السابق ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٨٥ .

وتبلغ بذلك كله إلى أن تصبح بحق ثانياً لغات العالم الإسلامى - انتشاراً بعد العربية .

وكان مما ساعد على رواج هذه اللغة بين العناصر التركية ببلاد ما وراء النهر ، تصدى شيوخ الفرس فى الغاب لتلقين الترك تعاليم الدين الإسلامى ومبادئه ، فكانوا يلقونهم إياها بالعربية ويحبون إليهم آدابهم الفارسية معها .

وظغى نفوذ الترك على سلطان الفرس بأغاب بلاد ما وراء النهر: حتى كان الأولون هم أصحاب السيادة الفعلية هناك قبيل مجىء المغول فى الغالب .

واستقر قسم من القبائل المغولية الوافدة مع چنكيز خان ببلاد ما وراء النهر جنباً إلى جنب مع القبائل التركية التى كانت - خصوصاً فى الشمال وأكثر الوسط - تمثل الغالبية الفعلية للسكان .

وكان من الطبيعى أن تتأثر القلة المغولية الحاكمة ، لبدائتها ، بالكثرة التركية المحكومة ، التى كانت تعيش فى محيط الحضارة والمدنية الإسلامية وتتجاوب معها ^(١) ، فأخذت عنها لغتها وامتزجت بها ، ليزداد بذلك نفوذ الترك ويعظم شأنهم ويُدعَّعهم كياناتهم السياسى .

وبهذا كان قيام دولة المغول أكثر أهمية في نظر الترك ، ما هو في نظر المغول أنفسهم ؛ فلم يقف الأمر عند حد تفوق الترك الثقافي حتى انتهى بهم المطاف إلى استيلائهم على مقاليد الحكم في هذه البلاد وإخضاع غزاتهم لسلطانهم .

وساعد على انتشار اللغة التركية بين القبائل المختلفة التي كانت تسكن بلاد چغتای ، خضوعها جميعا للحكومة واحدة . وتمسرب إلى هذه اللغة قدر غير قليل من الألفاظ والمصطلحات العربية والفارسية ودرجت في مدارج الرقي ، حتى إذا ما جاء القرن السابع الهجري رأينا التركية الجغتائية تحتل المكان الثالث ، بعد العربية والفارسية ، بأواسط آسيا . وما تزال هذه اللغة تُسمع إلى اليوم في المدن التي تقع في نطاق چغتای القديمة .

هذا ؛ وتعد أيام الأمراء التيموريين ببلاد ماوراء النهر بمثابة العصر الذهبي للأدب الجغتائي الذي تتمثل أحسن نماذجه في أشعار علي شيرنوائى ومنشورات ظهير الدين بابر حتى اتسعت الكتابة التقليدية الأدبية للترك جميعا (١) .

كانت الحياة بهذه البلاد تميل في الغالب إلى الاستقرار وتنعم
بمظاهر الحضارة والمدنية ما خضع الاقليم كله لحاكم واحد قوى
يُقرُّ الأمور فيه ويدفع أخطار الغزو عن حدوده .

على أن تيمورلنك . آخر أصحاب هذا الإقليم الكبار ، لم
يكذب يمشى حتى غدت الفتن والاضطرابات تعم هذه الأرض
كلها ، لينتهى بها الأمر إلى تمزيقها إلى ولايات عديدة ، أصحابها
متقاتلون متعادون على الدوام ، برغم ما كان يربط بينهم من وشائج
القربى وروابط الدم ، ومن حولهم الأوزبك والمغول والتركان
يتربصون بهم الدوائر ولا ينفكون عن مهاجمتهم وتخطف
أراضيهم .

ونتيجة عن تمزيق الإقليم إلى ولايات عدة وما يستتبع ذلك عادة من
ضآلة عدد السكان بالتالي ، أن غدت قوات كل أمير لا تعدو أن
تكون مجموعات من العصابات الإقطاعية التي تعتمد في انتصاراتها
على عنصرى المفاجأة وسرعة الحركة ، فتوقع بعدها قبل أن يتمتع
في حصونه .

وغالباً ما كانت الهدنة تُعقد بين الخصمين بنفس السرعة التي
اشتعلت بها نيران الحرب .

وفنون الحرب بهذه البلاد كان معظمها بدائياً يقوم على

المبارزة بالسيوف والترشق بالسهم ، وتسلق الأسوار بسلام ،
الرجال .

ولم يكن البارود والنغامه غرباء عليهم . فقد كانوا يستخدمونه
أيام السلم في مناجم الياقوت ومواطن العقيق بيدخشان .
وبرغم استخدام بعض الأمراء لعدد قليل من بنادق العصر
ذات الزناد وبعض المدافع ، التي عرفوها عن طريق الفرس نقلًا
عن العثمانيين في الغالب ، فقد بقيت السيوف والسهم وهجمات
الفرسان هي الفيصل في المعارك .

هذا ، ولم يغفل أحد من هؤلاء الأمراء ، حين كان يتاح له تجهيز
جيش كبير ، عن إحياء تشكيلات تيمور الخربية وتقاليد العسكرة
في تقسيم الجيش إلى قلب وجناحين وإقامة فرق للمناوشة بأقصى
الجناحين .

أما التشريع الغالب عند هؤلاء الأمراء جميعا فكان الفقه
الإسلامي ، دون إغفال أمر العرف القبلي المتوارث وتقاليد
الياسا المغولية .

وبرغم ما كان من اشتغال الأمراء التيموريين بنزاعهم
والتحاماتهم المتواصلة في الحروب ، فما يسترعى الانتباه أنهم لم

يتخلووا أبدأ عن العناية بالآداب والعلوم والفنون والاشتغال بها ، فحرصوا دوما على الظهور بمظهر رعاة الثقافة والمدنية . وكان من أبرزهم في هذا الميدان وأعلام كعبا ، بعد أنغ بكك ، السلطان حسين يبقرا الذى جمع ببلاطه فى خراسان أساطين الفنون وشيوخ العلم والمعرفة فى عصره ، وبهذا الأمبر خُتِمت صفحة كبار التيموريين ببلا دما وراء النهر بعد ما كان من إرغام الأوزبىكك لبا بر على الخروج من هذه الديار .

مكتبة البحث

مراجع فارسية :

- ١ -- إقبالنامه جهانگیری : لمعتمد خان . کلسکتا ١٨٦٥ م
- ٢ -- أكبر نامه ، أو تاريخ أكبر شاه باتفصيل احوال پدرش همايون ، لأبي الفضل بن المبارك - مخطوط بدارالکتب المصرية برقم ٨ م تاريخ فارسی .
- ٣ -- انتخابات جهانگیری - غير معروف مؤلفه .
(مجموعة إلیوت ٦)
- ٤ -- آیین اکبری لأبي الفضل بن المبارك .
مخطوط بدارالکتب المصرية برقم ٥٠ تاريخ فارسی
- ٥ -- بارنامه (بالترکیة الجغتائية) - نشر السيدة
: ت بفریدج .
لیدن ١٩٠٥
الترجمة الفارسية لعبد الرحيم خان خانان - نشرها
محمد شیرازی .
بمبای ١٣٠٨ هـ

- ۶ -- یادشاهنامه - لعبد الحمید لاهوری . (مجموعة الیوت ۷)
۷ -- تاریخ احمدشاهی ، غیر معروف مؤلفه (مجموعة الیوت ۸)
۸ -- تاریخ آئی ، لاحمد داود . (مجموعة الیوت ۵)
۹ -- تاریخ جهانگشای ، لعلاء الدین عطا ملک الجوینی

۳۰ م - لیڈن ۱۹۱۱ ، ۱۹۱۶ ، ۱۹۳۷ .

- ۱۰ -- تاریخ حبیب السیر فی أخبار أفراد البشر .
تألیف غیہ - اٹ الدین بن ہمام الدین الحسینی

المعروف بخواندمیر ۴ م . (طهران ۱۳۷۳ هـ)

۱۱ -- تاریخ رشیدی ، لمیرزا محمد حیدر دوغلات .

الترجمة الإنجلیزیة لسیر دنیسون روس مع

تعایقات له . لندن ۱۸۹۸ م

۱۲ -- تاریخ سلاطین أفغانی لاحمد یاد گر . (مجموعة الیوت ۵)

۱۳ -- تاریخ شیر شاه لعباس خان سروانی (د د ۴)

۱۴ -- تاریخ عالمگیر ثانی ، غیر معروف مؤلفه .

(د د ۸)

۱۵ -- تاریخ عمومی ایران لعباس إقبال . طهران

۱۶ -- تاریخ فرشته لمحمد قاسم هندوشاه ، جزءان فی مجلد .

لکنو ۱۳۲۳ هـ

- ۱۷ — تاریخ گجرات لشاہ اُبی تراب ولی . کلکتا ۱۰۹۹ م
۱۸ — تاریخ مظفری ، محمد علی خان . (مجموعۃ البوت ۸)
۱۹ — تاریخ ہندی ، لرستم علی . ()
۲۰ — تنمۃ واقعات ، جہانگیری محمد ہادی . ()
۲۱ — تذکرۃ آندرام مخاص . ()
۲۲ — تذکرۃ الواقعات اُوہما یو تنامہ : لجوہر ()
۲۳ — تکملۃ اُکبر نامہ ، لعنایۃ اللہ . ()
۲۴ — ریاضُ السلاطین : اُو تاریخ بنغالۃ .
تألیف غلام حسین سلیم . کلکتا ۱۸۹۰ ، ۱۸۹۸ .
۲۵ — سیرُ المناخرین لغلام حسین خان . (مجموعۃ البوت ۸)
۲۶ — شاہجہا تنامہ . لعنایۃ اللہ . ()
۲۷ - طبقات اُکبری ، لنظام الدین أحمد بخشی .
()
۲۸ ظہر نامہ ، لنظام الدین شامی . بیروت ۱۹۲۷ م
۲۹ — عالمگیری نامہ ، لمنشی محمد کاظم بن محمد امین .
کلکتا ۱۶۶۸ م
۳۰ — عبر تنامہ . لمحمد قاسم . (مجموعۃ البوت ۷)

- ۳۱ -- عمل صالح : محمد صالح لاهوری . کلکتا ۱۹۱۲ م
۳۲ -- فرحة الناظرین : محمد إسلام . (مجموعة اليوت ۸)
۳۳ -- مآثر الامراء لشاه نواز خان - ۴ م . کلکتا ۱۸۸۰ - ۱۸۹۶ م
۳۴ -- مآثر عالمگیری محمد ساقی مستعد خان کلکتا ۱۸۷۱ م
۳۵ -- مرآة سکندری لاسکندر بن محمد .

(مخطوط بدار الکتب المصرية برقم ۵۲ تاریخ فارسی)

۳۶ -- منتخب التواریخ ، لعبد القادر بن ملوک شاه بداونی - ۳ م

کلکتا ۱۸۶۸ م

۳۷ -- منتخب اللباب الخافی خان (مجموعة اليوت ۷)

۳۸ -- واقعات جهانگیری ، سیرة جهانگیر (۶)

۳۹ -- وقایعی (حالات) لاسعد قزوینی (۶)

مراجع عربیة : (مساعدة)

۱ -- اختلال التوازن العالمی ، لغوستاف لوبون ،

ترجمة صلاح الدين وصفي . القاهرة ۱۹۲۸ م

۲ -- تاریخ الحضارة الإسلامية ، لبارتولد ، ترجمة

حمزة طاهر . القاهرة ۱۹۳۳ م

۳ -- تاریخ الکامل ، لابن الأثیر - ۱۲ ج . القاهرة ۱۳۰۲ هـ

- ٤ -- چنگيز خان . لهارولد لامب ، ترجمة بهاء الدين نوري .
بغداد ١٩٤٦ هـ
- ٥ -- حاضر العالم الإسلامى ، تأليف لوترب ، تعريب مجاج نويهض . (انظر تعليقات الأمير شكيب أرسلان عليه) ٤ م
القاهرة ١٣٥٢ هـ
- ٦ -- حضارات الهند : لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعير
القاهرة ١٩٤٨ هـ
- ٧ -- الدعوة إلى الإسلام ، لتوماس أرنولد ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين
القاهرة ١٩٤٧ هـ
- ٨ -- ذكر ماللهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة ، لأبى الريحان البيرونى (نشر زاخاو)
لندن ١٨٨٧ م
- ٩ -- فتوح البلدان ، للبلاذرى
ليدن ١٨٦٦ م
- ١٠ -- المختصر فى أخبار البشر ، لأبى الفداء
القاهرة ١٣٥٢ هـ
- ١١ -- معجم البلدان ، لياقوت الحموى ٨ م
القاهرة ١٩٠٦ م
- ١٢ -- الهند وجيرانها ، لول ديورانت ، ترجمة زكى نجيب محمود
القاهرة ١٩٥٠ هـ

مراجع أوروبية :

- 1 — Ameer Ali. The Spirit of Islam. London 1923
- 2 — Barthold W. Histoire des Turs d'Asie
Centrale. Adapt. Fr. par Mme Donskies.
Paris 1945
- 3 — Barthold. Turkestan London 1928
- 4 — Binyon. Laurence. The Court Painters of
the Grand Moghul. Oxford 1921
- 5 — Cambridge History of India. 5 Vols.
Cambr. 1922 - 29
- 6 — Czapluka. M. A. The Turks of Central
Asia. Oxford 1918
- 7 — Degwignes, J. Histoire générale des Huns,
des Turcs, des Mongols etc ... 5 Vols. Paris 1756-58.
- 8 — D'Ohsson, Baron C. Histoire des Mongols.
Amsterdam 1852.
- 9 — Duff, Grant. Hist of the Mahrattas. 2 Vols. 1921.
- 10 — Dunbar, G. A. History of India from the
Earliest Times to the Present Day. London 1936

- 11 — Elliot H M. & Dowson, John. The
History of India as told by its own
Historians. The Mohamadan Period. 5 Vols
London 1867-77
- 12 — Cunningham J. D. Hist. of the Sikhs. 1916
- 13 — The English History Review ;1898.
- 14 — Gait, Edward. Hist of Assam Calcutta 1923
- 15 — Garratt. G. T. The Legacy of India Oxford 1938
- 16 — Garret Ed. Mughal Rule in India 1930
- 17 — Grenard Fer. Baber Paris 1930
- 18 — Grousset, R. L'Empire Mongol. « 1941
- 19 — Grousset, R. Hist. de l'Extrême Orient.
2 Vols. Paris 1929
- 20 — Hammer, J. D. Histoire de l'Empire
Ottoman. 18 Vols. Paris 1830
- 21 — Havell, E. B. The History of Aryan
Rule in India. London
- 22 — Howorth, H. History of the Mongols.
3 Vols. London 1846
- 23 — The Indian Moslems by an Indian.
Mohamedan. London 1928

- 24 — Ishwari Prasad. A short History of Muslim
Rule in India . Allahabad 1933
- 25 — Islamic Culture Review (1928)
- 26 — Lane-Poole, St. Medieval India under
Mohammedan Rule. London 1917
- 27 — Moreland, W. H. & Chatterjee . A short
History of India. London 1936
- 28 — Sarkar. Hist. of Aurengzib. 2 Vols Calcutta 1912-24
- 29 — Sarkar. , Shivaji and his times. Calcutta 1919.
- 30 — Smith, V. A. Hist. of Fine arts in India
and Ceylon. Oxford 1930
- 31 — Sir J. Iqbal Ali Shah. Afghanistan. London 1928
- 32 — Spear, P. Twilight of the Mughuls. Cambridge 1911
- 33 — Vambery, A. A History of Bokhara London. 1873.

دہر س أبجدی عام

إبراهيم شاه سور ۹۱، ۹۶، ۹۸،

۱۰۲

إبراهيم اللودمي ۱۴، ۱۵، ۲۲،

۲۶، ۳۰، ۹۰، ۲۷۰

أبو الحسن قطب شامی ۲۳۸، ۲۳۹

أبو الفضل بن الميارك ۱۲۶، ۱۲۸

۱۵۶، ۱۵۷، ۱۶۰، ۱۶۴

۱۶۷، ۳۰۸، ۳۱۰، ۳۲۰

أبو الفيض فيضی (اظفر : فيضی)

أبو القاسم بن كامران ۱۰۴

أبو بكر قشغری ۳

أبو سعيد ميرزا ۱۵، ۳۵۴

أترار ۳۴۴، ۳۵۱

أنسز شاه خوارزم ۳۳۶

أتیلا ۳۳۴

أجین ۲۰۴

الاحتلال البريطاني ۲۷۸ — ۳۰۲

أحمد آباد ۷۷، ۱۱۴، ۱۱۷،

۱۱۸، ۱۴۶، ۱۵۵، ۳۱۱

أحمد أبدالی الدرانی ۲۶۷ — ۲۷۱

۲۷۴، ۲۸۸

آتوك ۲۲۰

آجیر ۱۴۶، ۲۲۸

آدينه بکخان ۲۶۹

آذریجان ۳۴۵، ۳۵۴

آزال ۳۴۱، ۳۵۷

آسام ۲۱۷، ۲۸۳

آسوك (آزوكا) ۹۵

آصاف خان ۱۰۹، ۱۷۳، ۱۸۵

۱۸۷، ۱۸۶

آكرا ۱۶، ۲۰، ۲۳، ۲۴،

۲۹، ۳۶، ۵۵، ۵۶،

۵۸، ۸۱، ۹۱، ۹۸،

۱۰۵، ۱۱۴، ۱۴۶، ۲۰۵

۳۱۱، ۳۱۲، ۳۱۳

آل تعلق ۱۲۲

الاطاغ ۳۴۹

آلتا ۲۳۹

آمبر ۲۲۶

آين أکبری ۱۵۷، ۳۴۱

۸۸، ۵۲، ۵۰
اسماعیل الصفوی الثاني ۱۷۷
أسیرکاه ۱۷۱
أشروسه ۳۵۷
أعظم بن أورنکزیب ۲۲۷، ۲۳۷
۲۵۴، ۲۵۳، ۲۴۳
أفرا سیاب ۲۲۷
الأفریدی ۷، ۱۷، ۲۱۹، ۲۸۶
الأفغان ۲۱۹، ۲۸۴، ۲۸۶
۲۹۳
إقبال (انظر : محمد إقبال)
أکثاته ۲۳۰
أكبر (جلال الدین) ۶۶، ۸۷
۹۲، ۹۴ — ۱۶۳، ۱۷۱
۱۷۲، ۱۸۸، ۲۱۹، ۲۲۸
۲۷، ۳۰۵، ۳۰۶، ۳۱۰
۳۱۲، ۳۱۹، ۳۲۱
اکبر بن اورنکزیب ۲۲۶، ۲۴۷
۲۲۹
أكبر شاه الثاني ۲۹۰، ۲۹۱
أكبر نامه ۱۵۷، ۳۲۰
التای ۳۲۳
السید أحمد خان ۲۹۸، ۲۹۹
۳۲۵، ۳۰۰
السید أمير علی ۳، ۱، ۳۰۰

أحمد أصفهانی ۱۱
أحمد تگوردی ۳۸
أحمد خان ۵
أحمد شاه ۲۶۷ — ۲۶۸
أحمد میرزا ۳، ۳۵۵
أحمد نکیر ۷۶، ۹۷، ۱۲۵
۱۲۶، ۱۴۶، ۱۷۰، ۱۹۵
۲۳۱، ۳۱۴
أخشی ۳۲۲
أدا بیور ۱۵، ۳۰، ۳۲۶، ۲۵۵
إدوارد منک الانلیز ۳۳۸
أدهم خان ۱۰۵، ۱۰۶
أراکان ۲۱۸
أرجند باتو بیکم (انظر : ممتاز محل)
أرسلان خان ۳۴۴
أرفون ۱۶۸، ۱۶۹، ۲۴۳
۲۲۴
أزفند ۳۳۵
أسبانيا ۱۰۰
أستاذ مصور ۳۱۶
أستراباد ۳۵۵
أسفرا ۳۵۵
اسکندر المقدونی ۴۸
اسلامبور ۲۱۶
اسماعیل الصفوی ۹، ۱۰، ۱۲

۳۱۸ ، ۳۱۶ ، ۳۱۴ ، ۳۰۶

۳۲۲

أوربیه ۱۰۲ ، ۱۲۰ ، ۱۲۴ ،

۱۷۴ ، ۲۶۱ ، ۲۷۴

الأوزبیک ۴ ، ۶ ، ۱۱ ، ۱۲ ،

۱۵ ، ۲۰ ، ۴۹ ، ۵۲ ، ۸۸ ،

۱۰۹ ، ۱۱۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴ ،

۱۹۷ ، ۳۴۹ ، ۳۵۴ ، ۳۶۴

أوزون حسن ۳۵۴

أوکلاند ۲۸۵

أوکتای ۳۴۵ ، ۳۴۶ ، ۳۴۸ ،

الأوفور ۳۳۳ ، ۳۳۵ ، ۳۳۶ ،

۳۷۷

ایران ۳۳۳ ، ۳۴۵ ، ۳۵۱ ،

إيطاليا ۵۹ ، ۱۳۴ ، ۳۰۷

ب

بایر ۱ — ۷۱ ، ۷۳ ، ۸۱ ،

۸۸ ، ۱۰۰ ، ۱۰۲ ، ۱۵۴ ،

۱۶۳ ، ۲۷۰ ، ۳۰۲ ، ۳۰۴ ،

۳۱۱ ، ۳۱۷ ، ۳۲۰ ، ۳۲۸ ،

۳۴۹ ، ۳۵۵ ، ۳۶۵ ،

بایر نامه ۶۵ — ۷۱ ، ۳۲۲

باتوخان ۳۴۶ ، ۳۴۸ ،

الجاتو خدا بنده ۳۴۸

أنغ بك بن أبي سعيد ۳۵۰ ،

أنغ بك بن شاهرخ ۴ ، ۳۵۳ ،

۳۶۴

الله آباد ۴۷ ، ۱۲۶ ، ۱۴۶ ،

۱۷۴ ، ۲۶۸ ، ۲۷۳ ، ۲۷۴

الإيافة ۱۳۲

إياس بن تغلق نيمور ۲۵۰

أمر تسهر ۲۲۴

أمر سنغ ۱۷۰ ، ۲۵۴ ،

أمر خزوي ۳۲۲

أنجلترا ۱۳۴ ، ۱۸۲ ،

أندلس ۱۹۳

أنون ۳۴۲

أنيتا بفرديج ۶۵

أودای سنغ ۱۱۱ ، ۱۱۲ ، ۱۳۶ ،

أوده ۱۴۶ ، ۱۷۴ ، ۲۶۸ ،

۲۷۴ ، ۲۷۱

أورخون ۳۳۳ ، ۳۳۷ ،

الأوردوية ۱۲۷ ، ۳۰۰ ، ۳۲۳ ،

۳۲۵

أورنكزيب عالمكير ۱۷۴ ، ۱۸۵ ،

۱۹۶ ، ۱۹۹ ، ۲۰۱ ، ۲۰۲ ،

۲۰۳ ، ۲۰۴ ، ۲۰۵ ، ۲۰۶ ،

۲۱۲ — ۲۴۹ ، ۲۵۶ ،

۳۱۶ ، ۲۷۹ ، ۲۷۸ ، ۲۱۹
برسنخ دیو ۳۸ ، ۱۶۷ ، ۱۷۴
بروج ۱۱۶ ، ۱۸۳
بروز بن شاهجهان ۱۷۵
برهانپور ۲۷۳
برها سماج ۲۹۱ ، ۳۲۶
بریدون ۲۸۵
بریطانیا ۲۹
البریطانیون ۲۶ ، ۱۵۱ ، ۱۸۱ -
۱۸۴ ، ۲۱۹ ، ۲۴۸ ، ۲۷۰
۲۷۲ ، ۲۷۳ ، ۲۷۵ ، ۲۸۶
۲۸۷ ، ۲۹۰
بساوت ۳۱۶
بین ۲۸۳
بشاوڑ ۱۶ ، ۱۷ ، ۲۲۰ ، ۳۰۱
البطمان ۷ ، ۱۲۴ ، ۲۱۹ ، ۲۳۱
بغداد ۳۴۸
بکرماجیت ۱۹ ، ۲۶ ، ۲۷ ، ۹۱
بکسر ۲۷۴ ، ۲۸۰ ، ۲۸۸ ، ۲۸۹
بلاچی راو ۲۷۰
بلاد ماوراء النہر ۵ ، ۱۰ ، ۲۴
۵۲ ، ۵۴ ، ۹۶ ، ۱۹۷ ،
۳۱۱ ، ۳۳۰ ، ۳۳۴ ، ۳۳۶
۳۴۴ ، ۳۵۵
باند دروازہ ۱۱۵ ، ۳۱۲
بلغ ۱۹۶ ، ۱۹۷ ، ۱۹۹ ، ۳۳۶
۳۵۶ ، ۳۵۸ ، ۳۵۹

باجی راو ۲۶۳ ، ۳۴۸
بارمل عدری ۳۸
بارندہ ۲۰۲
بارودا ۱۱۷ ، ۱۱۸
بازبہادر ۱۰۵ ، ۱۱۱
بایریدانعمانی ۳۵۰
بایسنقر میرزا ۳
بتافیا ۱۸۱
بجور ۱۶
البحر الأبيض المتوسط ۳۲۹
البحر الاحمر ۹۸
بجھ الخزر ۲۶۴
بجھ العرب ۹۷
بخاری ۴ ، ۱۱ ، ۱۲ ، ۳۰۹ ،
۳۳۴ ، ۳۴۴ ، ۳۵۴ ، ۳۵۶
بداونی ۱۳۲ ، ۱۳۸ ، ۱۵۶ ،
۱۵۷ ، ۳۲۰
بدخشان ۳ ، ۱۷ ، ۴۹ ، ۵۲ ،
۷۴ ، ۱۱۰ ، ۱۹۶ ، ۳۵۶
۳۵۸
بدخشی متعم شاہ ۲۵۳
برار ۹۷ ، ۳۱۴
البرامکۃ ۳۵۶ ، ۳۵۹
البرتالیون ۷۶ ، ۷۷ ، ۷۸ ، ۹۷
۱۱۷ ، ۱۱۸ ، ۱۱۹ ، ۱۳۴
۱۵۴ ، ۱۸۱ ، ۱۸۲ ، ۱۸۴
۱۹۰ - ۱۹۴ ، ۲۱۸ ،

بہارملی ۱۰۸ ، ۱۱۴
بہاگتی ۲۳۰ ، ۳۲۶
بہجناد جینا ۳۲۲
بہرام الصفوی ۸۸
بہزاد ۳۱۵
البہاشا ۳۲۴
بہسکوان داس ۱۱۲ ، ۱۱۳ ،
۱۲۳ ، ۱۳۰ ، ۱۴۱
بہلول لودھی ۱۳
بہمنی ۲۵
بہونسیلا ۲۸۳
بہوباک ۲۶۳
بہرہ ۱۶ ، ۱۷
بہیلہ ۳۰
بیانہ ۳۰ ، ۹۲ ، ۹۸ ، ۳۱۲
البت الحرام ۹۸
بیجاپور ۹۷ ، ۱۲۶ ، ۱۷۴ ،
۱۹۵ ، ۲۰۲ ، ۲۲۹ ، ۲۳۱
۲۳۲ ، ۲۳۶ ، ۲۳۷ ، ۲۳۸
۲۳۹ ، ۳۱۴
بیدز ۹۷ ، ۳۱۵
بیرم خان الترمکائی ۸۷ ، ۹۲ ، ۹۴ ،
۱۰۲ ، ۱۰۵ ، ۱۰۵ ، ۱۴۴
بیرمل ۱۲۳ ، ۱۳۰
بیرنر ۲۸۴
البیرونی (ابو الریحان) ۳۲۶
بیرنطہ ۳۳۳ ، ۳۴۰

لکنا ۳۳۳
لیونہ ۲۸۷
نیکسین الثانی ۲۳۰
نہای ۳۱
نارس ۴۷ ، ۱۱۹ ، ۲۱۶
نسا (شورو) ۲۵۸
نہنگ ۴۷ ، ۵۸ ، ۷۳ ، ۷۸ ،
۸۳ ، ۹۸ ، ۹۹ ، ۱۱۹ ،
۱۲۰ ، ۱۴۶ ، ۱۶۹ ، ۱۷۴ ،
۱۹۳ ، ۲۰۴ ، ۲۱۷ ، ۲۵۳ ،
۲۶۷ ، ۲۷۰ ، ۲۸۰ ، ۲۹۲
۳۰۱
ند خانہ ۱۱۵ ، ۱۹۰
نورما ۲۹۳
یونندہ ۳۴۵
یونا ۲۳۱ ، ۲۳۲ ، ۲۳۳ ، ۲۶۲ ،
۲۸۳
یوندی ۹۷
بہادر خان کجراتی ۷۶ ، ۷۷
بہادرشاہ بن اوردنکزیب ۲۲۵ ،
۲۵۲ — ۲۵۶
بہادرشاہ الثانی ۲۹۱ — ۲۹۵ ،
۲۹۶
بہار ۴۷ ، ۳۶ ، ۴۷ ، ۷۳ ، ۷۸ ،
۱۱۹ ، ۱۴۶ ، ۱۷۵ ، ۲۶۱ ،
۲۷۰ ، ۲۷۵ ، ۲۸۸

جبالير ٩٧
جمهر خان ٢٧٢ ، ٢٧٣
جكال ٢٢٢
جلال آباد ٢٧١ ، ٢٨٥ .
٢٨٦
جلال الدين حيدر شجاع الملك
٢٧١
جند خان ٧٦
جوا ٩٧
جواهر سنغ ٢٧٥
جون ريبك ٣٤٣
جونبور ٩٤ ، ٢٩ ، ٣٦ .
١٠٩ ، ١٠٦ ، ٩٨ ، ٧٩
٢٩٢ ، ١٢ .
جوهر صاحب تذكرة الواقعات
٣٢٠
جيات آزا ١٩٦ ، ٢٠٦ .
٢٠٨
جياندار ٢٥٦ ، ٢٥٧
جيا نشاه ٢٥٦
جياسكير ١١٤ ، ١٢٢ ، ١٢٦ .
١٦٠ ، ١٦٤ - ١٨٤ ، ١٨٦
١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١٩
٣٢٢ ، ٣١٦
جهلم ٢٠
جيحون ١٠ ، ٤٨ ، ٣٣٠ ، ٣٢٣
٣٥٥ ، ٣٥٦

تهور خان ٢٢٦
تيان شان ٣٢٣
تيو ٢٨١ ، ٢٨٢
تيموجين ٣٤٢
تيمور لنگ ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٥١ .
٥٧ ، ٦٨ ، ١٢٣ ، ٣٠٣ .
٣٢٨ ، ٣٣٨ ، ٣٤٩ ،
٣٥٦

ث

الثورة الوطنية ٢٩٢ ، ٢٩٧

ج

الجات ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٥٢ .
جالندر ١٠١
جامرود ٢٢٠
جامو ٢٤٥
جاوه ١٢١
جاي مل ١١١
جايبور ١٠٨ ، ١١٤ ، ٢٥٥
ججهار سنغ ١٩٠
جداسبور ٢٥٨
جدهبور ٧٨ ، ٩٧ ، ٢٥٤ .
٢٥٥
جرانت صاحب ١٦٨
جرجان ٣٤٠
جزر الهند الشرقية ١٨١

حسین یقرا ۵ ، ۶ ، ۶۸ ، ۳۶۴
حسین علی خان ۲۵۹
حصار (الصانان) ۶ ، ۱۱ ،
۳۵۶ ، ۵۲
حصن الودھین ۵۸
حکیم خان (أظفر : میرزا حکیم)
حککات ۳۰۶
حمید خان ۷۱
حمیدہ بانو ۸۷ ، ۱۰۳
حیدرآباد ۲۳۹ ، ۲۵۳ ، ۲۵۹ ،
۲۸۱ ، ۲۷۹ ، ۲۶۱
حیدر علی ۲۸۰

خ

خاقی خان ۳۲۲
خان جهان ۱۲۰
خان جهان لودھی ۱۹۰
خاندش ۹۷ ، ۱۲۶ ، ۱۰۶
خاززادہ بیکیم ۱۰
خازرمان ۱۰۲
خانودہ ۳۰ ، ۳۵ ، ۴۴ ،
۴۸
الخلل ۳ ، ۳۵۶
ختن (خطان) ۵۳ ، ۳۲۶
خچند ۳۵۷
خدا بخش ۳۰۰

جینآب ۱۶
جینوت ۱۶

ج

جاز باغ ۵۸ ، ۳۱۷
جنور ۵۶ ، ۷۷ ، ۱۱۱ ، ۱۱۳ ،
۲۲۵ ، ۱۳۰
جفتای ۸۰ ، ۲ ، ۳۴۶ ، ۳۴۷ ،
۳۵۰ ، ۳۴۸
جنگیر ۸۹
جیبیر ۷۷
جنار ۴۷ ، ۱۰۶ ، ۲۷۴
جندری ۳۰ ، ۴۸ ، ۱۱۷ ،
جنگیز خان ۲ ، ۱۲۲ ، ۳۲۸ ،
۳۳۰ ، ۳۳۱ ، ۳۳۸ ،
۳۴۱ ، ۳۴۲ ، ۳۴۳ ،
۳۴۵
جنگیز نامہ ۳۱۶
جوسا ۸۰

ح

حبیب السیر ۶۹
الحجاز ۸۹ ، ۹۸
حسن خان مواتی ۳۱ ، ۳۸ ، ۴۳

الذاتوب ۳۳۴
 دانیل بن اَکبیر ۱۲۶ ، ۱۶۰ ،
 ۱۸۵
 دواد بن سلیمان ۱۱۹
 داور بخش ۱۸۵ ، ۱۸۶
 درغا داس ۲۲۶
 دستور اَمل ۱۶۵
 دسوت ۳۱۶
 دکا ۱۲۸ ، ۳۱۱
 الدکن ۹۶ ، ۹۷ ، ۱۲۵
 ۱۷۰ ، ۱۷۱ ، ۱۷۴ ، ۱۸۷
 ۱۸۹ ، ۱۹۴ ، ۱۹۹ ، ۲۱۷
 ۲۲۹ ، ۲۷۹
 دلرچنک عبد الصمد ۲۵۸
 دلکشا ۱۸۶
 الدواب ۳۴ ، ۳۵ ، ۱۲۶ ، ۲۶۷
 ۲۷۷
 دوبلیکس ۲۷۹ ، ۲۸۰
 دوست محمد شاه ۲۸۴ ، ۲۸۵
 ۲۸۶
 دولت آباد ۲۴۴
 دولت راو ۲۸۳
 دولتخات لودھی ۱۵ ، ۱۸
 ۱۹ ، ۲۰
 دهرمت ۲۰۴
 دهلپور ۳۰ ، ۳۱۲

خراسان ۷۰ ، ۶ ، ۷ ، ۱۰ ، ۱۵
 ۷۰ ، ۲۶۴ ، ۳۱۱ ، ۳۵۴
 خرید ۳۶ ، ۴۷ ، ۱۰۲
 خسرو بن جہانگیر ۱۶۱ ، ۱۶۴ ،
 ۱۶۷ ، ۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۱۸۵
 ۱۸۷ ، ۲۲۳
 خضر خان ۱۰۰
 خضر خیل ۱۷
 خلاصۃ التواریخ ۳۲۲
 خلیجون ۷ ، ۱۲۲
 خلیج العربی ۹۷
 خنجان ۳۴۲
 حواجه شاہ منصور ۱۲۲
 حواجه ملک اعتماد خان ۱۰۸
 خوارزم ۳۴۱ ، ۳۵۴ ، ۳۴۵
 ۳۴۶ ، ۳۵۰ ، ۳۵۶
 خواند امیر ۶۹
 خوشآب ۱۶
 خوشحال ۲۲
 حیر آباد ۲۹

د

دارا شکوہ ۱۴۲ ، ۱۷۴ ، ۱۸۵
 ۱۹۶ ، ۲۰۲ ، ۲۰۳ ، ۲۰۴
 ۲۰۶ ، ۲۰۷ ، ۲۱۳ ، ۲۱۴
 ۳۲۲

١١٢ ، ٧٣ ، ٥٦
رانا موار ١٧٦ ، ١٧٦ ، ١٨٦
رانی درو کاوتی ١٠٩
راول اودای سنک ٣٨
رای براتب ١١٢
رای سنغ ٢٣٣
رای سورجانا ١١٣
رفیع الدرجات ٢٦٠
رفیع الثان ٢٥٦
رنجیت سنغ ٢٨٥
رتنپہور ٣٠ ، ١١٣
روبرٹس ٢٨٦
الروسیا ٩٣ ، ٣٨٤ ، ٣٤٥
روما ٣٣٨
الروھلا ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ،
٢٧٦

ز

زبان اوردو ٣٢٤
زبده التوارخ ٣٢٢
الزباد شتیة ٣٣٩
زین خان ١٢٣
زین الخوافی ٢٣

س

السامازون ٣٣٥ ، ٣٥٩

دھلی ٣٦ ، ٣٢ ، ٩١ ، ٩٢ ،
١٠١ ، ١٤٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦
٢٧٧ ، ٢٩٢
دھلی الجدیة ٢١١ ، ٣١٣
دبالبور ١٨
دین یھی (انظر المذهب الإلهی)

ذ

ذو القنار خان ٢٥٧

ر

الرابطة الإسلامية ٣٠١
راجا جسوانت ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
٢٢٢٥
راجا محل ١٢٠
الراجیوتیون ٣٥ ، ٢٢٩ ، ٢٥٣ ،
٢٥٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٩٣
راجکره ٢٤١
رازن نامه ٣١٦
رام داس ٢٢٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
٢٤٢
رام موهان ٢٩ ، ٣٢٦
الراماینا ١٣١ ، ٣١٦
رانا سنکا ١٤ ، ٧٥ ، ٣٠ ،
٣٤ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٤

سليمان الأول العثماني ۵۱
سليم بن أكبر (انظر جهانكير)
سليم جشي ۱۱۵
سليم شاه سور ۸۹ ، ۹۰
سليمان بن دارا شكوه ۲۰۴
سليمان خان كراتي ۱۱۹
سليمان شاه ۱۱۰
سليمان القانوني ۱۱۷
سمرقند ۲ ، ۳ ، ۴ ، ۱۰ ، ۱۱
۱۲ ، ۵۱ ، ۶۸ ، ۷۰
۳۰۹ ، ۳۴۴ ، ۳۵۰ ، ۳۵۱
۳۵۳ ، ۳۵۴ ، ۳۵۶
سمر كره ۲۰۵
سنهبل ۵۸ ، ۲۶۳
سنجر السلجوقي ۳۳۶
سنجشوار ۲۴۱
السند ۸۳ ، ۸۶ ، ۸۹ ، ۹۱ ،
۹۵ ، ۹۷ ، ۱۲۴ ، ۲۰۴ ،
۳۰۱
سنديا ۲۷۰ ، ۲۸۲ ، ۲۸۳
سنغ (غورو) ۲۲۴
سنول ۳۱۶
سوزات ۱۱۶ ، ۱۱۷ ، ۱۸۱ ،
۱۸۳ ، ۲۳۲ ، ۲۳۵ ،
۲۷۸ ، ۲۴۸
سورج من ۲۷۵

سبكتكين ۲۹۷
ستروي جي ۳۸
السناميون ۲۲۲ ، ۲۲۳
سخن راي ختري ۳۲۲
سراج الدولة ۲۷۲
سرساوه ۲۱
سرنديب ۲۱۸ ، ۲۸۲
سر نفايم ۲۸۱
سر نكبور ۳۰
سر هند ۲۵۵ ، ۲۵۸
سعد آباد ۲۲۲
سفينة الأولياء ۳۲۲
السك ۱۶۸ ، ۱۶۹ ، ۲۱۵ ،
۲۲۲ ، ۲۰۲ ، ۲۵۳ ، ۲۵۴
۲۵۸ ، ۲۶۶ ، ۲۷۵ ، ۲۸۵
۲۸۷ ، ۲۹۴
سكري ۳۱ ، ۱۱۴ ، ۱۱۷ ،
۱۶۰ ، ۳۱۱
سكندر شاه بيجابوري ۲۳۸
سكندر شاه سور ۹۱ ، ۹۲ ،
۹۶ ، ۹۸ ، ۱۰۰ ، ۱۰۱
سكندر لودهي ۰۱۳ ، ۰۱۴ ، ۲۵۱
اللاحقة ۳۵۹
سلسلة العدل ۱۶۵
سلطان بن اورنكزيب ۲۴۳
سلطان خانيم ۸۸

شاهجه ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٣١ .

٢٣٨ ، ٢٣٢

شاهخ ٣٥١ ، ٥٣ .

شاهو ٢٥٦

شايسته خان ٢١٨ ، ٢١٩ .

٢٤٩ ، ٢٣٢

شجاع بن شهجهان ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

شجاع الدولة ٢٧٣ ، ٢٧٦ .

شجاع الملك ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

شجاعت خان ٩١ ، ٢٢١ .

شركة الهند البريضية ٢٧١ ، ٢٨٠ .

٢٨١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ .

٢٩٥

شركة الهند الفرنسية ٢٧٩

شهبوجي ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ .

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

شار غوندا ٢٢١

شمس الدين محمد غزنوي أمك ٨١ .

١٠٧

شهاب الدين احمد خان ١١٧

شهاب الدين محمد النوري ١٣ ، ٢٣ .

٢٤ ، ٤٥ ، ٢٥

شهريار ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٨ .

شهزاده خرم (انظر : شاهجهان)

شيباني خان الأوزبك ٤ ، ٨ ، ٩ .

١٠ ، ٥٢ ، ٣٥٧ .

سوز داس ١٥٨

سومناث ٢١٦ ، ٢٩٧ .

سيبيريا ٣٣٣

البيت ٣٣٠ ، ٣٤٨ .

سيون ٣٣٠ ، ٢٣٣ ، ٣٥٥ .

٣٥٧

سيد علي تبريزي ٣١٥ ، ٣١٦ .

سيد مهدي خواجه ٥٠

سيليزيا ٣٤٥

سيواك ١٠١

ش

الشامانية ٣٣٩ ، ٣٤٨ .

شاه بك أرغون ١٧

شاه بكخان ١٧٢

شاه شجاع ١٨٥ ، ٢٠٧ .

شاه علم ٢٧٢ — ٢٨٩ ، ٢٩٤ .

شاهجهان ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ .

١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٥ —

٢١٢ ، ١٢٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣١

٢٤٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٨

٣٢٢ ، ٣٢٢

شاهجهان الثاني ٣٦٠

شاهجهان ناآباد ٣١٣

شاهجهان تامه ٣٢٢

خضر نامه ٣١٦

ظهیر الدین محمد بابر (انظر : بابر)

ع

عادل شاه سور (انظر محمد عادل)

عالمکیر ٢٠٥

عالمکیر الثانی ٢٦٨ ، ٢٦٩

عالمکیر نامه ٣٢٢

عباد تخانه ١٢٩ ، ١٣٥

عباس الصفوی ١٢٤ ، ١٧٢

عباس الصفوی الثانی ١٩٨

عبد الرحیم خانخانان ١١٨ ، ١٢٥

٣٢٢ ، ١٦٧

عبد الرحیم دیوان لاهور ١٦٨

عبد الصمد (قناس) ٣١٥ ، ٣١٦

عبدانقادزین ملوکشاه (انظر : بدآونی)

عبد اللطیف میرزا ٣٥٣

عبدالله خان أوزبک ١٠٩ ، ١٢٣

٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

عبد الله قطب شاهی ٢٠١

عبد الله كتابدار ٦٩ ، ٣٢٠

عبد الله مير جمله معتمد الملك ٢٥٧

عبد النبي (صدر الصدور) ١٥٦

عثمان بن عفان ٤

عثمان أفغان ١٧٠

العثمانيون ٩٧ ، ١١٩ ، ١٢٤ ،

٣٣٨ ، ١٥٤

شيتا جونخ ٢١٨

شير أفکن ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧

شير شاه ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩

٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠

٩٦ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ١٦٣

شير شاه الثاني ١٠٢ ، ١٠٦

شيطانور ١٤٠

شيعه ٢٢٨ ، ٢٣٧

شيواجي ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ،

٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠

ص

صافانيان ٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

الصغد ٣٤٠ ، ٣٥٦

صلاح الدين أمير بهيلسه ٣٨

سغدار جنك ٢٦٧ ، ، ٢٦٨

نصفويون ١٥

نصين ٣٢٩ ، ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥١

ظ

طبقات أكبری ٣٢١

ظشقند ٣ ، ٥

ظهباسب ٤٩ ، ٨٧ ، ٨٨

ظ

ظفر خان ١٢٠

عمل صالح ٣٢٢
 عناية الله ١٥٧
 عناية الله ٣٢٢
 عين جالوت ٣٥٥
 غ
 غازي خان لودهي ١٩ ، ٦٩
 غازيبور ٢٩
 غازي الدين نظام الملك (انظر نظام الملك)
 غاندي ٣٠١
 غجديون ١١
 الغز ٣٣٥ ، ٣٣٦
 الغزنويون ٣٥٩
 غزنه ٦٤٥ ، ٥٢ ، ١٢٤ ، ٣٥٤
 الغزو الأفغاني ٢٦٧ — ٢٧٠
 الغزو الفارسي ٢٦٤ — ٢٦٧
 غلام قادر ٢٧٧ ، ٢٨٩
 غور ٧٩
 الغوركها ٢٨٧ ، ٢٩٤
 غولكونده ٩٧ ، ١٢٦ ، ١٨١
 ١٨٣ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٩
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠
 ٣١٤
 غوندوانا ١٠٩
 غياث الدين تغلق ١٣

العراق ٣٥٤ ، ٣٥١
 عرش الطاووس ٢١١
 عزيز ككا ١١٧ ، ١٦٠ ، ١٦٤
 ١٦٧
 عسكري بن بابر ٤٧ ، ٤٨ ، ٧٨
 ٨٩
 عسير ١٢٦
 عظيم النان ٢٥٦ ، ٢٥٧
 علاء الدين الحلبي ١٣ ، ٧٦ ،
 ١٢٥ ، ١٥٣
 علاء الدين علم خان ١٣ ، ١٩
 على أكبر جامي ٨٧
 على جوهر ٢٧١
 على خان ٢٥٧ ، ٢٥٩
 على شير نوائي ٦٩
 على قاسم ٢٧٣ ، ٢٧٤
 عليقلي (استاذ مدفع) ٤١
 عليقلي استاجلو (انظر : شيرافكن)
 عليقلي خانزمان ٩٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧
 ١٠٩
 على وردان ١٩٧ ، ١٩٨
 على ميرزا ٤
 على تقى ٢٠٦
 عليكر ٣٠٠ ، ٣٠١
 عمر شيخ ميرزا ٢٠١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥

فيكتوريا ۲۷

فيئا ۳۳۸ ، ۳۴۵

قي

قاسم خان ۱۹۲

قاليقوٹ ۱۸۳

قبا ۳

القبيجاق ۳۳۵ ، ۳۴۴

القبيلة الذهبية ۳۴۸

قتلق خان ۳۴۲

قتلق نكار خانيم ۱

قُم بن عباس ۴

قراقورم ۳۴۵

قرشي ۱۱ ، ۱۲

القرغيز ۳۳۳ ، ۳۳۵

القرلق ۳۳۳

القره خانيون ۳۳۵

القره ختاي ۳۳۶

القرلباش ۱۱ ، ۵۵ ، ۸۸

قزوين ۸۷

قطب جليسري ۱۳۴

قطب الدين بنغالي ۱۷۷

القلعة الحمراء ۲۱۱

قلندر ۵۶

قندهار ۸ ، ۹ ، ۱۷ ، ۸۷ ، ۸۸

۸۹ ، ۱۲۴ ، ۱۷۲ ، ۱۷۳

۱۸۷ ، ۱۹۷ ، ۱۹۹ ، ۲۸۶

ف

فارس ۴ ، ۱۱ ، ۱۲ ، ۲۴ ،

۲۹۳

الفتاوي الهندية (المالكيرية) ۲۴۸

۳۲۳

فتجور سكري (انظر سكري)

فتح (بتا) سنغ ۱۱۱

فتح علي شاه ۲۱۲

فدای خان ۲۲

فرخ سير ۲۵۷ — ۲۵۹

فرغانة ۱ ، ۲ ، ۳ ، ۴ ، ۵ ، ۵۱

۱۵۴ ، ۳۱۷ ، ۳۵۵ ، ۳۵۷

فرمول ۱۳

فرنا والفرنسيون ۱۳۴ ، ۱۸۱ ،

۲۷۸ ، ۲۸۱ ، ۲۸۲ ، ۳۰۷

فلسطين ۳۴۵ ، ۳۴۹

فينكوفتش ۲۸۴

فيروز تعلق ۱۷۱

فيروز شاه سور ۹۱

فيضي بن المبارك ۱۲۸ ، ۱۵۷ ،

۳۱۹ ، ۳۲۱

فيليب ملك فرنا ۳۳۸

ف

القولجا ۳۳۴ ، ۳۳۵ ، ۳۳۹ ،

۳۴۱

فيايانكر ۲۵ ، ۹۷ ، ۱۸۱ ، ۳۱۴

ڪلڪتا ۱۸۳ ، ۲۱۹ ، ۲۴۹ ،
۲۷۹ ، ۲۷۲
ڪلنچر ۸۴ ، ۱۱۳
ڪمپي ۷۷ ، ۱۱۶ ، ۱۱۷ ،
۱۱۸ ، ۱۵۵ ، ۱۸۳

ڪنچرا ۱۷۱
ڪنڪان ۲۳۲ ، ۲۳۵ ، ۲۳۷
ڪورنواليس ۲۸۱ ، ۲۸۹
ڪورومانڊل ۱۸۳ ، ۲۸۱

ڪوريا ۳۴۵
ڪوش بهار ۲۱۷
ڪوفنڊ سنڱ ۲۵۵
ڪوهينور ۲۶
ڪيٽانيا ۱۴۲
ڪين ۳۴۲ ، ۳۴۴

گگ

الڪجرات ۲۴ ، ۳۰ ، ۳۷ ، ۷۳
۷۶ ، ۸۷ ، ۹۷ ، ۱۰۴ ، ۱۱۶ ،
۱۱۸ ، ۲۶۷ ، ۲۸۲

ڪڪر ۴۸
ڪلبدن ۳۲۰
ڪلياني ۲۲۰
الڪنچ ۵۴ ، ۸۱ ، ۹۱ ، ۹۵ ،
۳۵۱
ڪواليار ۲۹ ، ۳۵ ، ۴۸ ، ۵۸ ،

قنوج ۲۹ ، ۴۵ ، ۴۶ ، ۷۹ ،
۸۱ ، ۲۶۷
القوفاز ۳۴

ڪ

ڪابل ۵ ، ۶ ، ۸ ، ۴۹ ، ۵۰ ،
۵۲ ، ۸۹ ، ۹۶ ، ۱۱۰ ،
۱۲۲ ، ۱۲۳ ، ۱۲۴ ، ۱۴۶ ،
۲۲۰ ، ۲۸۵ ، ۲۸۶ ، ۳۱۱ ،
۳۱۷ ، ۳۵۴

ڪالبي ۲۹ ، ۳۰ ، ۹۹
ڪام بخش ۲۴۳ ، ۲۴۴ ، ۲۵۳ ،
۲۵۴ ، ۲۵۵

ڪامران ۱۷ ، ۷۵ ، ۸۱ ، ۸۸ ،
۸۹ ، ۹۰

ڪامڪر ۳۲۲
ڪانسوه ۳۳۳ ، ۳۴۴
ڪبير ۱۴۲

ڪراچي ۳۰۱
ڪرشنا (نهر) ۲۷۹
ڪرشنا ديوا ۲۵

ڪرناڻيا ۲۸۰
ڪريواڻن ۳۴۲
ڪش ۳۵۶ ، ۳۵۸

ڪشمير ۹۷ ، ۱۵۵ ، ۲۰۴ ،
ڪلانور ۹۴
ڪلايف ۲۷۳

مانسنگ ۵۷
مانسنگت ۱۰۱
ماہم آنسنگ ۱۰۷ ، ۱۰۴
مانیسکیور ۱۱۰
مبارز خان سور ۹۱
مبارک خان لوحانی ۱۰۴
مبارک نا کوری ۱۲۸
تہرہ ۲۱۶
الحیر ۳۴
مجمع البحرین ۳۲۲
المسودی ۲۸۶
محمد إقبال ۳۰۰ ، ۳۰۱ ، ۳۰۴
محمد بن اُورنگزیب ۲۰۱
محمد بخت خان ۲۹۴
محمد حیدر دوغلات ۶۹
محمد شاه ۲۶۰ — ۲۶۷
محمد صالح ۳۲۲
۱۸۴، عادل شاه شور ۹۱ ، ۹۶
۲۰۲ ، ۱۰۲ ، ۹۷
محمد عبد الباقي ۱۵۷ ، ۳۲۱
محمد علی ۳۲۰
محمد علی جنہ ۳۰۱
محمد الغوری (اظہر : شہاب الدین
الغوری)
محمد قاسم ہندوشاہ ۱۵۷
محمد قلی خان ۳۷۲
محمد کاظم ۳۲۲

۳۱۲ ، ۲۰۵ ، ۹۲
کابریکہ ۲۰۲

ل

لاہور ۱۶ ، ۱۸ ، ۴۹ ، ۸۱ ،
۹۲ ، ۱۰۱ ، ۱۱۰ ، ۱۲۱ ،
۱۵۵ ، ۱۶۸ ، ۱۸۵ ،
۲۲۰ ، ۲۵۸ ، ۳۱۱ ،
لنگہتاو (لکنو) ۴۶ ، ۷۶ ،
۲۷۴
لوحانی ۱۳
الودھیون ۱۳
لورنس ۲۹۴
لوئس الخامس عشر ۲۸۰

م

مآثر رحیمی ۱۵۷ ، ۳۲۱
مآثر عالمگیری ۳۲۲
ماتہو ۲۲۲
مادانا ۲۳۹
مادھوجی سندیا ۲۷۷
المالقی ۳۴۷
مالوہ (ماندو) ۲۵ ، ۳۰ ، ۳۷ ،
۷۶ ، ۷۷ ، ۷۸ ، ۱۰۳ ،
۱۰۵ ، ۱۱۱ ، ۱۱۷ ، ۱۴۶ ،
۱۹۰ ، ۲۴۳ ، ۲۶۳ ، ۲۶۷

٢٩٠
منزار شاه ٤
مسجد الأؤلؤ ٢١١
مسجد نواب بيكيم ٢١٦
المسيح ١٣٤
مصر والمصريون ٢٨٢ ، ٣٢٣
٣٤٥ ، ٣٤٦
مصطفى الروى ٤٠
مظفر خان تربتي ١٢٠
مظفر شاه الثاني ١١٦ ، ١١٨
المتصم العباسي ٣٤٠
معروف فرمولي ٢٩
معظم ٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧
المغول والترك ٣٢٨ — ٣٦٤ ،
مفولستان ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠
مقرب خان ٢٤١
مكة المكرمة ٨٩
مل ديو ٨٧
المليار ١٥٥ ، ٢٦٢
الملتان ٨٣ ، ٩٧ ، ١٢٤ ، ١٤٦
ملك جيون ٢٠٦
ملك عتبر ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٧ ،
٢٣١
ملوت ٢١
ممتاز محل ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٢ ،

محمد هاشم خاني خان ٣٢٢
محمود تيمور
محمود خان طشقند ٢ ، ٥
محمود خان لودهي ٣١ ، ٣٨ ، ٤٧ ،
٧٣
محمود الخلجي ٧٦
محمود الغزنوي ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ،
٤٥ ، ١١٦ ، ١٧١ ، ٢٥٠ ،
٢٩٧ ، ٣٢٤
محمود ميرزا ٣ ، ٦٧ ، ٨٧
المحيط الهندي ٩٧
مدراس ١٨٣ ، ٢٧٩
المذهب الإلهي ١٢٨ — ١٤٣
مراد بن أكبر ١١٨ ، ١٢٢ ،
١٢٥ ، ١٦٠
مراد بخش ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،
مراد خان ٨٨
مرشد قلي خان ٢٠٠ ، ٢٦١
مرو ٨
المرهتيا ١٧٠ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،
٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،
٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ،
٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ —
٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

میران بہادر ۱۲۶
 میران خان ۲۷۲
 میرانشاہ بن تیمور ۳۵۱
 میرزا حکم ۹۶، ۱۰۹، ۱۲۱
 ۱۲۲، ۱۲۳، ۱۵۵
 میرزا مغل ۲۹۴
 میسور ۲۸۰
 ن
 نابلیون بوناپرت ۲۸۱
 ناجیور ۲۸۲
 نادرشاہ ۲۱۲، ۲۶۴ — ۲۶۷
 ۲۸۷
 نانک ۱۴۲، ۲۲۳، ۳۲۴
 نانا ۲۹۳
 نجیب الدولہ ۲۶۸، ۲۶۹، ۲۷۴
 ۲۷۹، ۲۷۷، ۲۸۱، ۲۹۴
 نرید ۱۰۶، ۱۲۴، ۲۶۲، ۲۶۳
 نصرت شاہ ۲۵، ۴۷
 نصیر لوحانی ۲۹
 نظام (السقاء) ۸۰
 نظام شاہی ۱۷۰، ۲۳۱
 نظام الدین احمد ۱۵۷، ۳۲۱
 نظام الملک (نظام حیدر آباد) ۲۵۹
 ۲۶۰، ۲۶۱، ۲۶۲، ۲۶۳
 ۲۶۵، ۲۶۶، ۲۶۸، ۲۷۱، ۲۷۴
 ۲۷۵، ۲۷۷، ۲۸۰، ۲۸۱، ۲۹۴

۲۰۲، ۲۰۸، ۲۱۱
 من سنف ۱۱۲، ۱۱۳، ۱۲۲
 ۱۲۳، ۱۳۰، ۱۴۱، ۱۶۰
 ۱۶۴، ۱۶۷، ۱۶۸
 منتخب التواریخ ۱۵۶، ۳۲۰
 منتخب الآباب ۳۲۲
 مندلسو ۲۱۰، ۳۱۳
 مندنی ہارہ ۳۸
 منعم خان ۱۱۹
 منق وا ۳۴۲
 منقوتانا ۳۴۲
 منقولیا ۳۳۶
 منیر مرغینانی ۱
 موار ۲۵، ۳۰، ۴۶، ۹۷
 ۱۱۳، ۱۴۶، ۱۸۷، ۲۲۹
 موسکو ۳۵۱
 مہابت خان ۱۷۴، ۱۷۵، ۱۹۰
 ۱۶۴
 المہابہارتا ۱۳۲، ۱۳۲، ۳۱۶
 مہارشترا ۲۳۰
 میان نانس ۳۱۹
 میدنی زاو ۴۵
 میر جملہ (محمدسید) ۲۰۱، ۲۰۲
 ۲۱۷، ۲۱۸
 میر سید علی (نقاش) ۱۵۸

٣٢٠ ، ٣١٨ ، ٣١٥ ، ٣١٢

هابو نامه ٣٢٠

همت بهادر ٢٧٧

الهملایا ٤٨ ، ١٢٤ ، ٣٢٩

هندال ٨٩

الهندستان ٥٩ — ٦٤ ، ٩٦ ،

٣٤٩ ، ٢١٧

هوجلې ١٩٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

هولاكو ٣٤٨

هولكر ٢٦٧

الهولنديون ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٧٣

٢٨٢

هومبروس ١٣٢

هونج نو (الهون) : ٣٣٣ ، ٣٣٤

٣٥٨

هيمو (هيمون) ٩١ ، ٩٦ ، ٩٨

٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣

٢٧٠

ی

الياما ٣٤٦ ، ٣٦٣

الياقوت ٣٣٣

يرقند ٣٤٩

اليسوعيون ١٣٤

اليوبانيشاد ٢٠٣ ، ٣٢٢

يوجا ما شيت ٣٢٢

يوسفزای ١

يني سي ٣٣٣

لنوبهار ٣٥٦

نور افشان ٥٠

نور الحق ٣٢٢

نور جهان ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤

١٧٥ ، ١٧٦ — ١٨٠

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٧٧

١٩٧

نيبال ٢٨٧ ، ٣١٤

النيروز (نوروز) ٢١٤

نيره تو ٩

نيكوسير ٢٦٠

نيلا ب ١٦

و

الوزيرى ١٧ ، ١٨٦

ولسلى ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩١

وليم هوكنز ١٨٢

ه

هار غونند ٢٢٤

هسنج ٢٨٢ ، ٢٩٠

هرات ١٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٧ ، ٣٥٤

هرم ديوا ٨٣

الخرزا ٧ ، ٢١٩

هيايون ٩ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٦ ،

٢٩ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦١

٧٢ — ٩٣ ، ١١٦ ، ١٦٣